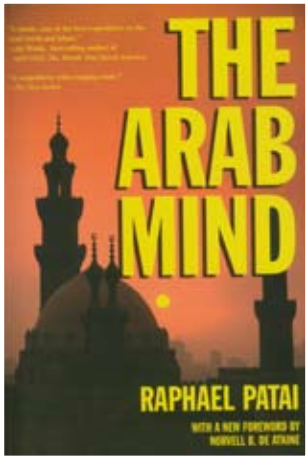

1 العقل العربي

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

الفصل الأول: العرب والعالم

1. الإسلام، الشرق الأوسط، العرب

في كتابه الصغير المعنون (تحرير مصر: فلسفة الثورة) حدد جمال عبد الناصر موقع بلاده -مصر- بالنسبة للعالم في ثلاث دوائر متداخلة. وكانت الدائرة المركزية هي (الدائرة العربية) التي تضم مصر بالإضافة إلى «ما هو جزء منا، وما نحن جزء منه، وما كان تاريخنا جزءا لا يتجزأ من تاريخه». أما الدائرة الثانية فتمثلت بالقارة الأفريقية التي ترتبط مصر بها بسبب الجغرافيا، ونهر النيل، والمسؤوليات القيادية، و«الوعي الافريقي المتنور.» أما الدائرة الثالثة «التي تشمل قارات ومحيطات فهي نطاق إخوتنا في العقيدة،» وهي دائرة الإسلام. ومن الطبيعي أن يكون واضحا للعيان أن هذه البنية قائمة بشكل أساسي على الأهداف السياسية التي وضعها عبد الناصر لمصر في الأيام الأولى التي تلت الإطاحة بالملك فاروق: إذ رأى بأن قدر مصر يحتم احتلال -وبالتالي قيادة- الجزء المركزي في هذه التجمعات الأممية الثلاثة التي تشكل العالم العربي، والافريقي، والإسلامي.

من وجهة نظر ثقافية يمكن إثبات وجود اثنتين فقط من الدوائر المتداخلة التي أشار إليها عبد الناصر أما الثالثة فتصبح عديمة المعنى. فمصر تنتمي -كما هو واقع أية دولة عربية أخرى- إلى العالم العربي، بالإضافة إلى العالم الإسلامي الذي يكبر سابقه حجما. ولكن أخذ العامل الثقافي بعين الحسبان يؤدي إلى إخراج مصر وباقي الدول العربية الأخرى التي تقع على الساحل الأفريقي للبحر الأبيض المتوسط من دائرة الانتماء إلى العالم الافريقي. أما بالنسبة للسودان -وهي دولة عربية لها طابعها الخاص- فصورة الوضع فيها أقل وضوحا، على الرغم من التعميم الذي يمكن إطلاقه حولها بأن ثلثها الجنوبي فقط ينتمي إلى افريقيا، أما الثلثان الشماليان الباقيان فهما يشكلان جزءا من العالم العربي.

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل الأول: العرب والعالم

ثقافيا وعرقيا ولغويا.

وبينما نرى من وجهة نظر ثقافية أن الدول العربية ليس لها أي مشتركات -وإن وجدت تكون ضئيلة- مع أفريقيا السوداء، فإن هناك دائرة ثالثة تنتمي إليها كل الدول العربية، ويمكن ترتيب هذه الدائرة -من حيث الحجم- بين الدائرة العربية الأصغر، والدائرة الإسلامية الأكبر. وهذه الدائرة الثالثة المتوسطة هي دائرة الشرق الأوسط، وهي عبارة عن رقعة من الأرض يحددها الطابع الثقافي بشكل واضح وتتموضع جغرافيا بين أوربا وأفريقيا السوداء ووسط وجنوب آسيا.

ترتكز الدائرة الإسلامية على الديانة التوحيدية العالمية العظيمة التي أوجدها النبي العربي محمد (570-632م)، ولقد أدت موجة الانتصار الإسلامي التي اجتاحت جزءا كبير من العالم القديم بعد وفاة النبي محمد بعدة عقود، إلى تشكيل ظاهرة فريدة في تاريخ الإنسانية. واستمرت السيطرة الإسلامية إلى القرن الخامس عشر عندما أجبرت على الانسحاب من اسبانيا أمام المسيحية. أما في هنغاريا فقد استطاعت قوة إسلامية -هي الأتراك- أن تبقى مسيطرة هناك لغاية القرن الثامن عشر. أما في البقاع الأخرى، وخاصة وسط أفريقيا، فقد استمر الإسلام بالانتشار. وفي يومنا هذا يدين من سبع إلى سدس البشرية بالإسلام، أو -بأرقام مجردة- حوالي 400-500 مليون نسمة. وفي منطقة شاسعة تمتد تقريبيا من الشاطئ الأفريقي للمحيط الأطلسي إلى باكستان الشرقية (بنغلادش)، ومن آسيا الوسطى إلى الصحراء الأفريقية، نجد أن الإسلام هو دين حوالي 90% من سكان هذه المنطقة، كما هو الحال في باكستان الشرقية (بنغلادش) وإندونيسيا. وعلى محيط هذه الكتلة الإسلامية المتينة توجد منطقة كبيرة متاخمة لها يعتنق الإسلام أكثر من نصف سكانها، وهذه المنطقة -بالتالي- محاطة بحلقة أخرى من المناطق التي توجد فيها أقليات مسلمة كبيرة العدد.

وفي داخل العالم الإسلامي تقع الدائرة الثانية: الشرق الأوسط. وفيما عدا الحدود

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©

الفصل الأول: العرب والعالم

البحرية. فإن الشرق الأوسط محاط من جميع الجهات بمناطق تشكل جزءا من «دار الإسلام.» وبينما يقتبس العالم الإسلامي هويته من الدين الإسلامي لوحده. فإن الشرق الأوسط ليس مفهوما دينيا بل ثقافيا: إنه -كما ذكرت في موضع ما- «قارة ثقافية» يتسم بتكوين ثقافي مميز. وإحدى أهم خصائص هذا التكوين: الإسلام (بما أن الإسلام لوحده لا يكفي لتثبيت الناس في رقعة الشرق الأوسط).

وبالتأسيس على مقياس ثقافي محدد. يمكن القول بأن الشرق الأوسط يتكون من المنطقة التي يحدها من الشرق: المحيط الأطلسي. ومن الشمال: البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود والقوقاز وبحر قزوين والجمهوريات السوفييتية [سابقا] تركمانستان وكازاخستان وطاجكستان. ومن الشرق: نهر السند. ومن الجنوب الشرقي: البحر العربي. ومن الجنوب: النطاق السوداني. وتوجد في العديد من دول الشرق الأوسط أقليات مسيحية كبيرة معتبرة. بالإضافة إلى بقايا من أقليات يهودية. بخاصة في تركيا والمغرب. إن نصف سكان لبنان تقريبا هم مسيحيون. أما إسرائيل فهي تتكون من شعب يهودي أساسا.

ومن دون أن نغفل وجود وأهمية الأقليات غير المسلمة. فإنه يمكن القول بأن الشرق الأوسط بشكل عام: مسلم. كما هو الحال في قولنا بأن أوربا وأمريكا: مسيحيتان. كما يمكن أيضا تقدير نسبة المسلمين في الشرق الأوسط بـ 90% مع الأخذ بعين الاعتبار كافة المحاذير الناتجة عن التعامل مع الأرقام المتعلقة بمنطقة تفتقر بشدة إلى الإحصائيات.

أخيرا نأتي إلى العالم العربي. فنبدأ بالقول بأنه كما هو الشرق الأوسط محاط بالعالم الإسلامي. فإن العالم العربي محاط بالشرق الوسط. وبتعبير آخر: يشكل العالم العربي نواة الشرق الأوسط. إن المسطحات المائية الكبرى -البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود والبحر العربي- تحيط بالعالم الإسلامي والشرق الأوسط بالإضافة إلى العالم العربي. ولكن الجانبين الشمالي والشرقي يحتويان على دول شرق أوسطية مسلمة غير عربية متاخمة للعالم العربي: وهي تركيا وإيران وباكستان. أما في الجانب الجنوبي -الأفريقي- فإن

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل الأول: العرب والعالم

العالم العربي يفسح المجال تدريجيا لمناطق شرق أوسطية مسلمة غير عربية مثل دول الصحراء ودول السودان.

إن العالم العربي نفسه ينقسم جغرافيا إلى قسمين رئيسيين: يقع أحدهما في جنوب غرب آسيا، ويقع الثاني في شمال أفريقيا. إن القسم الذي يقع في جنوب غرب آسيا، بالإضافة إلى مصر، يتسم بالسيطرة الكاملة تقريبا للغة العربية على ألسنة السكان. وإلى الغرب من مصر، وعلى طول الساحل الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط تقع دول (شمال أفريقيا) العربية والتي تحتوي أقليات معتبرة لا تزال محتفظة باللغة البربرية كلغة أم، بالإضافة إلى أن الطبقات المتعلمة في هذه الدول تتقبل التعامل باللغات الأوربية -وبخاصة اللغة الفرنسية- بشكل يفوق ما هو عليه الحال في الدول العربية الآسيوية ومصر.

تصطف خمس من الدول العربية على خط الساحل الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط: المغرب والجزائر وتونس وليبيا ومصر، وإلى الجنوب من مصر تقع الدولة العربية الأكبر: السودان، وإلى الشمال الشرقي تقع دول الهلال الخصيب: الأردن ولبنان وسوريا والعراق، بينما تقع إلى الشرق مباشرة: الجزيرة العربية، وهي تتكون من المملكة العربية السعودية واليمن واليمن الجنوبي [سابقا] وإمارات الخليج العربي. إن المساحة الإجمالية لهذه المنطقة تبلغ 4,658,063 ميل مربع، وفي عام 1970 كان يسكنها حوالي 121 مليون نسمة.

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

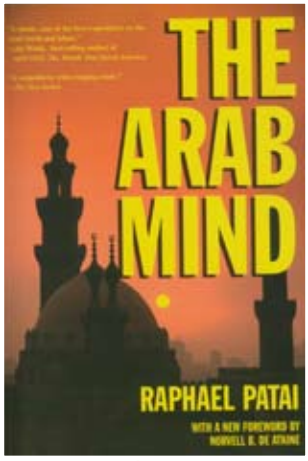

2 العقل العربي

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

الفصل الأول: العرب والعالم

2. من هم العرب

من بين الدوائر الثلاث الراسخة (العرب، الشرق الأوسط، الإسلام)، فإن الأولى والثالثة هما اللتان تتجسدان في الوعي العربي فقط. إن العرب مطلعون بشكل جيد على الدائرة الثانية. وفي الواقع، يواجه القارئ عبارة (الشرق الأوسط) كثيرا لدى قراءته للكتابات السياسية العربية الحديثة، لكن هذه العبارة تم اقتباسها وترجمتها من اللغات الأوربية، وبخاصة من اللغتين الانكليزية والفرنسية، حيث بدأ استعمال هذه العبارة بالرواج خلال الحربين العالميتين. وبما أنه ليس لهذه العبارة أصل محلي عربي، فإن هذا يدعو للتردد في الجزم بوجود مفهوم ضمن العقل العربي يحدد هذه المنطقة كمكان لبنية ثقافية محددة.

إن كلمة «العرب» كانت تشير في عصور ما قبل الإسلام إلى سكان شبه الجزيرة العربية والصحراء السورية، حيث ظهرت هذه العبارة في السجلات الآشورية: ففي سنة 854 ق.م. انضم گنديبو العربي ومعه ألف مقاتل على الجمال إلى بيرعدري الدمشقي (والذي ما هو إلا بن حدد II المذكور في الكتاب المقدس) للقتال ضد شلمانصر III في معركة قرقر. وفي هذا الظهور التاريخي الأول للعرب تراهم مترافقين مع الجمال -ومن الجلي هنا أنهم كانوا من بدو الصحراء الذين يرعون الجمال- وخلال القرون الثمانية والعشرين التي تلت لم يتوقف الارتباط بين العرب والصحراء أبدا. «كعربي في الصحراء» تشبيه ورد في سفر ارميا (3:2) والذي يعود إلى القرن السادس قبل الميلاد، وبنبرة يستعملها من يعبر عن حقيقة معروفة جيدا. وقبل أكثر من قرن من سلفه، أشار إشعيا في سفره (13:20) إلى «عربي ينصب خيمته» مما يفترض وجودا عربيا رعويا مترحلا يسكن الصحراء. إن الارتباط ما بين في المفهوم ما بين «العرب» و«البدو» وجد واستمر حيث ضاق الفرق بينهما بحيث كثيرا

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

الفصل الأول: العرب والعالم

ما نجد الكاتب العربي يستخدم كلمة «العرب» للدلالة على معنى يريد به «البدو». وهكذا قام ابن خلدون، المؤرخ الشهير في القرن الرابع عشر، باستعمال كلمة «العرب»، وهكذا ما زال البدو يسمون أنفسهم إلى يومنا هذا.

إن تأسيس الإسلام على يدي النبي محمد (570-632م)، ونشر الإسلام في شبه الجزيرة العربية خلال حياته، وسم بداية توسع عربية عريضة النطاق إلى خارج شبه الجزيرة العربية والصحراء السورية. وبدءا من هذا التاريخ، اكتسبت كلمة «العرب» معنى ثانيا: فقد جاءت لتدل على جميع الشعوب التي تخلت عن لغات أسلافها وتبنت اللغة العربية بعد أن اعتنقت الإسلام. وبشكل متزامن مع ذلك، فقد العرب الذين فتحوا الأرض الجديدة، خصائصهم القبلية الأصلية، واستقروا وأصبحوا من سكان المدن. إن مصير اللغة العربية في هذه البلدان الجديدة اختلف من مكان لآخر، لكن يمكن القول بشكل عام بأنه في العديد من البلدان تضاءلت تدريجيا القدرة على التمييز المباشر بين السكان الأصليين والفاتحين العرب، إلى أن اختفت. وخلال فترة قصيرة أصبح العرب المكون البشري الوحيد -أو الغالب- في منطقة شاسعة تمتد من شمال افريقيا وجنوب غرب آسيا.

لقد سعى الكثير من العلماء، عربا وغربيين، في سبيل الإجابة على هذا السؤال: «من هم العرب؟» وكانت الإجابات غالبا ما تتضمن واحدا أو أكثر من المعايير التالية: العرب هم من يتكلمون اللغة العربية، ونشؤوا في البلدان العربية، ويؤمنون بتعاليم النبي محمد، ويفتخرون بتراث الامبراطورية العربية، وينتمون إلى أحد الشعوب العربية.

إن التفكير للحظة في هذه المعايير يكفي ليتبين القارئ بأن بين من جميع المعايير السابقة، فإن المعيار اللغوي لوحده يعبر بشكل جيد عن كل العرب ولا يدمج بهم عناصر بشرية أخرى. فالأشخاص الذين يتكلمون اللغة العربية كلغة أم ربما يكونون قد نشؤوا ضمن ثقافات غير عربية (كالثقافة الفرنسية في شمال افريقيا) لكنهم لا يزالون يعتبرون أنفسهم عربا ويعتبرهم الآخرون كذلك. وهم قد يقيمون في بلدان غير عربية -لاحظ العدد

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

الفصل الأول: العرب والعالم

الكبير من العرب الذين يسكنون فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية ودول أمريكا اللاتينية وغيرها- لكنهم يظلون عربا. وقد لا يكونون من المؤمنين بنبوة النبي محمد -كما هو حال المسيحيين العرب- ومع ذلك فهم يحملون شعورا قويا بكونهم عربا ويتحدد توجههم الوطني كما هو حال أي مسلم عربي. وهناك الكثير من العرب الذين لا يفتخرون بتراث الامبراطورية العربية بسبب انتمائهم الشيوعي أو لأسباب كثيرة أخرى. وأخيرا فإن ثمة العديد من العرب الذين هاجروا إلى دول أخرى وحصلوا على جنسيتها وأصبحوا أعضاء في أمم أخرى، دون أن يفقدوا هويتهم العربية بسبب ذلك. وفي سياق مشابه، يمكن للمرء أن يشير إلى وجود أفراد وجماعات يحققون كل أو بعض المعايير المذكورة ولا يعدون من العرب، ومثال ذلك القبط المسيحيون في مصر، واليهود في كافة الدول العربية.

ولهذا السبب ورغبة بتعريف أفضل، فسنعتمد التعريف الذي اقترحه جبرا إبراهيم جبرا، وهو ناقد وروائي وشاعر بغدادي، للظاهرة المتمثلة في أن العربي هو «كل من يتكلم اللغة العربية باعتبارها لغته الأصلية، ولذلك يحس بأنه عربي.»

مهما يكن، فإن ذلك الرأي مهم جدا لأنه يبين الصورة كما يراها العرب، فهم لا يعتبرون أنفسهم أمما منفصلة متعددة أو شعوبا تعيش في كيانات سياسية منفصلة. ففي وجهة النظر العربية التي نشأ عليها جيل واحد ينتمي إليه معظم القادة العرب: يشكل العرب أمة واحدة (الأمة العربية) ويعتبر تقسيم الوطن العربي الواحد إلى العديد من الدول المنفصلة وضعا مؤقتا يجب -وسيتم- القضاء عليه عاجلا أم آجلا. وفي هذا الاعتقاد النظري أو المثالي يصبح جميع العرب إخوة وأبناء لأمة واحدة، أي يشكلون «قوما».

أما بالنسبة للإسلام فإن جميع العرب المتعلمين -وحتى أنصاف المتعلمين- يعلمون بأنه يضم -بالإضافة للعرب- أمما غير عربية ضخمة التعداد. والعرب -بالطبع- يعتبرون أنفسهم نواة الأمم المسلمة انطلاقا من كونهم الأمة التي ولد فيها الإسلام والتي حملت على عاتقها مهمة نشره على مستوى العالم. وينقسم العالم في وجهة النظر العربية

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل الأول: العرب والعالم

التقليدية إلى جزأين: جزء داخلي «دار الإسلام» وجزء خارجي «دار الحرب». وفي اللغة العربية يبدو التضاد بين «الدارين» أكثر وضوحا وتأثيرا مما هو الحال عند الترجمة للانكليزية، لأن كلمة «الإسلام» في اللغة العربية تحمل دلالة الجذر الذي اشتقت منه وهو «السلام». وبالتالي فإن معنى «الدارين» عند العرب يوصل مفهوم التضاد بين «السلام الداخلي» و«الحرب الخارجية». ويتطابق الحال هنا مع مفهوم «السلام الروماني Pax Romana» الذي كان يطلق على وضع الأراضي «المسالمة» التي تفصلها «الحدود» عن ما وراءها من الأراضي التي كان يسيطر عليها البرابرة الهمجيون.

وتحت تأثير الهيمنة الغربية والاختراق الكاسح الذي حققه النفوذ الغربي، اندثر مفهوم «دار الحرب» في القرن العشرين حتى عند العرب التقليديين، ليبقى في أذهان المستغربين وحدهم. ولكن إذا كان مفهوم دار الحرب لم يعد موجودا فإن التمييز ما بين المسلمين والكفار بقي وبصورة حادة.

خلاصة القول: إن وجهة النظر العربية حول العالم يمكن تمثيلها بثمرة تتكون من 3 أقسام: ففي المركز هنالك النواة والجزء الأعز وهو العالم العربي. ثم يحيط به لب الثمرة وهو العالم الإسلامي الذي يغلف النواة العربية بما يشبه الغطاء الواقي. ثم في الخارج تأتي القشرة: العالم غير الإسلامي.

بقيت هناك نقطة أخيرة. فعلى الرغم من الاختلاف التاريخي بين العالمين العربي والإسلامي، يميل العرب دوما إلى خلط العروبة بالإسلام والإسلام بالعروبة. وهذه النزعة لا تلاحظ فحسب عند العرب غير المثقفين الذين لا يتوقع منهم أن يعرفوا الكثير عن وجود المسلمين غير العرب، بل ضمن الطبقة المثقفة أيضا. فكتابات أحد المفكرين العرب المرموقين جدا، وهو محمد كرد علي (1876-1953م) يمكن أن يشار إليها على أنها مثال لغياب هذا التمييز: فهذا العالم السوري البارز، الذي كان لسنين عديدة رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق، ألف -ضمن كتب أخرى- كتابا عنوانه (الإسلام والحضارة العربية)

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل الأول: العرب والعالم

والذي نشر في جزأين في القاهرة عامي 1934 و1936م. وقد يتوقع المرء من كتاب يحمل هذا العنوان أن يفرق بدقة ما بين العرب والمسلمين، ما بين أكبر وأصغر الدائرتين، ما بين الجزء والكل. وعلى أية حال، لم يكن هذا هو الغرض من الكتاب. فأثناء سعيه للتمييز ما بين «العربي» و«البدوي» ارتكب كرد علي جرم الخلط في استعمال كلمتي «العربي» و«المسلم» على امتداد صفحات الكتاب. إن ما سبق يعد خصيصة مهمة من خصائص الإدراك العرقي لدى الدارسين العرب للتاريخ العربي. فالإسلام، الذي هو في الأصل ديانة العرب، بقي مشخصا بواسطة الوجود العربي إلى حد جعل من المستحيل عمليا بالنسبة لهم أن يميزوا بين الاثنين على الرغم من حقيقة أنهم يعرفون بالطبع أن الإسلام أجرى تطويرات مهمة على العنصر العربي.

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

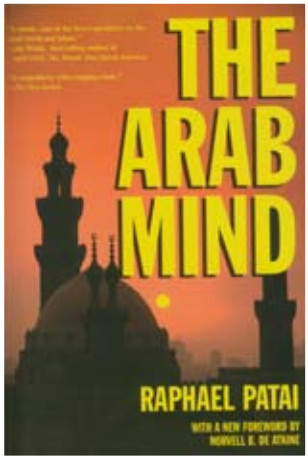

3 العقل العربي

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

الفصل الثاني: المظهر الجماعي للعقل

1. حول مصطلح «العقل»

بما أننا تناولنا بالبحث في الفصل السابق مصطلح «العربي» فيجب أن نوضح ما نقصده بالكلمة الثانية من عنوان هذا الكتاب: «العقل.» وفي الواقع، قد يتساءل البعض بشكل عام، عما هو المقصود بـ «عقل» أية مجموعة سكانية بشرية، كالأمة مثلا؟ هل من المشروع بشكل عام الحديث عن «عقل» مجموعة بشرية؟ أليس «العقل» هو أكثر الأجزاء مساسا بشخصية الإنسان، ويحدد فرادته من عدمها؟

للبدء في مناقشة هذا الموضوع يجب الاعتراف بأن أية مقولة حول عقل جماعة ما هو نوع من المفاهيم المجردة. فمن المؤكد أنه توجد عقول فردية فقط (نفس، شخصية، ذات)، لكن وبنفس الطريقة، توجد أجسام فردية فقط، ومع ذلك فإننا معتادون على التكلم عن «الجسم البشري» وأن نتلقى أنباء عن اكتشافات جديدة تتعلق بخصائص غير معروفة سابقا عن «الجسم البشري.»

إن المفهوم المجرد الذي نجازف بالخوض فيه -سواء أكان حول العقل أم الجسم البشري- يمكن الوصول إليه عن طريق عمليات تعميمية. عندما نقول بأن الدليل الرأسي (وهو عرض الرأس مقسوما على طوله ومضروبا بـ 100) للبدو العرب يتفاوت ما بين (72-75)، فإننا نلجأ إلى اختزال لفظي، والتوضيح الكامل الذي يمرر هذا القول هو أنه: على أساس القياسات المأخوذة لعرض وطول رؤوس ألف شخص من البدو العرب مثلا، يبدو أنه من الممكن للمرء أن يصدر تعميما يؤكد بأن الدليل الرأسي للبدو العرب يتفاوت عموما ما بين (72-75). وعلى أساس هذا التعميم يمكن للمرء في المقابل أن يقول بأن «البدو

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل الثاني: المظهر الجماعي للعقل

العرب» (والذي هو في الأصل مفهوم مجرد) يتصفون برؤوس مستطيلة. وبالمثل: عندما يجازف المرء بإعطاء رأي حول صفة عقلية محددة لأي جماعة بشرية فإنه يقوم بأمرين معا: التعميم والتجريد.

عندما نقرأ كتابات مختصي علم النفس الاجتماعي وعلم الانثربولوجيا من ذوي التوجهات النفسية، فإننا نادرا ما نواجه تعابير مثل: «العقل الجمعي»، و«عقل الأمة»، و«العقل العرقي» وما أشبه. فهم يفضلون استخدام مصطلحات بديلة أخرى كـ «الذات» أو «الشخصية». وفي دراساتهم يناقشون العناصر المشتركة التي تتبدى في ذوات (أو شخصيات) الأفراد الذين يشكلون جزءا من الوسط الاجتماعي المدروس.

إن إحدى المحاولات المبكرة لبحث مشكلة الفرد وخلفيته الاجتماعية والثقافية قام بها مختص علم الانثروبولوجيا رالف لينتون Ralph Linton ومختص علم النفس ابرام كاردينر Abram Kardiner. ويستند مفهوم «الأنماط الرئيسية للشخصية» الذي طوّراه إلى المسلّمات الأساسية التالية:

1. الخبرات المبكرة للفرد تمارس أثرا مستمرا على شخصيته، وبالخصوص على أنظمة تكوين الشخصية لديه.
2. تلك الخبرات تميل حين تشابهها إلى إنتاج بنى شخصية متشابهة عند الأفراد الذين يتعرضون لها.
3. التقنيات التي يوظفها أعضاء مجتمع ما في رعاية وتنشئة أطفالهم تحمل طابع الثقافة السائدة وتميل لأن تكون متشابهة -إن لم تكن متطابقة- ضمن عدد كبير من الأسر في المجتمع.
4. التقنيات التي تحمل طابع الثقافة السائدة والتي تستخدم في رعاية وتنشئة الأطفال تختلف من مجتمع لآخر.

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الفصل الثاني: المظهر الجماعي للعقل

إذا كانت هذه المسلمات صحيحة، وهي تبدو بأنها مدعومة بالكثير من الشواهد، فإن ذلك يستدعي:

1. أن أفراد أي مجتمع موضع للدراسة سيكون لهم الكثير من مكونات الخبرة المبكرة المشتركة.
2. أنه نتيجة لذلك فسوف تكون لهم الكثير من مكونات الشخصية المشتركة.
3. أنه نظرا لاختلاف الخبرة المبكرة للأفراد من مجتمع لآخر فإن القوانين الناظمة للشخصية تختلف كذلك أيضا.

إن نمط «الشخصية الأساسية» الخاص بأي مجتمع هو بنية الشخصية التي تتشاركها الكتلة البشرية المكونة من أعضاء المجتمع كنتيجة للخبرات المبكرة المشتركة. ولا يتطابق ذلك مع الشخصية الإجمالية للفرد بل مع أنظمة تكوين الشخصية لديه والتي تعتبر عنصرا أساسيا في تكوين بنية شخصية الفرد. وهكذا فإن نمط الشخصية الأساسية قد ينعكس على شكل الكثير من الأنماط المختلفة للشخصية.

على الرغم من الاحتياط الذي روعي في صياغة العبارة السابقة فإنه بعد مرور عدة سنوات على نشرها، وجد فريق آخر من العاملين في مجال الانثروبولوجيا وعلم النفس، وهم كلايد كلوكون Clyde Kluckhohn وهنري موراي Henry Murray، أنه من الضروري التنبيه الى ان «قابلية الجماعة لأن يكون لها شخصية مشتركة هي كقابليتها لأن يكون لها أرجل مشتركة.» إن ما يمكن أن يكون مشتركا لجماعة ما هو خاصة مميزة، أو مجموعة من الخصائص المميزة، يشير إليها مختصو علم الانثروبولوجيا وعلم النفس عندما يتكلمون عن الشخصية القومية أو الشخصية النموذجية. وبالمناسبة، فإن مصطلح «نموذجي» نفسه المستعار كما هو من علم الإحصاء (حيث يشير إلى قيمة أو رقم يحدث بتواتر شديد في سلسلة معطاة من الأحداث)، يرينا بأن الشخصية الموصوفة بذلك هي فقط

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©

الفصل الثاني: المظهر الجماعي للعقل

الشخصية الأهم من الناحية الإحصائية في الجماعة المدروسة. وليس بالضرورة من الأغلبية.

إن المبدأ الأساسي للدراسات المتعلقة بالشخصية النموذجية أو الشخصية القومية يتمثل في ملاحظة أن البشر الذين يترعرعون في بيئة مشتركة يبدو عليهم عامل مشترك قوي في شخصياتهم وذلك بعيدا عن ذكر اختلافاتهم الفردية. ولا يمكن تحاشي كون هذا الأمر هو القضية الرئيسية؛ فأية بيئة اجتماعية ثقافية تطبع الأفراد الذين يعيشون ضمنها بطابعها الخاص من حيث: القيم، وأنماط السلوك، وما تتقبله وتوافق عليه من الأنماط المختلفة لآلية الفعل ورد الفعل، بالإضافة إلى رغباتها وأهدافها الموجهة ثقافيا. فخلال مرحلة الطفولة، يقوم هذا العضو الشاب في المجتمع بإدخال التعاليم الأخلاقية ضمن صفاته الذاتية، حيث تزرع فيه بواسطة الأبوين والمربين والمعلمين ورجال الدين وباقي الأشخاص الذين يمتلكون سلطة ما. وفي مرحلة مبكرة تقوم القنوات التي تجري عبرها عملية الزرع السابقة باستثمار إغراء ثواب «الخير» -أي السلوك الملتزم- وعقاب أو التهديد بعقاب «الشر» -أي السلوك العاصي. وبعد عدة سنوات يصبح نظام الثواب والعقاب متضمنا في الصفات الذاتية بما يكفي لإنتاج ما يدعوه فرويد بـ «الأنا العليا»، والتي تستلم زمام القيادة لإكمال ما بدأته العوامل الخارجية. وبهذه الطريقة يصبح الفرد الذي أجريت له عملية ثقافية واجتماعية ناجحة ممثلا حقيقيا عن بيئته الثقافية والاجتماعية وعضوا في تلك المجموعة المهيمنة عدديا والتي تقوم بتشكيل الشخصية النموذجية. وعليه فإنني سأجازف بتعريف الشخصية القومية بأنها الناتج الإجمالي للحوافز والسجايا والمعتقدات والقيم التي تتشاركها الأغلبية في أية مجموعة بشرية قومية. وبما أن شخصية الأغلبية في أية مجموعة بشرية يمكن أن تشير إلى الشخصية النموذجية، فإنه يبدو بأن الشخصية القومية يمكن أن تكون مساوية للشخصية النموذجية.

وفي الوقت نفسه، يمكن للمرء أن يتفق مع من يصر على التمييز بين الشخصية القومية والشخصية النموذجية، ويفترض بأن المصطلح الأول يجب أن يستعمل لتوصيف مفهوم

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

الفصل الثاني: المظهر الجماعي للعقل

أكثر عمومية، بينما يجب استخدام الثاني لتوصيف مجموعة محددة بشكل أضيق. في أية مجموعة سكانية، وخاصة في المجتمعات الصناعية الضخمة المعاصرة وما فيها من تنوع كبير في القطاعات الأساسية، قد نحصل على العديد من بنى الشخصية النموذجية. وهذا يعني بأن الشخصية القومية تتكون من الناتج الإجمالي لبنى الشخصية النموذجية التي تتواجد في مجموعة سكانية قومية.

بعد ذلك تصل القضية إلى التساؤل حول التجانس الثقافي، ففي مجموعة سكانية تتكون من العديد من المجموعات الثقافية المميزة (أو المجموعات العرقية)، تكون كل مجموعة من هذه المجموعات قابلة لتكون هدف دراسة من أجل كشف شخصيتها النموذجية. وعلى سبيل المثال من البيئة العربية: يمكن للمرء أن يجد شخصيتين نموذجيتين مختلفتين في الشمال العربي والجنوب الزنجي في السودان. وفي الحقيقة، فإن الاختلاف بين الشخصيتين النموذجيتين واضح جدا بحيث يصعب على الباحث أن يحاول تصنيفهما تحت العنوان العام للشخصية القومية السودانية.

ومن الجانب الآخر، إذا كانت المجموعة السكانية القومية المدروسة متجانسة تماما مع أخذ التركيب العرقي بعين الاعتبار، فسوف نجد أن أنماط الشخصية النموذجية لأي اثنتين أو أكثر من المجموعات الاختبارية سوف تكون متشابهة بما يكفي لضمان استكمال إجراءات الحكم الاستقرائي الناجح منها بحق شخصية المجموعة السكانية القومية بنطاقها الأشمل. وكتقدير اختباري مبدئي لهذا الاعتبار يمكن القول بأن العرب المسلمين، والذين يشكلون الأغلبية العظمى من سكان العالم العربي، إنما هم أقرب حتما إلى هذا النمط المتجانس من البنية الثقافية والذاتية منهم إلى التشكيلة المتباينة المشار إليها في المقطع السابق.

إن قيمة مفهوم الشخصية القومية -مع تعيين حدوده ومؤهلاته- كأداة في أي بحث علمي، وكمحاولة لرسم صورة لمجموعة ثقافية اجتماعية كبيرة، تعززها حقيقة كون

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل الثاني: المظهر الجماعي للعقل

فكرة الشخصية القومية موجودة -ولو بصورة مبهمة- في وعي المجموعات القومية نفسها. ومع انتشار الدعوات القومية في كافة أنحاء العالم، فإن الناس في كل مكان اكتسبوا عادة التفكير بأنفسهم على أنهم أعضاء في أمة ما وأنهم يتشاركون صفات قومية محددة. وحتى الأقليات -في عصرنا الحاضر- أظهرت بوضوح ميلا متناميا نحو الظهور بمظهر المجموعات القومية، وهذا يشكل أمة منفصلة داخل الكيان السياسي الأشمل الذي يعيشون فيه.

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

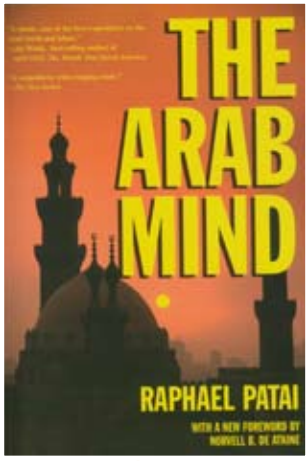

4 العقل العربي

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

الفصل الثاني: المظهر الجماعي للعقل

2. محاولات عربية لفهم «العقل العربي» و«الشخصية العربية» (2/1)

بالنسبة للعرب، فإن أفضل المفكرين بالإضافة إلى بعض الناس البسطاء كانوا وما زالوا مراقبين أذكياء لشخصيتهم القومية الإجمالية. وعند قراءة مقدمة ابن خلدون (1332-1406) -والذي كان دون شك أعظم المؤرخين العباقرة في زمانه وأعظم مؤرخ عربي على الإطلاق- يصاب المرء بالذهول مرة تلو أخرى بملاحظاته حول الشخصية العربية، والتي تضاف إلى مكونات الصورة الحقيقية للشخصية القومية العربية كما ترى من وجهة نظر مؤرخ استطاع أن يلم بسبعة قرون من التاريخ العربي. وتكفي بعض الاقتباسات المختصرة لتعكس الرؤية الخلدونية لبعض مميزات الشخصية العربية القومية. لكن يجب أولا أن ننتبه إلى أن ابن خلدون عندما استعمل مصطلح «العرب» فإنه كان يشير بشكل رئيسي إلى العرب البدو المترحلين، وأنه لم يكن متحررا بشكل كامل من الميل العام للمثقفين نحو تخطئة سكان الأرياف دون الكلام عن تمجيدهم.

تحت عنوان «في أن العرب لا يتغلبون إلا على البسائط» يشرح ابن خلدون:

> «وذلك أنهم بطبيعة التوحش الذي فيهم أهل انتهاب وعيث، ينتهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر، ويفرون إلى منتجعهم بالقفر، ولا يذهبون إلى المزاحفة والمحاربة إلا إذا دفعوا بذلك عن أنفسهم. فكل معقل أو مستصعب عليهم فهم تاركوه إلى ما يسهل عنه، ولا يعرضون له. والقبائل الممتنعة عليهم بأوعار الجبال بمنجاة من عيثهم وفسادهم، لأنهم لا يتسنمون إليهم الهضاب، ولا يركبون الصعاب ولا يحاولون الخطر. وأما البسائط متى اقتدروا عليها

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

الفصل الثاني: المظهر الجماعي للعقل

بفقدان الحامية وضعف الدولة فهي نهب لهم وطعمة لأكلهم، يرددون عليها الغارة والنهب والزحف لسهولتها عليهم، إلى أن يصبح أهلها مغلبين لهم، ثم يتعاورونهم باختلاف الأيدي وانحراف السياسة، إلى أن ينقرض عمرانهم.»

وفي الفصل التالي المعنون بـ «في أن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب.» يشرح ابن خلدون:

«والسبب في ذلك أنهم أمة وحشية باستحكام عوائد التوحش وأسبابه فيهم فصار لهم خلقا وجبلة وكان عندهم ملذوذا لما فيه من الخروج عن ربقة الحكم وعدم الانقياد للسياسة وهذه الطبيعة منافية للعمران ومناقضة له فغاية الاحوال العادية كلها عندهم الرحلة والتغلب وذلك مناقض للسكون الذي به العمران.»

وربما يكون مما يلاحظ عند ابن خلدون نباهته بالتوصل إلى سيكولوجية المهزوم التي أسسها من ملاحظته للشعوب التي تغلب عليها العرب والتي بدت على العرب بشكل مماثل أثناء فترة خضوعهم للاستعمار الغربي. وقد وضع للفصل الذي يتناول فيه هذا الموضوع عنوانا هو: «في أن المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه وسائر أحواله وعوائده» ثم يضيف ابن خلدون عدة خصائص إضافية إلى الصورة التي يرسمها للشخصية القومية العرقية فالعرب كما يرى:

«لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة، والسبب في ذلك أنهم لخلق التوحش الذي فيهم أصعب الأمم انقيادا بعضهم لبعض للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة في الرئاسة.»

وبينما تشير ملاحظات ابن خلدون بشكل رئيسي إلى البدو العرب، فإن تلميذه تقي الدين أحمد المقريزي (1364-1442)، أبرز مؤرخي العصر المملوكي، وهو المصري بالأساس، يناقش ببعض التفصيل شخصية مواطنيه. فالشخصية المصرية كما يراها:

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل الثاني: المظهر الجماعي للعقل

«يغلب عليها الاستحالة والتنقل من شيء إلى شيء والدعة والجبن والقنوط والشح وقلة الصبر والرغبة في العلم وسرعة الخوف والحسد والنميمة والكذب والسعي إلى السلطان وذم الناس. وبالجملة فيغلب عليهم الشرور الدنية التي تكون من دناءة الأنفس. وليست هذه الشرور عامة فيهم, ولكنها موجودة في أكثرهم.»

وبعد عدة صفحات يرجع المقريزي إلى موضوعه ويضيف عدة صفات أخرى للصورة البائسة التي يرسمها للشخصية المصرية:

«وأما أخلاقهم فالغالب عليها اتباع الشهوات والانهماك في اللذات, والاشتغال بالترهات والتصديق بالمحالات وضعف المرائر والعزمات. ولهم خبرة بالكيد والمكر, وفيهم بالفطرة قوة عليه وتلطف فيه وهداية إليه, لما في أخلاقهم من الملق والبشاشة التي أربوا فيها على من تقدم وتأخر..»

وفي فقرة ثالثة يعيد المقريزي بعض النقاط التي وضعها سابقا ويضيف بأن المصريين يتصفون «بغياب البصيرة», ويسجل:

«قال لي شيخنا الأستاذ عبدالرحمان بن خلدون رحمه الله تعالى: أهل مصر كأنما فرغوا من الحساب..»

بالإضافة إلى هذا يورد قائمة طويلة من الصفات السلبية, وفي مقابلها يجد صفتين إيجابيتين فقط في الشخصية المصرية وهما: أنهم ليسوا غيورين على زوجاتهم, وأن الذين يعيشون في البلدات الساحلية يتصفون بطبيعة هادئة, وهو أمر يعزوه المقريزي إلى تأثير رطوبة الجو.

إن التعميمات التي وضعها علماء عرب في العصور الوسطى حول شخصية شعب, كما هو الحال في طروحات ابن خلدون والمقريزي, تقوم على أساس الملاحظة الشخصية

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

الفصل الثاني: المظهر الجماعي للعقل

و/أو مقولات أطلقتها جهات معتبرة. وفي كل الحالات، كانت طروحاتهم عبارة عن محاولات لوصف شخصية جماعة ما من خلال تعداد مميزاتها الملاحظة واحدة تلو الأخرى. وفي مقابل ذلك تقوم الحكمة العربية التقليدية بشكل عام، كما يعبر عنها عدد لا يحصى من الأمثال والأقوال، بانتقاء ميزة واحدة بعينها وتعتبر صفة مميزة للعرب على الإطلاق، أو لفرع محدد من الشعب العربي، وتمثلهم بتعبير حازم. ويمكن طرح بعض الأمثلة عن هذا التشخيص التقليدي لتكفي كتوضيح لما أوردناه.

من أكثر الأمثال شيوعا على الألسنة، والتي تستعمل حاليا في العديد من الدول العربية، مثل يقول: «أنا وأخي على ابن عمي، وأنا وابن عمي على الغريب»، أو «على العالم»، وهذا تعليق صارخ على الصفات العربية لتماسك العائلة والولاءات المتسلسلة. وثمة مثل معاصر في سوريا ولبنان يعلق على الفخر العربي، يقول المثل: «حتى لو كان علي أن أرى دودة الجوع تخرج من فمي، فلن أحط من قدر نفسي» (أي عن طريق طلب المساعدة). وثمة مثل آخر يعكس كره العربي للسلطات: «لا شيء يذل المرء كأن يكون عرضة لسلطة شخص آخر.» إن أهمية احترام الذات وحفظ ماء الوجه بالإضافة إلى الاستقلالية، هي أمور تتأكد مرة تلو الأخرى من خلال الأمثال العربية: «مر أمام عدوك وأنت جوعان، ولا تمر أمامه وأنت عريان»، «أعمل يوم الأحد وفي العطلات وكن بغنى عن الحاجة إلى أخيك الغني»، «مت عزيزا خير لك من أن تعيش ذليلا»، «اكتفي بقطعة من الكرفس، ولا تذلي نفسك يا روحي»، «احلق بفأس ولا منية الناس» وثمة الآلاف من الأمثال في العالم العربي المعاصر والتي تعلق إما على الشخصية العربية كما هي على أرض الواقع، أو تدعو للتمسك -على شكل نصيحة- بالصفات الشخصية التي يتوجب على العربي المثالي أن يجهد ليمتلكها. إن أي دراسة لهذه الأمثال ستعطينا مشهدا تقليديا مذهلا للشخصية العربية وستعرض لنا النظام القيمي العربي كما يتم تطبيقه على المستوى الشخصي.

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

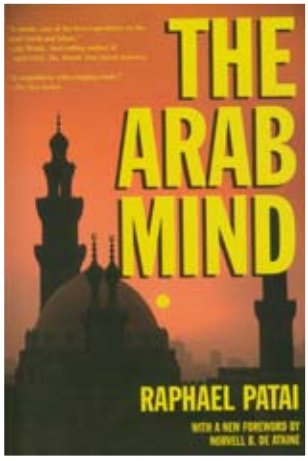

5 العقل العربي

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

الفصل الثاني: المظهر الجماعي للعقل

2. محاولات عربية لفهم «العقل العربي» و«الشخصية العربية» (2/2)

إن وجود ذلك الشيء الذي يمكن أن يسمى «عقل»، كيان قومي اكتشف على يد مثقف عربي واحد على الأقل وبالتزامن مع انتشار استعمال هذا المفهوم في الغرب أو ربما قبل ذلك. فطه حسين (1889-1973م) -والذي يعتبر عميد الأدب العربي عند البعض- استعمل هذا المفهوم في كتابه المعنون «مستقبل الثقافة في مصر» والمطبوع في القاهرة عام 1938. وفي هذا الكتاب تساءل طه حسين حول «العقل» المصري: هل هو شرقي أم غربي من حيث تشكيل المفهوم والإدراك والفهم والمحاكمة العقلية؟ وكان جوابه على السؤال بأنه غربي انطلاقا من أن العقل المصري كان يشكل في السابق جزءا من العقل المتوسطي، ومن هنا فهو يعود إلى العقل الأوربي. وباختلاف تمظهرات مصر خلال تاريخها وحتى عصرها الحديث، اتخذت مصر من أوربا نموذجا لها في كل مناحي الحياة المادية والروحية أيضا لتطبع كل هذه المناحي بطابع أوربي خالص. وكل الدلائل تشير إلى تطور مصر باتجاه اندماج كامل مع أوربا.

وثمة مصطلح آخر يكثر طه حسين من استخدامه، وهو يقترب بشدة من المفهوم الانكليزي للشخصية القومية. فلقد تحدث حول «الشخصية» المصرية، وأكد بأنها بقيت سليمة على الرغم من الهيمنة التي مارستها عليها العديد من الأمم القوية. لقد تشكلت شخصية مصر الخاصة بها من طبيعتها الجغرافية الثابتة بالإضافة إلى عوامل أخرى بقيت ثابتة أيضا. وبهذه الاعتبارات، لن يكون على مصر أن تخشى بأن يهدد التغريب شخصيتها أو هويتها وفرادتها القومية.

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

الفصل الثاني: المظهر الجماعي للعقل

على المرء أن يتوقع مصادفة شعب شديد الحساسية لصفات الشخصية القومية كي لا يكون غريبا عليه ما يراه من الفروقات بين العناصر السكانية المختلفة في نفس البلد الواحد. وهنا يكمن جوهر القضية في الحقيقة. فمن المشتهر ما يحمله البدوي من انطباع نحو الفلاح العربي، والذي يعتبر من وجهة نظر البدوي (عبد الأرض). كما يمتلك الحضري انطباعه العام حول الفلاح، فهو بنظره: أحمق، تابع، ووحش يمكن استئناسه لتحمل الأعباء. وهو كسول، جبان، ذليل، أبله، وشرير؛ أو باعتبارات تنطلق من نية «حسنة»: هادئ وديع قنوع بما لديه، سعيد، شكور، وعامل مجد ومخلص. ومن الجهة الأخرى، فإن الفلاح يعلم بأن الصبر أحد السمات الذاتية التي تجعل حياته قابلة لأن تطاق، لذلك فهو يشيد بهذه السمة من خلال العديد من الأمثال: «الصبر يهد الجبال»، «لا خسارة مع الصبر»، «الصبر طيب»، «الصابر ينال الحرية»، «الله مع الصابر» أما وجهة نظر الفلاح تجاه البدوي والحضري فنادرا ما يعبر عنها لأنه يخاف منهما وتعتمد حياته على الثاني منهما (الإقطاعي). ورغم ذلك توجد أمثال لدى الفلاحين تسخر من البدوي. «كل شيء عند البدو صابون.»

وليست ملاحظة الاختلافات في الشخصية القومية بين بلد عربي وآخر بتطور جديد في العالم العربي. ففي الحقيقة، لاحظ المراقبون العرب الفطنون هذه الاختلافات قبل قرون من صياغة مفهوم النفسية القومية في الغرب. وثمة مثال تقليدي يعزوه المقريزي إلى كعب الأحبار أحد صحابة النبي وهو عبارة عن ملاحظة صيغت بشكل قصصي لكن فحواها واضحة جدا، إذ ينقل عن كعب الأحبار أنه قال:

> «إن الله تعالى لما خلق الأشياء جعل كل شيء لشيء. فقال العقل: أنا لاحق بالشام. فقالت الفتنة: وأنا معك. وقال الخصب: أنا لاحق بمصر. فقال الذل: وأنا معك. وقال الشقاء: أنا لاحق بالبادية. فقالت الصحة: وأنا معك..»

ثم يمضي المقريزي على هذا المنوال فيقول:

> «لمّا خلق الله الخلق خلق معهم عشرة أخلاق: الإيمان والحياء والنجدة والفتنة

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

الفصل الثاني: المظهر الجماعي للعقل

والكبر والنفاق والغنى والفقر والذل والشقاء. فقال الإيمان أنا لاحق باليمن. فقال الحياء: وأنا معك. وقالت النجدة: وأنا لاحقة بالشام. فقالت الفتنة: وأنا معك. وقال الكبر: أنا لاحق بالعراق. فقال النفاق: وأنا معك. وقال الغنى: أنا لاحق بمصر. فقال الذل: وأنا معك. وقال الفقر: أنا لاحق بالبادية. فقال الشقاء: وأنا معك.»

وكما يظهر من تلك الاقتباسات التي أوردها المقريزي، فإن المثقفين العرب في القرنين الرابع عشر والخامس عشر كانوا على دراية جيدة، ليس بوجود شخصية قومية عربية فحسب، وإنما بوجود اختلافات ذاتية بين الشعوب العربية التي تسكن بلدانا متعددة. وليومنا هذا، فإن هذا العامل الأخير يسبب إحدى المشكلات الرئيسية لأي شخص يحاول أن يرسم صورة للعقل العربي. إذ يبدو أنه لا وجود لشيء كهذا على المستوى المجرد. فدائما كان هنالك -على الأقل منذ أيام المقريزي- عربي عراقي، وعربي شامي، وهكذا. وهذه الاختلافات الذاتية. قادت بدورها إلى خلق اتجاهات محلية في أجزاء العالم العربي، والتي كثيرا ما اصطدمت مع فكرة الوحدة العربية الشاملة المثالية.

وهكذا فإن إحدى المشكلات الرئيسية في التعامل مع العقل العربي، أو مع الشخصية القومية العربية، تكمن في أن العرب قد عاشوا -وعلى مدى آلاف السنين- على رقعة جغرافية شاسعة لا يجاريها في مساحتها أية مجموعة عرقية، وإن هذا العامل التاريخي الجغرافي ينمو باتجاه التعبير عن نفسه في موضوعين متناغمين ضمن الذهنية العربية. موضوع الوحدة العربية الشاملة، وهي مسألة طموح. وموضوع القومية العربية المحلية الخاصة، وهي مسألة واقعية شخصية، وبقدر ما يتم أخذ الشخصية العربية النموذجية بعين الاعتبار، يمكن الافتراض -كفرضية عملية- بوجود نفس التفاعل ما بين صفات الشخصية العربية الشاملة العامة والشخصية العربية المحلية الخاصة كما يحصل في المجال الثقافي.

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

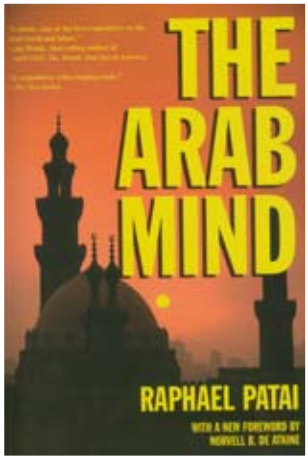

6 العقل العربي

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

الفصل الثالث: أساليب تنشئة الطفل عند العرب

1. قضية القسوة

هل يوجد ما يمكن أن نسميه نمطا عاما لأساليب تنشئة الطفل في العالم العربي؟ إن هذا السؤال يتمتع بأهمية أساسية -وكما أظهرت ذلك أبحاث مختصي علم النفس الاجتماعي ببراهين ثابتة- لأن أساليب تنشئة الطفل تحتل موقعا ضمن أهم العوامل المساهمة في تشكيل الشخصية النمطية. وكما هو الحال دائما مع الأسئلة الأساسية فإن من الصعب جدا تقديم الإجابة على هذا السؤال. وفي الواقع، ولنقص المعلومات الكافية، لا يمكن تقديم إجابة محدودة على الإطلاق. وثمة عدد من الاعتبارات على الأقل تسمح بالتوصل إلى استنتاج أولي.

قبل كل شيء، يجد المرء أن ثقافتين منفصلتين عن بعضهما بشكل واسع كما هو الحال في المغرب والعراق تبدوان متشابهتين تماما عند المقارنة مع الثقافة اليونانية أو الإيطالية أو الزنجية الصحراوية. وهذا التشابه الثقافي الأساسي، والذي ينضوي تحت سطح مظاهر الاختلافات المحلية، كثيرا ما يكون أمرا ملازما في التشابه الأساسي في أساليب تنشئة الطفل في كافة أرجاء العالم العربي.

ثانيا: في عدد كبير جدا من الدراسات المتعلقة بأجزاء مختلفة من العالم العربي يجد المرء بعض المشاهدات على الأقل عن أساليب تربية الطفل والتي تشير إلى نفس نوع التشابه الأساسي. وإحدى هذه المشاهدات التي تحدث عنها الكثير من المؤلفين هي العقوبة البدنية. فكل من عاش حياة الأسرة العربية عن قرب يتفق على أن تأثير قسوة العقوبة البدنية المطبقة على الطفل العربي أكبر بكثير مما هو الحال في العالم

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

الغربي.

وخلاصة هذا الدليل تجعل من المنطقي الاستنتاج بأنه: مهما يكن المدى الذي يبلغه اعتبار هذه الخصوصية لأساليب تنشئة الطفل، فإن ثمة عنصرا مشتركا حقيقيا للطريقة العربية العامة في تنشئة الطفل.

ثالثا: توجد بعض الدراسات -وهي قليلة العدد، للدقة- تتعلق بأساليب تنشئة الطفل في مجتمعات عربية معينة تقطن مواقع متباعدة عن بعضها بشدة مثل لبنان، فلسطين، مصر العليا، والجزائر، مما يعيدنا مرة أخرى إلى الاستنتاج بوجود نمط عربي عام لتنشئة الطفل تكون فيه الحالات المدروسة مجرد مظاهر محلية.

وإذا ما وضعنا الاختلافات المحلية والفردية جانبا، فإن الوضع العام للأسرة العربية يتمثل في أن الأب يمثل الطرف الشديد الصارم المتعصب، بينما على العكس، تمثل الأم الجانب المحب العطوف. إن هذا الاختلاف ما بين موقفي الوالدين يشار إليه دائما في الأدب العربي، وبما في ذلك الأمثال والدراسات التي تتناول المجتمعات العربية، إلى حد لا يستطيع المرء معه أن يشك في انتشاره الواسع. وبسبب من هذا الاختلاف في تعامل كل من الوالدين مع الطفل، فإن الطفل يحترم -وحتى أنه يخاف- والده، وفي نفس الوقت يبني صلة عاطفية مع أمه. وفي حياة الأبناء والبنات على حد سواء، نجد أن حب الأم يحتل موقعا مهما، حتى أنه يستمر ما بعد الزواج.

إذا كان الوالدان يتعاملان مع أطفالهم بهاتين الطريقتين المختلفتين فمن المتوقع أن لا توافق الأم الحنون على المعايير التأديبية لزوجها. وفي الحقيقة، تشير تقارير من أماكن متعددة من العالم العربي بشكل صريح إلى محاولات الأمهات، سواء أكان ذلك من خلال مواجهة صريحة أم تدخل خفي، أن يمنعن الإفراط في الشدة من جهة الأب. ورغم ذلك وجدت دراسة حول الأمهات اللبنانيات أنهن كن أقرب إلى الموافقة على الإجراءات التأديبية للأب الشديد من الأب غير الشديد. وهنا ينبع السؤال: هل صدرت هذه الموافقة عن ثقافة

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل الثالث: أساليب تنشئة الطفل عند العرب

تجعل المرأة تقول ذلك؟ إنهن في النهاية يعلمن أن الأب النمطي يجب أن يكون مؤدبا قاسيا. ولهذا فهن يوافقن إن مضى أزواجهن على هذا النمط. كما يمكن الافتراض بأن الأب الشديد مع أطفاله يكون شديدا مع زوجته. وعليه يقل احتمال تجرؤ زوجات الرجال الأشداء على التعبير بصراحة عن عدم موافقتهن على أساليب تنشئة أطفالهن. وذلك إذا قمنا بمقارنة هذه الحالة بحالة يكون فيها الأزواج أقل شدة.

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

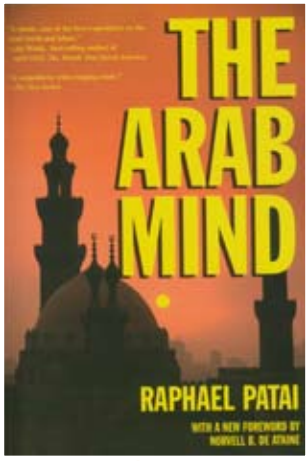

7 العقل العربي

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

الفصل الثالث: أساليب تنشئة الطفل عند العرب

2. التفاوت في تقييم الأبناء والبنات

تطرقت الحكم التقليدية العربية بكثرة إلى موضوع مرونة شخصية الطفل وما يستوجبه ذلك من الرغبة في تعريضها مبكرا إلى الظروف التي تشكلها. وثمة مثل شائع بين الفلاحين الفلسطينيين كما هو شائع في أجزاء أخرى من العالم العربي يقول: «الشخصية التي تتأثر بحليب الأم لا يغيرها إلا الموت». وثمة مثل آخر يقول محذرا: «قلب الطفل كالجوهرة الثمينة بلا نقش: فهي مهيأة لتقبل كل ما ينقش عليها». إضافة إلى عدد كبير من الأقوال التي تصر إما على سهولة عملية تشكيل شخصية الطفل أو على رسوخ تأثيرات مرحلة الطفولة.

إن ما تنصح به الأمثال وتفرضه، يقوم العرف التقليدي بترجمته إلى ممارسة عملية. وبما أن العرب مقتنعون بأن مرحلة الطفولة المبكرة تؤثر بشكل رئيسي على تشكيل الشخصية، وبما أن تابعية الأنا تعود إلى سلطة الأب (و/أو الرأس الفعلي للأسرة) هي من أسس الصرح الاجتماعي العربي، فإن الأطفال يتم تمرينهم، وبشدة إن استدعت الضرورة، على جعلهم يتقبلون ويخضعون للنظام الأبوي. وكنتيجة لأساليب تنشئة الطفل عند العرب، فإن الطفل يتعلم كيف يخضع مصالحه الخاصة لمصالح الأسرة التي يمثلها الأب أو الجد.

وفي مناقشة هذه الأساليب يجب علينا منذ البداية أن نميز بين معاملة الأولاد ومعاملة البنات. حيث لا يوجد في اللغة العربية لفظ يعادل الكلمة الانكليزية (child) فكل كلمة في اللغة العربية إما أن تكون مذكرة أو مؤنثة. ومن هنا توجد كلمات تعادل

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل الثالث: أساليب تنشئة الطفل عند العرب

(boy) ولد، (son) ابن، (girl) فتاة، (daughter) ابنة. ولكن لا يوجد معادل لكلمات أخرى مثل: (child, baby, infant, toddler)، وما إلى ذلك من الكلمات التي تشير في اللغة الانكليزية إلى مراحل مبكرة من مراحل النمو الإنساني دون تحديد الجنس. وعند سؤال أي شخص عن أطفاله -في إحصاء سكاني مثلا-: «كم طفلا لديك؟»، يستعمل المحصي كلمة (ولد = طفل ذكر)، وبالتالي سيكون الجواب محددا لعدد الأطفال الذكور، ثم سيكون على المحصي الخبير أن يسأل مرة أخرى: «كم (بنتا) لديك؟» وبهذه الطريقة فقط يمكن الحصول على العدد الإجمالي لذرية الشخص المستفسر عنه.

وبما أنه ليس في اللغة العربية معادل لكلمة (أطفال)، وإنما كلمتا (أبناء) و(بنات) فقط، فإنه ليس ثمة (أطفال) في الوعي العربي أيضا. وتبعا لذلك، ليس ثمة ما يمكن أن يدعى أساليب لتنشئة (الطفل) في العالم العربي، بل هناك أساليب لتنشئة (الابن) من جهة، وأساليب لتنشئة (البنت) من جهة أخرى.

يبدأ التمييز بين الجنسين قبل ولادة الطفل، وحتى قبل الحمل. حيث تستحوذ على كل الآباء رغبة الحصول على طفل ذكر، وتتركز أماني المهنئين في حفل الزواج على أن يحصل الزوجان على أطفال ذكور، وما أن تحمل الزوجة، تبدأ بالأمل والصلاة من أجل أن ترزق بطفل ذكر. وإذا ما جرت الأمور وفق المشتهى وجاء الطفل الذكر، تتلقاه موجة عارمة من الفرح، أما إذا كان المولود أنثى فسيلحق العار بالأم وتعلو التعاسة وجه الأب. وكانت التقاليد العربية القديمة تخير الأب بين أن يترك طفلته حية أو أن يدفنها تحت التراب (الوأد) وهي ممارسة شجبها النبي محمد وذكرت في القرآن الكريم (16: 58-59).

وعلى الرغم من هذا التحذير الصادر من مقام ديني عالٍ، فإن تقليد قتل الأطفال الإناث استمر لعدة عصور وفي أماكن مختلفة غلبت عليها نزعة التطرف في المحافظة واستمر ذلك إلى بداية عصرنا هذا.

لقد أصبحت ظاهرة قتل الأطفال الإناث شيئا من الماضي، لكن الاعتقاد بأن المولودة

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل الثالث: أساليب تنشئة الطفل عند العرب

الأنثى تجلب العار لأبويها استمر ضمن الأوساط المحافظة إلى وقتنا الحاضر. ويُعيَّر الأب الذي لا أبناء ذكور لديه بأنه «أبو البنات». وبمرور الأشهر والسنوات يتحول حس الانكسار بولادة البنت تدريجيا إلى هاجس الخشية من أن تجلب البنت عارا لأبيها وأسرتها إذا ما خرقت المنظومة الأخلاقية. وفي بعض الأوساط العربية المتشددة في النزعة المحافظة، حيث ما يزال النظام الأبوي مسيطرا بشكل كامل، نجد حالات معاصرة أقدم فيها الآباء على قتل بناتهم بسبب تصرف صدر منهن وجلب العار إلى عوائلهن، وبذلك يكون القتل غسلا للعار وفق القانون المحلي التقليدي (العرف).

إن الاختلاف في تقدير الأولاد عن البنات يتمظهر بأشكال أخرى من بينها ذلك التقليد واسع الانتشار الذي يقضي بإلباس الطفل الذكر ملابس الأنثى حتى يبلغ سن الخامسة. وبما أن الطفل الذكر يحظى باهتمام كبير في المجتمع العربي فإن التقاليد تصر على أن يبقى معرضا للأذى من قبل «العين الضارة» أو «العين الحاسدة» التي يظن بأنها تضر كل ما تقع عليه وإن لم تكن تنوي إلحاق الضرر بالآخرين. ومع وجود وسائل أخرى لدفع تأثير «العين الحاسدة» مثل لبس التعاويذ وترك الطفل دون تنظيف أو ترتيب فإن «الوسيلة الأنجع» للحماية تتمثل في إعطائه شكل الأنثى: فالعين الحاسدة -برأيهم- لن تلاحظ شيئا بلا أهمية كما هو حال طفلة صغيرة.

تقود هذه الظاهرة إلى التخمين بأن هذا التقييم النسبي بين الطفل والطفلة يعبر عن نفسه باختلاف في المعاملة تجاه الأولاد والبنات. فالزوجة التي قدمت حديثا إلى العائلة (وهي تعامل في البداية وكأنها خادمة غير مأجورة) لا يتحسن وضعها إلا إذا أنجبت طفلا ذكرا. والمرأة التي لم تنجب إلا إناثا تتشابه في وضعها مع من لم تنجب أصلا، ويلوح أمامها دائما شبح الطلاق وغالبا ما يتحول إلى حقيقة في كثير من الأمثلة المستمدة من كافة الشرائح الاجتماعية بما فيها شريحة النبلاء. فلا عجب إذن من أن الإحساس بالرضى العاطفي الذي يغمر نفس المرأة التي تقدم بفخر إلى زوجها وعائلته مولودا ذكرا ينعكس على موقفها تجاه طفلها. فتعامله بتساهل أكبر وترعاه بشكل أفضل وتعيره اهتماما

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل الثالث: أساليب تنشئة الطفل عند العرب

أكثر وتغمره بعاطفة تفوق ما تقدمه لو كان المولود أنثى. وتبلغ هذه المعاملة المتمايزة حدا يصل إلى إرساء مبدأ تربوي يطالب بتدليل الطفل الذكر دون الأنثى. وكما لاحظ بروثرو (E. T.Prothro) في دراسته حول تنشئة الطفل في مجموعات مختلفة عرقيا في لبنان فإن «في كل المجموعات كان الأطفال الذكور يعاملون بحميمية أكثر من الإناث.»

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

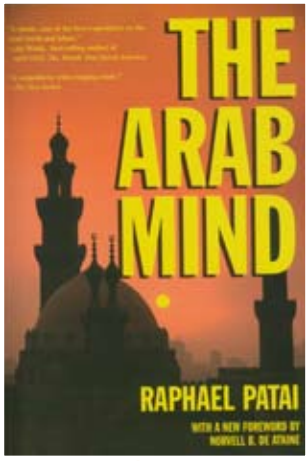

8 العقل العربي

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

الفصل الثالث: أساليب تنشئة الطفل عند العرب

3. الإرضاع

إن الاختلاف في مدة إرضاع كل من الجنسين يعد من أهم مظاهر تفاوت معاملة الأولاد والبنات في مرحلة الطفولة المبكرة، كما يعد ذا تأثير مديد لا ينكر على تشكيل الشخصية والتوقعات المشتركة لما سيؤول إليه كلا الجنسين. وإذا طرحنا تفاوت المدة بحسب المجتمع المحلي جانبا، فإن الولد يرضع ضعف مدة رضاعة البنت؛ إذ يتلقى الولد رضاعة طبيعية لسنتين أو ثلاث، بينما تنخفض هذه المدة عند البنت إلى سنة أو سنتين.

إن السبب الكامن وراء هذا التفاوت غير عصي على الإدراك. فبما أن مدة الرضاعة يتم فيها تدليل الطفل بشكل تلقائي تقريبا -عن طريق تلبية متطلباته-، وبما أن الأعراف والتقاليد تقضي بتدليل الولد لا البنت، فإن الأم تقوم -من خلال إنقاص مدة إرضاع البنت- فعليا بإنهاء مدة تدليل البنت. وثمة سبب آخر هو الاعتقاد الشائع بأن الأم التي ترضع طفلها لن تكون قادرة على الحمل إبان مدة الرضاعة، وبما أن الأم التي أنجبت بنتا تحس بخيبة الأمل، لذلك تظل ترغب بالحمل مرة أخرى بأسرع ما يمكن على أمل أن تقدم ولدا لزوجها وأهله، وبذلك تعوض الجميع -بما في ذلك نفسها- على انخفاض المنزلة الذي تسببت به ولادة البنت.

وفقا للنظام المتوارث المتبع في إشباع حاجة الرضيع تقوم الأم بحمل رضيعها عندما يبكي وتلقمه ثديها، وهي تحمله معها أينما ذهبت (على رأسها أو ظهرها أو متنها أو وركها). وتعتبر هذه المرحلة أشد المراحل حميمية، وفيها تكون الأم وطفلها أشبه بكائنين متعايشين، وتمثل استمرارا مباشرا للمرحلة التي كانا فيها أمرا واحدا قبل الولادة، ولا تختلف عن الحيوانات الجرابية إلا بنقصان مرحلة من مراحل النمو.

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

الفصل الثالث: أساليب تنشئة الطفل عند العرب

أما مرحلة الفصل الحقيقي بين الأم وطفلها فتأتي عندما يحين أوان الفطام. وعلى الرغم من أن الأم تواصل بعد ذلك إطعام طفلها أيضا، فإن العرب يكلفون البنت الكبرى بهذه المهمة. وبهذا تنتهي دائما علاقة التعايش بين الاثنين، ليختبر الطفل الشعور بالحرمان لأول مرة في حياته.

إن الحقيقة الأكيدة التي تتمثل في أن فطام البنت يحدث بوقت أبكر من فطام الولد تشير إلى تمايز حاسم في الخبرة الاجتماعية المبكرة التي يكتسبها كلا الجنسين، وهذا يترك أثرا لا يمحى في شخصيتيهما عند البلوغ. فبالنسبة للبنت تتلاشى ذكريات فترة النعيم المؤقت بتأثير صدمة الفطام وما يلي ذلك من معاملة الحياة الواقعية التي تتلقاها من أمها وباقي أفراد عائلتها مهما قربوا أو بعدوا. وفي غضون شهور قليلة تلي الفطام، تكون البنت قد استعدت لتقمص دورها الذي تلعبه في الحياة كامرأة: وهو دور التابع قليل الأهمية الذي حكم عليه بأن يأخذ موقع العبد وفقا للتقليد الذكوري الذي يسيطر على حياتها باسم الأب والإخوة والزوج والأولاد. ويتحدد مدى التبعية التي تتقمصها البنت في عامها الرابع أو الخامس من خلال حقيقة كونها تستفز والديها لتطبيق العقاب الجسدي عليها أكثر مما يفعل الولد الذي يبلغ نفس العمر.

أما بالنسبة للولد، فإن كلا من المعاملة الفعلية التي ينفرد بها والمهارات المستقبلية التي يطورها تعتبر مختلفة جذريا عن مثيلتها لدى البنت. فبينما يواصل الولد تلقيه الرضاعة، يكون لدى الأم ميل لتدليله أكثر مما لو كان بنتا. وعندما يحين وقت الفطام يكون قد تعلم المشي والركض واللعب والتحكم بقضاء الحاجة، والأهم من ذلك كله أنه يكون قد تعلم الكلام ولهذا يستطيع أن يطلب بلسانه الرضاعة متى شاء. وبما أن الأصول تقتضي قيام الأم بتدليل الولد وتلبية احتياجاته، فهذا يعني أنه يحصل -بالفعل- على الرضاعة متى شاء. وهكذا فإن التلفظ بحاجة أساسية لدى الطفل -وهي الرضاعة- يتبعها -غالبا- تلبية الحاجة. إن ذلك يتساوى في الأهمية مع الجانب النفسي للموضوع؛ فالتأكيد اللفظي على رغبة يحتوي في ذاته -وبشكل تلقائي تقريبا- ضمان تحقيق الرغبة

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©

الفصل الثالث: أساليب تنشئة الطفل عند العرب

دون الحاجة إلى أي تصرف إضافي من جانب الطفل. وتؤدي ممارسة هذا التصرف -بشكل يومي ولعدة أشهر- إلى ترك انطباع دائم في نفسية الولد. ولا يستبعد العثور على صلة ما بين هذا التصرف الطفولي وبين خاصية تتصف بها شخصية العربي البالغ والتي كانت محل الكثير من البحث والتعليق: ألا وهي النزعة إلى صياغة تأكيد لفظي يعبر عن نية ما، ثم العجز عن إتباع النية بأي عمل يؤدي إلى تحقيقها. ويبدو أنه، في سياقات وأوضاع خاصة على الأقل، يؤدي التلفظ بنية أو أمنية إلى تحقيق رضى نفسي، وهو ما يتحول في الواقع إلى عقبة في طريق تنفيذ العمل المؤكد لفظا. وسنطرح أمثلة على هذا النمط من السلوك في فصل لاحق مع أمثلة أخرى عن نقد ذاتي عربي في هذا المجال. وهنا نكتفي بالإشارة إلى وجود تشابه تام بين هذه الخاصية والثقة التي تنشأ في نفسية الأولاد العرب في ما يخص تأثير الإنجاز الحتمي للرغبات والذي ينشأ عن مطالبته اللفظية بالحليب (خاصة إذا كان الطلب بصيغة لفظية مشددة). فعند كل من الطفل والبالغ ينبغي تحقيق ما تم التعبير عنه لفظا من أمنية أو نية أو طلب دون الحاجة إلى أي جهد إضافي، إذ أن كل المطلوب هو الكلمة لا غير. ثم ما على المتكلم إلا أن يسترخي ويترك الكلمة تفعل ما عليها من أجل تحقيق ما لفظت من أجله.

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

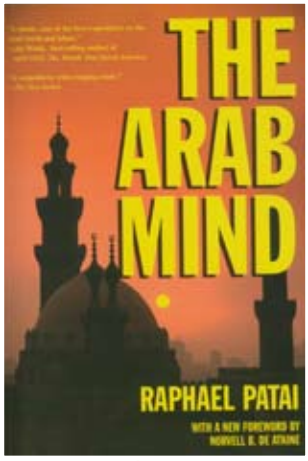

9 العقل العربي

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

الفصل الثالث: أساليب تنشئة الطفل عند العرب

4. البدايات المبكرة للعلاقة ما بين الرجل والمرأة

تطبع فترة الرضاعة الممدة عقل الولد بصورة خاصة بانطباع شامل عن العلاقة ما بين الرجل والمرأة أيضا. فلمدة تصل إلى 3 سنوات، تكون الأم رهن إشارة ابنها دون كلل أو ملل، تلقمه -متى شاء- ثديها الذي يشكل مصدر سعادته ورضاه. إن هذه الحياة التي يعيشها الولد تصبح -حتما- عاملا مساعدا في صناعة النمط العام الذي يتوقع الولد أن تتطابق معه كافة علاقاته مع النساء في المستقبل. وهنا نكاد نقترب من منشأ موقف الشخصية العربية الذكرية من المرأة: وهو أن قدر المرأة بشكل عام، وبخاصة المرأة المنضوية في نطاق العائلة، يتمثل في خدمة الرجل وطاعته.

إن هذا الأمر المتوقع يتعرض إلى ترسيخ إضافي من خلال تجربة طفولية أخرى في السنوات الأولى من العمر. فعلى النقيض من البنت التي لا يثير بكاؤها انتباها كبيرا نظرا لأنها ليست مؤهلة للتدليل، يؤدي بكاء الولد إلى حمله وإراحته، وعادة تتضمن عملية الإراحة والتهدئة تعاملا مع الأعضاء التناسلية للولد. فتقوم الأم والجدة وباقي الأقارب والضيوف من الإناث بالإضافة إلى الأقارب الأبعدين، باللعب بقضيب الولد، لا من أجل تهدئته فحسب، بل من أجل مجرد حثه على الابتسام أيضا. ومن أجل تهيئة الولد تدريجيا للختان، يشيع في أوساط الفلاحين في مصر العليا أن تقوم الأم بتمسيد العضو بشكل مرح محاولة منها في سبيل عزل القلفة عن الحشفة. وفي غضون ذلك تهمهم الأم بكلمات حول تأثير ما تقوم به في جعله رجلا بين الرجال. وبما أن الختان يجرى في مصر العليا عادة قبل البلوغ، فإن ذلك التمسيد قد يستمر بما فيه الكفاية في عمر تترسخ فيه ذكريات واضحة تبقى إلى ما بعد البلوغ.

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل الثالث: أساليب تنشئة الطفل عند العرب

بينما قد يكون هذا العرف بذاته ناتجا عن تطور محلي، فإن الترابط ما بين الأم -وبالتالي المرأة بشكل عام- واللذة الجنسية يعتبر من الأمور التي يمر بها الولد العربي بشكل عام وتهيّئه لتقبل الرأي النمطي الذي يدعي أن المرأة شيء جنسي في المقام الأول وأنها مخلوق لا يستطيع مقاومة الإغراء الجنسي. كما أن أكثر ما يحتجّ به لتبرير إجراء ختان الإناث (الذي يتضمن إزالة البظر أو معظم الجهاز التناسلي) والذي يجرى في العديد من أرجاء العالم العربي، يتلخص في «تهدئة المرأة» بمعنى الحد من شهوتها الجنسية.

في الأدب العربي التقليدي نجد العديد من الإشارات إلى الهياج الجنسي عند المرأة. وباعتبار أن تلك الإشارات كتبها رجال (ولا يزال الوضع كذلك إلى وقتنا الحاضر) فإنهم -بالطبع- يعبرون بشكل أكثر جدارة بالثقة عن الهياج الجنسي للكتاب الذكور مما عليه الحال عند النساء اللواتي يكتبون عنهن. وكيفما كان ذلك، فإن السلوك الجنسي الجامح والشديد يمثل الافتراض الذي يقف خلف الفصل بين الجنسين، وهو الممارسة التي تمثل الركن الأساسي في العادات العربية، وفي كافة مكونات العرف العربي الضيق والمتزمت حيال الممارسة الجنسية. من النادر أن تتم مناقشة السلوك الجنسي الذكري في العلن، لكن الصورة التي يفترض الرجل العربي أنه يتمتع بها هي صورة الرجل الذي لا يستطيع إلا أن ينكح أي امرأة تدق بابه عندما تسنح الظروف لذلك. بالتالي، يحتم عليه العرف المتزمت للممارسة الجنسية أن يبتعد دائما عما يجعله معرضا للإغراء الجنسي. وتفترض العادات العربية أنه حيثما وحينما يصدف أن يختلي رجل وامرأة من عمرين مناسبين فإنهما لن يستطيعا مقاومة الانجرار إلى ممارسة الجنس وإن لم يكونا يعرفان بعضهما البعض من قبل، وحتى إن كانت الممارسة الجنسية تقود إلى عواقب شديدة السوء. والطريقة الوحيدة لمنع وقوع حالات كهذه هي القيام بعزل متزمت بما يجعل من المستحيل على الرجل والمرأة أن يختليا ببعضهما أبدا، إلا -بالطبع- إن كانا زوجين أو قريبين من الدرجة الأولى.

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

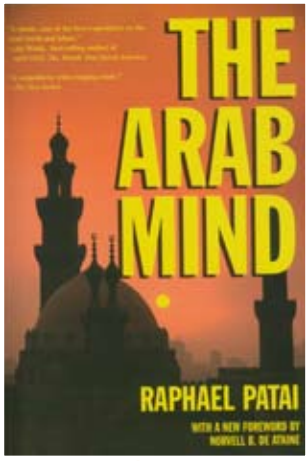

العقل العربي 10

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

الفصل الثالث: أساليب تنشئة الطفل عند العرب

5. الولد يدخل عالم الرجال

تستمر الأم في تدليل ولدها حتى بعد انتهاء مدة الرضاعة، بما في ذلك مداعبة أعضائه التناسلية ومعانقته وتقبيله والإشادة به. وعندما يحين أوان الفطام يكون الولد قد تعود بشكل جيد على طعام آخر غير حليب أمه. وإلى جانب ذلك، يميل حليب الأم في هذه المرحلة إلى التوقف ويجد الولد تناقصا في العائد المقابل لما يقوم به من مص وجذب لثدي أمه.

إن العلاقة الدافئة الحميمية العاطفية التي تبديها الأم تجاه ولدها تصبح أهم علاقة لديه في هذه المدة (في عمر السنوات الأربع تقريبا)، حيث يشرع الأب بإبداء اهتمام أكبر بولده، وتبدأ عملية تسليم الولد من عالم المرأة إلى عالم الرجل. ويعتبر هذا الاهتمام الأبوي من وجهة نظر الولد أمرا له منافعه ومساوئه. فالأب -مهما كان قدر المحبة التي يكنها لولده- عليه وفق العادات والتقاليد أن ينمي شخصية الولد، وعادة ما تكون المناهج الأبوية في التربية الاجتماعية ذات طابع قاسٍ، وما دام الولد تحت وصاية أمه أو من ينوب عنه من الإناث الأخريات كأخت أكبر سنا أو عمة أو جدة، فإنه -عموما- يمتلك الحرية لفعل ما يشاء؛ فالمهمة الأساسية -وربما الأولى- لهؤلاء النساء هي جعله سعيدا وإعطاؤه ما يريد ورعايته وتنفيذ نزواته ورغباته. أما في عالم الرجال الذي يمثله الأب فالأمور مختلفة جدا، فهنا يجد الولد نفسه فجأة في مواجهة مع قوانين صارمة، وبينما تهمل رغباته أكثر مما تنفذ، يجب عليه أن يتعلم تنفيذ رغبات أبيه وإطاعة أوامره وخدمته وحتى أن يصبح تابعا له.

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل الثالث: أساليب تنشئة الطفل عند العرب

ليس هذا التغير في الوضع أمرا يسهل الاعتياد عليه، وقد يتطلب ذلك وقتا طويلا -أعواما في الواقع- من أجل ترسيخ الدور الجديد للولد الذي أصبح شابا (والذي يبقى أصغر الجميع لمدة من الزمن). وعندما يحدث الصدام يتذوق الولد الطعم المر ليد أبيه الضخمة والعصا والسوط (والسيف والخنجر في أوساط القبائل البدوية حيث قد يتعرض للجروح والطعنات)، وكل ذلك ليس من أجل معاقبة الابن على عصيانه فحسب، بل يتعدى ذلك إلى تزويده بالخشونة اللازمة لحياته المستقبلية. ولا عجب في أنه خلال هذه المدة التي يقاسي فيها الانتقال المؤلم إلى عالم الرجال، يهرع الولد إلى أحضان أمه هاربا من تأديب أبيه حيث يجد الراحة والحب والتدليل والأمان، ويستمر هذا التصرف إلى أن يدرك العيب في ذلك. وبهذا يكون الأب القاسي المؤدِّب على الضد من الأم الصفوح الحنون المحبة، ومن هنا تتطور الشخصية الناشئة للولد باتجاهين مختلفين؛ أحدهما يعبر عن صورته الذاتية وموقعه في عالم الرجال الكبير، والآخر يقدم به نفسه إلى عالم النساء الصغير الذي يتكون من عدة أفراد هم: أمه وأخواته وجدته وباقي النساء من الأقارب القريبين.

حالما يتعلم الولد موقعه بالنسبة إلى أبيه، يكتشف الولد الشاب أن اختلاف السن يحتل الأهمية الكبرى في عالم الرجال، وذلك بخلاف عالم النساء حيث لا أهمية للعمر في المنافسة على خطب وده -وذلك بحدود طبعا. حيث يتعلم بأن أصحاب الأمر هم -بالإضافة إلى والده- كل الرجال الذين يفوقونه سنا، ويدخل في ذلك حتى الأخ وابن العم الذي يكبره بسنة فقط. وفي الجانب الآخر يتعلم أنه يستطيع معاملة الأولاد الذين يصغرونه سنه باعتبارهم مأموريه -بالرغم من أنهم ليسوا مأمورين كمأمورية النساء- لكنهم يبقون أشخاصا على قدر يقل عنه أهمية. وحالما يتعلم الولد هذه الدروس، وعلى افتراض أنه أتقنها، فإنه يباشر التصرف وفق الشخصية العربية الذكرية النمطية.

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©
شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

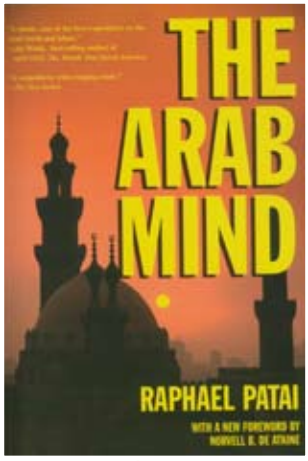

العقل العربي 11

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

الفصل الثالث: أساليب تنشئة الطفل عند العرب

6. البنت تبقى في عالم النساء

في الجانب الآخر، تعاني البنت انتقالا مؤلما من بيئة الطفولة إلى عالم مختلف. فما لم يتزوجها ابن عمها، تقاسي البنت نوعا آخر من الانتقال لا يقل إيلاما في كثير من الحالات، وذلك بأن عليها أن تواجه وتنجو من مخاطر الانتقال من الرعاية اللطيفة والمتسامحة لأمها إلى سلطة حماتها القاسية والمشوبة بالغيرة. وبينما تكون في بيت أبويها، تتعلم البنت كيف ترضى بما تعتبره الفتات المتبقي من محبة أمها بعد أن يحصل الأولاد على النصيب الأوفى. وبعد أن تتزوج تقارن المعاملة التي تتلقاها من حماتها مع معاملة أمها وتستنتج أن معاملة أمها كانت ولا زالت تجسيدا للمحبة واللطف. أما في حالة زواج البنت من ابن عمها، وإذا ما سكنت في بيت يضم أبويها وأبوي زوجها حيث يعتبر الجد زعيم العائلة، فإنها تقاسي دوما الانتقال القاسي من آمر رفيق إلى آمر قاسٍ. وبما أنها تعيش في نفس البيت أو المجمع مع أمها، بالإضافة إلى موقعها بالنسبة إلى والد زوجها باعتبارها كنته وابنة أخيه، فإن ذلك يحميها من أن تقسو عليها حماتها بشدة.

أما في حالة عدم زواج البنت من ابن عمها، فإن العروس الصغيرة تعاني مصاعب جمة. وتتعرض كافة المهارات التي تعلمتها من أمها وأخواتها الأكبر سنا إلى امتحان عسير: فهل يمكنها أداء كافة واجباتها كزوجة؟ هل تستطيع جلب الماء من بئر القرية، وطحن الذرة، وعجن العجين، وصنع الخبز؟ هل يمكنها ذبح دجاجة وتنظيفها وطهوها؟ هل تتمكن من أن تصنع الزبدة، وتجعل الروث أقراصا للوقود؟ أبمقدورها أن تغزل وتنسج وتخيط؟ وهل هي على قدر من القوة يمكنها من مساعدة زوجها في حراثة الأرض وزراعتها وحصاد المحصول؟ وقبل كل ذلك: هل هي قادرة على إنجاب الأولاد؟ إن عجز الزوجة الشابة

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

الفصل الثالث: أساليب تنشئة الطفل عند العرب

عن أداء أي من هذه الواجبات -وخاصة إنجاب الأولاد- يعني فشلها كزوجة ويؤدي إلى إمكانية وحتى احتمال تعرضها للطلاق.

لكن رحمة الله وعنايته تجعل معظم الزوجات يلدن الأولاد والبنات، ومع مرور الوقت تتعلم الزوجة الأعمال المنزلية الروتينية لإرضاء حماتها وتتحسن حياتها. وعاما بعد عام، تتحول الزوجة الصغيرة إلى سيدة شابة، ويعطيها موقعها كأم للأولاد مكانة تتعزز حصانة وتأثيرا في أسرة زوجها.

بشكل عام يمكن القول بأن عملية البلوغ، وخاصة في ما يتعلق بالانتقال من عالم الأطفال إلى عالم البالغين، تتسم بأنها أسهل للبنت مقارنة بالولد. فالبنسبة للولد يكون هذا الانتقال تخليا عن عالم النساء حيث كان يحظى بالحماية والتدليل والإعجاب، إلى عالم الرجال حيث يخضع إلى مراقبة دقيقة ويتوجب عليه تعلم المنافسة والدفاع عن نفسه. وكما يوصي المثل العربي المتداول، فإن على الرجل أن لا يكتفي بمساعدة أخيه ضد ابن عمه، وأن يقف ضد أخيه عند الحاجة. أما البنت، فنضوجها يعني انتقالها من منزل أمها إلى منزل حماتها، لكنها تبقى في الحالتين ضمن عالم النساء، ونفس الفضائل التي كانت تعد معيارا لتقبلها وتقديرها في المنزل الأول، تؤدي المهمة ذاتها في المنزل الثاني. وعلى الرغم من كثير من الأمثال العربية حول المرأة، والتي تعبر بصورة نموذجية عن طموحاتها ومخاوفها، وأفراحها وأحزانها، لا نجد أمثالا تقدم نظيرا أنثويا للمثل السابق، كأن نجد مثلا يقول: «أنا وأختي ضد ابنة عمي، أو أنا ضد أختي.» وعلى الرغم من أن الإخوان ينتمون إلى نفس العائلة ونفس السلالة وغالبا يسكنون في نفس المنزل ومهما تعمقت الصلات العاطفية بينهم، فإن الأخوات يبقين على صلة في ما بينهن رغم عيشهن في بيوت متفرقة مع أزواجهن.

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

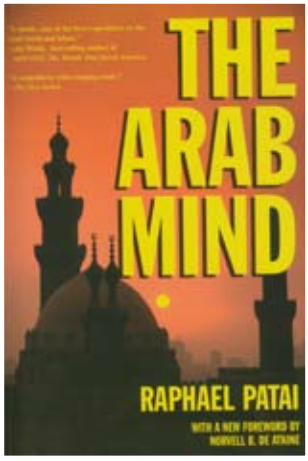

العقل العربي 12

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

الفصل الثالث: أساليب تنشئة الطفل عند العرب

7. مكافآت الطفولة وإنجازات البلوغ

بينما يركز بعض علماء الأنثروبولوجيا من ذوي الاتحاهات الفرويدية انتباههم على على جوانب عاطفية وانفعالية كالتشدد والتساهل حيال الفطام والتدريب على قضاء الحاجة والجنس والاستقلالية، يشدد آخرون على جانب مختلف، وهو الحاجة إلى تحقيق إنجاز. بالإضافة إلى وجود رابط ما بين علاقة الأم بالطفل وشدة حاجة الطفل إلى تحقيق إنجاز. وعلى هذا الأساس تم الافتراض بأن من نتائج الحاجة للإنجاز: النمو الاقتصادي، وبناء على ذلك صيغت علاقة سببية ثلاثية المراحل: أساليب تنشئة الطفل ⇦ الحاجة للإنجاز ⇦ التطور الاقتصادي. وتتمحور معظم النظرية حول ما يلي:

> «إن الاختلافات في معدل النمو الاقتصادي في بلدان مختلفة قد يكون راجعا لا إلى الموارد الطبيعية أو رأس المال المتاح للاستثمار أو المهارات التقنية فحسب، إنما لمقدار دافع الحاجة للإنجاز الموجود لدى أفراد أمة بعينها.»
>
> (ادوين بروثرو (*Edwin T. Prothro*): تنشئة الطفل في لبنان، ص25.)

ما الذي يؤدي إلى هذه الاختلافات الواضحة في الحاجة للإنجاز ما بين ثقافة وأخرى؟ تتمثل الإجابة التي يقدمها مختصو الأنثروبولوجيا وعلم النفس من مدرسة الثقافة والشخصية في وجود عامل مهم يحدد المدى الذي يقوم ضمنه الوالدان -الأم خاصة- بمكافأة طفلهما على إنجازه. وبإيجاز يمكن القول بأنه وجد ترابط إيجابي بين مكافأة الوالدين للطفل وإنجازاته عندما يبلغ. والظاهر أن هذه المكافأة تعزز إلحاح الحاجة للإنجاز لدى الطفل، والطفل الذي يتلقى دائما مكافآت من والديه لما ينجزه تتعزز لديه الحاجة

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

الفصل الثالث: أساليب تنشئة الطفل عند العرب

للإنجاز إلى مدى يمكنه من نقل هذه الحاجة إلى حياته المقبلة كبالغ.

هل يمكن إيجاد ترابط من هذا النوع ما بين المكافأة على الإنجاز في مرحلة الطفولة وبين سجل إنجازات الفرد عند البلوغ في العالم العربي؟ هذا أحد الأسئلة التي عزم بروثرو على الإجابة عنها في دراسته التي حملت عنوان (تنشئة الطفل في لبنان). وهنا ينبغي الانتباه إلى التركيب الإثني غير المتجانس للشعب اللبناني. ورغم أن لبنان يعد -بلا شك- أكثر الدول العربية تقدما من ناحية موقفه تجاه الحضارة الغربية والحداثة، فإن هذا الموقف يتفاوت بشكل واضح ما بين الإثنيات المختلفة. ويرى بروثرو أن القرويين المسلمين هم المكون الأكثر محافظة، ويليهم في ذلك القرويون المسيحيون، ثم الحضريون المسلمون، وأخيرا يأتي الحضريون المسيحيون الذين يعدون المكون الأكثر ميلا إلى الحضارة الغربية في هذا البلد.

باستعمال هذا التنوع الإثني والثقافي كان بروثرو يأمل في اكتشاف ما إذا كانت هذه الاختلافات الثقافية تظهر في مرحلة الطفولة المبكرة. وطبق في ذلك استبيانا أجراه على عدة مئات من الأطفال اللبنانيين الذين يبلغون الخامسة من العمر وينتمون إلى مجموعات مختلفة عرقيا ودينيا: من العرب السنة، والعرب الروم الأرثوذكس، والأرمن الغريغوريين (الأرثوذكس). كما قسم كل مجموعة من المجموعات السابقة إلى فرعين: حضري (بيروت)، وقروي (الوادي). وكان الغرض من الاستبيان تحديد (أو تقدير) المستوى العقلي لهذه المرحلة العمرية ومقارنة أداء المجموعات الثلاث. وجد بروثرو أنه بمقارنة الأطفال الذين ينتمون إلى نفس الطبقة الاجتماعية (حضري أو قروي) كانت هناك اختلافات واضحة بين الطوائف الثلاث حيث حقق الغريغوريون أعلى النتائج وتلاهم الأرثوذكس ثم السنة.

وباكتشافه لهذه الاختلافات ما بين الأعراق في عمر مبكر (خمس سنوات)، انتقل بروثرو ليركز على احتمال وجود ارتباط بين الاختلافات في ممارسات تنشئة الطفل وبين إنجازات البلوغ. وفي ما يتعلق بـ«الاختلافات العرقية في المجال الاقتصادي» يعدد بروثرو عددا من

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل الثالث: أساليب تنشئة الطفل عند العرب

الأمور التي تجعل اللبنانيين الأرمن سباقين كمبدعين في مجال الأعمال ويقدمون أكثر من غيرهم على القيام بفعاليات تعليمية وثقافية. ويأتي العرب المسيحيون في المرتبة الثانية من ناحية المشاريع الاقتصادية والإبداع والسيطرة. ثم يأتي العرب المسلمون في المرتبة الثالثة. إن التصانيف مثل «الأرمن» و«العرب المسيحيون» و«العرب السنة» أكثر شمولا من مجموعات (الأرمن الغريغوريين الأرثوذكس) و(العرب الروم الأرثوذكس) و(العرب المسلمين السنة) والذين طبق بروثرو استبيانه على أطفالهم. ومع ذلك فإن عامل الهوية مهم جدا في نظام التصنيف بين مجموعات الأطفال والبالغين في المجموعات الثلاث السابقة. ومع أخذ الاحتياطات اللازمة يمكن القول بأن المجموعة التي سجل أطفالها أعلى معدل في استبيان بروثرو سجل بالغوها أعلى معدل في ما يخص الإنجاز.

وفيما يتعلق بالتساؤل حول العلاقة ما بين الإنجاز وممارسات تربية الطفل، لاحظ بروثرو وجود اختلافات بين المجموعات الثلاث في ما يخص تواتر المكافأة على إتمام المهمات. ووجدت دراسات أمريكية أن الاستخدام المتكرر لأسلوب المكافأة يميز أساليب تنشئة الطفل لدى الأمهات في المجموعات ذات المعدل العالي من الإنجاز. وفي لبنان، قالت غالبية الأمهات من الأرمن الغريغوريين والعرب الأرثوذكس بأنهن يكافئن السلوك الجيد لأطفالهن بانتظام، بينما قالت غالبية الأمهات من العرب المسلمين السنة أنهن لا يقمن بذلك، بل إنهن علاوة على ذلك يعتمدن على أسلوب التهديد بشكل يفوق الأمهات الأخريات. كما وجدت اختلافات في نظرة الأمهات للسلوك المستقل والمسؤولية عند أطفالهن، حيث تنمي الأمهات الأرثوذكسيات والغريغوريات الاستقلالية لدى أبنائهن الصغار إلى درجة تفوق ما تفعله النساء المسلمات في هذا المجال، وهذا يثبت نظرية بأن هذه الممارسة تميز المجموعات ذات المعدل العالي من الإنجاز.

ووجد بروثرو أخيرا أنه في مجموعة الأرمن الغريغوريين والعرب الروم الأرثوذكس في بيروت، يلعب الأب دورا أقل في تدريب الطفل مما هو عليه الحال عند اللبنانيين بشكل عام وعند العرب المسلمين السنة في منطقة الوادي بشكل خاص. ومن هنا يتبين أنه في

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل الثالث: أساليب تنشئة الطفل عند العرب

الجماعات ذات المعدلات العالية من الإنجاز يكون الأب أقل تأثيرا على الطفل مقارنة مع الجماعات الأخرى، حيث تترابط السيطرة الأبوية الأقل -في لبنان كما هو الحال في أمريكا- مع معدلات عالية من الإنجاز.

من بين الطوائف اللبنانية المسيحية، يعد الأرمن أكثر تحضرا. فهم على الأغلب أصحاب حرف وتجار صغار وموظفون في مكاتب، ولا يزالون يعيشون حالة لافتة من العزلة على الصعيدين الثقافي واللغوي، مفضلين أن يكونوا (أمة في المنفى) على أن يذوبوا في المكون المسيحي العام. لقد وصل الأرمن إلى لبنان بعد الحرب العالمية الأولى وهم معدمون، لكنهم تحولوا بعد ذلك سريعا إلى أثرياء. وهم يتميزون بسوية عالية من الأخلاق والثقافة، كما هو الحال بالنسبة لحيويتهم وقدرتهم على مكابدة الصعاب.

من المستحيل التحديد الدقيق للصلة بين هذه الخصائص التي تتسم بها الشخصية النموذجية للبنانيين الأرمن وبين أساليب تنشئة الطفل التي وجدها بروثرو لديهم، لكن يمكن التأكد من أمرين هما:

1. إن الأساليب الخاصة المتبعة في تنشئة الطفل جزء لا يتجزأ من التقاليد الثقافية التي يصر الأرمن على اتباعها.
2. الأساليب السابقة نفسها تضمن -دون ريب- استمرار الشخصية الأرمنية النموذجية الخاصة.

كلا المجموعتين الأخريين التي درسهما بروثرو تنتميان إلى العرب، رغم أن إحداهما مسيحية (الروم الأرثوذكس) والأخرى مسلمة (المسلمين السنة). ويحمل الروم الأرثوذكس بشكل عام توجها شرق أوسطي أكبر مما لدى الطائفة المارونية التي تفوقهم حجما، ويسكن معظمهم في القرى (خاصة في منطقة الكورة شمال لبنان)، لكن قسما كبير العدد وغنيا منهم يعيش في بيروت. أما المسلمون السنة فهم أكبر الطوائف المسلمة

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

الفصل الثالث: أساليب تنشئة الطفل عند العرب

عددا في لبنان، ويأتون بعد الطائفة المارونية من حيث العدد على مستوى لبنان، وهم يشكلون في بيروت ثلث عدد السكان، بالإضافة إلى أغلبية السكان في طرابلس ومحيطها. أما في القرى، وبخاصة في شمال لبنان، لا يزال معظم السنة يعتمدون على طبقة عليا صغيرة تتكون من أسر شبه إقطاعية «مرموقة»، وفي المدن يشكلون جزءا كبيرا من طبقة العمال، بالإضافة إلى وجود طبقة برجوازية سنية من التجار وأرباب الحرف.

ليس هناك من شك في أن الترابط والتكامل ما بين أساليب تنشئة الطفل وديمومة الشخصية القومية (أو الاجتماعية) أمر موجود ضمن العرب الروم الأرثوذكس والعرب ولكنه لا يصل إلى نفس الدرجة الملاحظة عند الأرمن. وهذا يأتي من القول بأنه -عند الحديث عن السنة لوحدهم بما أنهم أقرب إلى العرب على المستوى العام- نجد أن الأساليب الخاصة لتنشئة الطفل التي اكتشفها ووثقها بروثرو وكانت من وظائف تقاليدهم الثقافية، إنما هي مسؤولة -جزئيا على الأقل- عن الخصائص التي يختلفون فيها عن الروم الأرثوذكس والأرمن. ونذكر من هذه الأساليب على سبيل الإيجاز: أن الأم من العرب السنة من النادر -نسبيا- أن تكافئ طفلها على إنجازه الناجح، وإنما تستعمل التهديد بالعقاب أكثر الأحيان (مع أنها تفشل في تنفيذ تهديداتها دائما)، كما يندر أكثر أن تربي طفلها على الاستقلالية، وتدع الأب يفرض سيطرته على الطفل. إن هذه الأساليب يجب أن تكون ميدان البحث عن العامل في تنمية تلك الشخصية المحددة التي يتصف بها اللبناني السني في طفولته وبعد بلوغه.

قام بروثرو بتحديد مجموعة من الخواص التي تميز هذه الشخصية القومية، ومنها: أن السني يتأخر عن المجموعتين المسيحيتين الأخريين فيما يتعلق بمستوى الإنجازات الاقتصادية، وربما يتعدى ذلك إلى المجالات التعليمية والثقافية أيضا. وبما أنه تم اكتشاف الارتباط ذاته في أمريكا بين أساليب تنشئة الطفل والإنجاز، يبدو أنه من الجائز أن نستنتج وجود علاقة (سبب ونتيجة) ما بين الاثنين.

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©

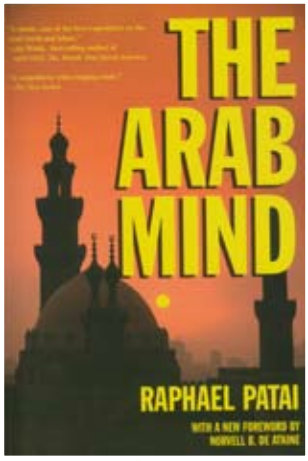

العقل العربي 13

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

1. العرب واللغة العربية

عندما يتكلم سكان دولة أو أكثر اللغة نفسها، يقوم اللسان المشترك بتكوين رابط في ما بينهم وألفة وتعاطف يتخطى الحدود السياسية التي تفرقهم. من هنا فإن الناطقين باللغة الإنكليزية على ضفتي المحيط الأطلسي وفي أي مكان آخر يشعرون بأنهم أقرب إلى بعضهم البعض من الآخرين، مع أن الآخرين قد يكونون أقرب إليهم جغرافيا. وتكوّن اللغات الألمانية والأسبانية والبرتغالية روابط مشابهة بين الأمم الناطقة بها. ومع هذا، فإن الإحساس بالألفة الناشئ عن لغة مشتركة ينتج عنه أثر محدود دوما، ولا يشوّش على مصالح واعتبارات الأمة التي تظل ثابتة في وعيها.

لكن ذلك لا ينطبق بشكل كامل على العرب. ففي البلدان العربية يتخلل العرب حاليا إدراك بكونهم أمة واحدة هي الأمة العربية، بغض النظر عن عدد الكيانات السياسية التي تتكون منها هذه الأمة الواحدة. وهذا لا يعني، بالطبع، انتفاء الفوارق، أو حتى انتفاء العداوة والاتهامات الغاضبة، بين الدول العربية. لكن في خضم الحروب الأخوية، يستمر الشعور بأنه مهما اشتدت آلام الصراع، فإنه مجرد خلاف مؤقت سيتم حسمه، وأنه مهما طال أمد هذا الصراع، فلن يخرق مبادئ الأخوة العربية ومثالية الوحدة القومية لكل العرب. وما من شك في أن اللغة العربية هي العامل الأهم في كل من إنشاء والمحافظة على الأسطورة التي احتلت موقع الأولوية عند العرب: الأمة العربية، والوحدة العربية، والأخوة العربية. يقول الناقد والروائي العراقي المعاصر جبرا إبراهيم جبرا: «كانت القوة الموحِّدة للغة العربية من الشدة بمكان بحيث أنها منذ البداية الأولى أصبحت جوهر المبادئ العربية.»

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

عدا عن ذلك، فإن النظر من قرب يرينا العرب وهم لا يكتفون بإظهار أنفسهم أمة واحدة بل إنهم يعتبرون الأعضاء البعيدين في هذه الأمة كفروع من أسرة واحدة موسعة جدا. إن الإعلاء من شأن العائلة، والذي يعتبرها المركز -عمليا- في كافة جوانب الحياة، كان ولا يزال في زماننا هذا أحد أهم القيم في التقاليد العربية، ويمارس إلى اليوم سلطة معتبرة على الأفكار والميول لدى العرب. وعند النظر إلى «الأمة العربية» كأسرة عربية، يميل العقل العربي إلى تكريس نفسه وفق القوانين والتجارب القديمة التي رافقت سياق هذه العائلة عبر قرون. وأحد هذه القوانين يتطابق مع مثل ذكرناه سابقا، ويوجد حاليا بصيغ مختلفة في كثير من الدول العربية، وهو: «أنا ضد إخوتي، وأنا مع إخوتي ضد أبناء عمومتي، وأنا مع أبناء عمومتي ضد العالم.» ويوجد هذا المثل أيضا بصيغة معكوسة تظهر النية بالتوبيخ على الميل للتخاصم: «أنا مع أبناء عمومتي ضد العالم، وأنا مع إخوتي ضد أبناء عمومتي، وأنا ضد إخوتي.»

يمكن تمثيل النظرة الجيوسياسية العربية تمثيلا جيدا باعتبارها سلسلة من الدوائر متحدة المركز. وكلما صغرت الدائرة كبر الإحساس بالانتماء والالتحام والولاء. وفي المجتمع العربي التقليدي كانت الدائرة الأكبر التي تحكمت بالولاء هي دائرة القبيلة، وفي المناطق المستقرة كانت هي القرية. وما وراء القبيلة أو القرية يقع العالم الخارجي، أو القبائل والقرى الأخرى التي تشكل خليطا يتسم بالعدائية. ولقد جاءت التأثيرات الأجنبية بالدائرة الكبيرة التالية: الأمة السياسية، والتي لم تتمكن إلى الآن من النجاح في الحلول في مقياس الولاء محل الدوائر الأصغر للقرى والقبائل والبنى السكانية الأخرى المؤسسة على أساس القرابة. وبعد ذلك تأتي الدائرة التي تشمل الدول العربية كافة أو كل العرب أينما عاشوا وكيفما تفاوتت انتماءاتهم السياسية. ثم يأتي على مسافة من العالم العربي: العالم الإسلامي، والذي يتواجد في الوعي العربي بشكل خفيف باعتباره عاملا يوحّد عدة أمم غير عربية بالإضافة إلى الأمة العربية. وتشكل دائرة المسلمين غير العرب -بالنسبة للعرب- نوعا من الحافة التي تميز المسافة الواصلة ما بين العالم العربي وباقي أنحاء

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©

الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

العالم -الذي ليس عربيا ولا مسلما. ورغم هذا، فإن العربي إذا سئل أن يحدد الخط الفاصل ما بين «نحن» و«هم»، بين المجموعة الداخلية التي يحس بأنه جزء منها وبين المجموعة الخارجية التي تتكون من العالم الغريب؛ فسيشير بلا شك إلى الدائرة التي يتواجد فيها ناطقون باللغة العربية، وسيكون الخارج بالنسبة له حيث يتواجد الناطقون بغير اللغة العربية مهما اختلفت قناعاتهم الدينية.

في العالم الذي لا ينطق بالعربية، وكما رأينا، ثمة مجموعات عدة من الدول التي تنطق بلغة واحدة. لكن اللغة العربية هي الحالة الوحيدة التي تكون فيها اللغة عاملا يعرّف ويحدد الانتماء إلى تجمع قومي. إن أي عبارة مثل «الألماني هو من تكون لغته الأصلية هي اللغة الألمانية» هي عبارة غير حقيقية بالكامل لأنها تدخل إلى الألمان أمما أخرى مثل النمساويين والسويسريين. أما في العالم العربي فإن السؤال عن ماهية العربية يجد جوابا دائما: هو من تكون لغته الأصلية هي اللغة العربية. هذا هو الجواب الذي يقدمه الكثير من العرب أنفسهم، ولا يمكن الحصول على جواب آخر. إن هذه الهوية اللغوية تجعل «العرب» موزعين على أديان مختلفة (مع بعض الاستثناءات). وهكذا يصبح المسلمون السنة والشيعة من «العرب» في العراق واليمن، ويصبح المسلمون والمسيحيون -إن تكلموا العربية- من «العرب» في سوريا ولبنان؛ وهلم جرا. وتستطيع اللغة أن تتخطى حتى العادات الأصيلة، وذلك يظهر في السيادة العامة لنظام المؤسسة الثنائية -انشطار المجتمع إلى قسمين متعارضين- وذلك على امتداد العالم العربي، حيث يعرّف أعضاء كلا المجموعتين على أنهم عرب. ويمكن لهذه الهوية أن تضم إلى العرب ذرية الصوماليين والأفارقة الذين كانوا عبيدا في الماضي حتى وإن كانت هناك نظرة خاصة للصفات الجسدية التي يتميز بها العرق الأسود، والحال نفسه بالنسبة لذرية البلغاريين وغيرهم من المهاجرين الأوربيين الذين جاء أجدادهم عادة بسبب الخدمة العسكرية في الجيش التركي.

بما أن العالم العربي ليس موجودا على الصعيد الواقعي، فلا يوجد فيه سلطة تفرض رؤاها. ومن هنا، فإنه على الرغم من أن غالبية الحالات التي تم فيها تبني اللغة العربية

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

كلغة أصلية شهدت تعريبا تعدى اللغة إلى الاثنية، وبعض المجموعات الاستثنائية حافظت على هويتها الاثنية رغم التحول اللغوي للعربية. وهذه المجموعات غير المسلمة الناطقة بالعربية، والتي لا يعتبر أفرادها من العرب، ليست كثيرة وتعداد أفرادها قليل لكنها سهلة التمييز. وأكبر هذه المجموعات هي القبط في مصر، وهم طائفة مسيحية لا يزال أفرادها يتكلمون لغتهم الخاصة القديمة، وهي القبطية، ويستعملونها في الطقوس الكنسية. يليهم في ذلك اليهود، وهم قلة اليوم في الدول العربية نظرا لهجرة معظمهم إلى إسرائيل بعد عام 1948. وهم يتكلمون اللغة العربية ولكنهم يستعملون اللغة العبرية في الكنيس والدراسة والتعابير الأدبية. بالإضافة لذلك توجد عدة طوائف مسيحية أصغر تستعمل اللغة العربية للحياة اليومية واللغة السريانية وغيرها في الطقوس الكنسية. ولا تنطبق الأمثلة السابقة على الدروز الذين يقطنون إسرائيل ولبنان وسوريا، مما يدعو لإطلاق تعميم يفترض أن المجموعات غير المسلمة الناطقة بالعربية والتي تستعمل لغة أخرى في طقوسها الدينية لا تعد مجموعات عربية. ورغم ذلك يعد الدروز حالة خاصة؛ فهم ينحدرون من عرب مسلمين انفصلوا عن المجرى الإسلامي العام في القرن الحادي عشر. ورغم عدم تمسكهم بكونهم مجموعة ناطقة بالعربية واستخدامهم لهذه اللغة في الطقوس الدينية فإنهم لا يعدون عربا، وإنما هم دروز لا غير.

مع كل ذلك، فإن هذه الاستثناءات الهامشية لا تعد ذات أهمية كافية للتأثير بأي شكل من الأشكال على الصلاحية الشاملة للتعريف السابق: العربي هو من تكون لغته الأصلية هي العربية.

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

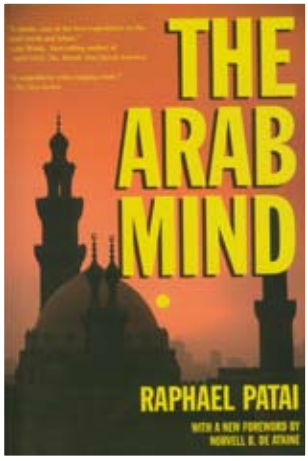

العقل العربي 14

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

2. إغراءات اللغة العربية

يقول عالم اللغة الثعالبي (ت 1038م):

«من أحبَّ الله تعالى أحبَّ رسوله محمدا، ومن أحبَّ الرسول العربي أحبَّ العرب، ومن أحبَّ العرب أحبَّ العربية التي بها نزل أفضل الكتب على أفضل العجم والعرب، ومن أحبَّ العربية عُنيَ بها، وثابر عليها، وصرف همَّته إليها، ومن هداه الله للإسلام وشرح صدره للإيمان وآتاه حسن سريرة فيه، اعتقد أن محمدا خير الرسل، والإسلام خير الملل، والعرب خير الأمم، والعربية خير اللغات والألسنة.»

إن ما عناه الثعالبي بأن اللغة العربية «أفضل اللغات» ليس صحيحا تماما. لكنه كان محقا في ملاحظة إيمان المسلمين عموما بتفوق اللغة العربية. ومهما يكن من أمر، يذكر للغة العربية البلاغة العالية التي تتمتع بها والتي انطبع بها خبراؤها الحقيقيون، كما كان لهذه البلاغة أثرها على المسيحيين أيضا، مما دفع بأحد الكتاب المسيحيين في قرطبة إبان القرن التاسع إلى أن يأسف على حال العامة من المسيحيين الذين أصبحوا «منبهرين بالبلاغة العربية.»

إن التمجيد الكبير للغة العربية والذي أبداه الكتاب المسلمون والمسيحيون في العصور الوسطى المبكرة لا يزال صداه يتردد إلى اليوم من خلال ما يعتقده العرب حول قيمة لغتهم. فعلى امتداد المنطقة اللغوية العربية الشاسعة يعتقد الناس بتوافق نسبي بأن اللغة العربية هي الأولى بين اللغات لما فيها من جمال وفتنة قوية، وبخاصة عند إلقاء الشعر التقليدي والخطب الرسمية وشبه الرسمية. ويصر الناطقون بالعربية أيضا على

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

أن لغتهم تتفوق على اللغات الأخرى من ناحية الجمال لما بها من صفات جوهرية. حتى أن جبرا تحدث أيضا عن «سحر» اللغة العربية فقال: «عندما تستعيد اللغة نشاطها، ستزداد سحرا على سحر، وستكون فعالة أكثر مما مضى، لتتوضع كما هي في قلب النهضة السياسية الجديدة.» وتابع ليقول: «إن النحو العربي -على صعوبته- يمتاز في الأساس ببنية منطقية كما الرياضيات. وهذا جعل من اللغة دقيقة وسلسة.» وفي ما يتعلق بصلة العرب بلغتهم يشير جبرا على «التفخيم الأصيل الذي يولع به العرب» و«المعجزة اللفظية» اللتين تفعلان فعلهما في أوساط الناطقين باللغة العربية.

وكما لاحظ أحد المستعربين الأمريكيين؛ يبدي العرب فخرا كبيرا بالنمط المنطقي لنظام الأفعال في اللغة العربية، بينما يبقون «غافلين عن ما يشبه الفوضى في نظام الأسماء.» وفي الحقيقة، يعتقد الكثير من العرب جازمين بقناعة مفادها أن اللغة العربية أفضل اللغات وأجملها إلى الحد الذي يتعاملون فيه بقدر كبير من الغضب والعدائية مع من يطرح مسألة لامنطقية اللغة العربية.

إن الجانب الآخر من الأساطير العامة حول اللغة العربية، والذي يشكل «كتلة متراصة بقوة من المواقف والمعتقدات» في الخطاب العربي السائد، يتمثل في الإشارة إلى اتساع وغنى المعجم العربي، وفي القدسية المتأتية من كونها لغة القرآن. وكذلك يكثر من يشير إلى اللغة العربية الفصحى باعتبارها أفضل لغات العالم، وأن لهجته التي يستعملها هي الأقرب إلى الفصحى والأسهل تعلما والأكثر فهما من باقي اللهجات. وفي نفس الوقت لا تزال اللهجة البدوية تعتبر أفصح اللهجات.

لقد تأكدت من هذه الاستنتاجات عبر بحوثي حول القضية في القدس والناصرة عام 1971. فعرب الناصرة، مهما علا مستواهم التعليمي (ومنهم من يحمل شهادة دكتوراه في علم الاجتماع من أمريكا)، واثقون بأن اللهجة الفلسطينية هي الأفضل لأنها الأقرب إلى الفصحى، أو لأنها الأوسع انتشارا من جميع اللهجات العربية. أما عرب القدس فيعتبرون

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

اللهجة المقدسية، لا اللهجة الفلسطينية العامة، هي الأفضل لأنهم يعتقدون بأنها أقرب إلى الفصحى. لكن اللهجة البدوية لا تلقى تقديرا عاليا في كل من الناصرة والقدس، فمع أنها لهجة نقية، بقيت محدودة بقدر لا يمكنها من أن تكون وسيلة تعبير حديثة.

في كل بلد من البلدان العربية تتعايش اللغة العربية الفصحى جنبا إلى جنب مع العامية التي تتواجد بلهجات محلية شتى، والعرب مدركون لما ينتج عن هذا من مشكلة. ويحس كثيرون بأن هذا شذوذ سينتهي خلال 10 سنوات أو 50 سنة على أكبر تقدير. وستكون اللغة العربية في المستقبل لغة موحدة ومعيارية وعالمية شديدة الصلة بالفصحى والوحيدة في الاستخدام لكل من القراءة والكتابة على امتداد العالم العربي. وستكون ملائمة لكل أنواع الأدب، وسيتحقق انتشارها وقبولها عالميا عبر ارتفاع مستوى التعليم والإذاعة والتزايد الكبير في تنقلات العرب وتواصلهم مع بعضهم البعض.

ومن أجل فهم قوة اللغة العربية في إنشاء ورعاية شعور خرافي بالوحدة ما بين شعوب الدول العربية الكثيرة المتشتتة، يجب على المرء أن يلقي ببصره إلى الماضي. فقبل البعثة المحمدية، اقتصر النطق باللغة العربية على شبه جزيرة العرب دون أن يشمل هذه المنطقة الواسعة القاحلة المسكونة جزئيا. وبعد أن أصبح الإسلام الدين المسيطر فيها، باشر العرب حديثو الإسلام بفتح أجزاء شاسعة من العالم بحركة سريعة منتصرة لم يشهد لها العالم مثيلا. وخلال 80 عاما من وفاة النبي محمد (ت 632م)، تحرك العرب إلى اسبانيا وشمال افريقيا ومصر والهلال الخصيب وعدة مناطق مجاورة، ولا يزال الوجود العربي والإسلامي قائما في معظمها إلى يومنا هذا. وحملت الأجيال التالية راية الإسلام إلى أصقاع الأرض: شرقا إلى وسط آسيا وصولا إلى منغوليا وشبه الجزيرة الهندية وجنوب شرق آسيا، وغربا إلى البلقان وهنغاريا، وجنوبا إلى النطاق السوداني العريض في افريقيا.

كانت اللغة العربية تلحق بالإسلام مع أن عمليتي التعريب والأسلمة انطلقتا سوية باعتبارهما جوانب أساسية من مسيرة الفتوحات والتحولات. لكن المسافة بينهما كانت

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©

الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

تكبر بازدياد البعد ما بين الأرض الأم والبقاع المفتوحة حديثا. وخلاصة القول: إن بقعة مركزية واسعة نشأ فيها الإسلام واللغة العربية أصبحت محاطة بنطاق خارجي أوسع اعتنق سكانه الإسلام دون أن يتخلوا عن لغاتهم لصالح اللغة العربية. وهكذا أصبح العالم العربي يحتل منطقة مركزية ضمن العالم الإسلامي غير الناطق بالعربية.

استطاعت اللغة العربية أن تنتشر في الأماكن التي يتكلم سكانها الأصليون لغة سامية-حامية، أي أن تكون لغتهم قريبة نوعا ما من العربية. وهكذا، حلت اللغة العربية محل الآرامية، وهي لغة سامية، في الهلال الخصيب، والقبطية، وهي لغة حامية، في مصر. لكنها لم تنجح أن تتغلب على الفارسية في إيران، والبشتو في أفغانستان، والكردية في كردستان، والتركية في تركيا ووسط آسيا. كما قاومت قبائل البربر في شمال افريقيا عملية التعريب بنجاح كبير ليومنا هذا، على الرغم من أن بعض الباحثين يعتبر اللغة البربرية عضوا في مجموعة اللغات السامية-الحامية.

ومع ذلك، فرضت اللغة العربية سيطرتها على مساحة واسعة تفوق مساحة أي بقعة من الأرض يسكنها شعب ينطق لغة واحدة. فاللغة العربية تستعمل في جنوب شرق آسيا، والجزيرة العربية والهلال الخصيب وصولا إلى الحدود التركية والإيرانية، وكذلك في شمال افريقيا: من مصر وجنوب السودان (من النيل وتشاد) إلى المغرب وموريتانيا بالإضافة إلى شمال الصحراء الافريقية. وتوجد جيوب ناطقة بالعربية في أفريقيا (جيبوتي وزنجبار) وأوربا (مالطا).

في ذلك الجزء من العالم حيث جرت عملية التعريب والأسلمة، والذي يتكون من عدة دول عربية حاليا، نالت حظوة عالية جعلتها تلي العقيدة الإسلامية من حيث الأهمية. وينص القرآن نفسه، وهو الكتاب المقدس الوحيد لدى المسلمين، بكونه «قرآنا عربيا»، وبسبب القرآن، أصبحت لهجة مكة في القرن السادس عشر اللغة الرسمية للدين الإسلامي والأدب لدى العرب أينما كانوا. وتطورت هذه اللغة لتتحول إلى ما تلاها من لغة الأدب العربي

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

الحديث، ولكن بتدرج شديد وإلى مدى محدود.

ما أن أصبح القرآن الكريم الكتاب المقدس للمسلمين، احتلت اللغة العربية موقع اللغة المقدسة عند المسلمين جميعهم، بمن فيهم أولئك الذين يحيطون بالعالم العربي ولم يستعملوا اللغة العربية في حياتهم اليومية. إن أولئك يقرؤون القرآن ويحفظونه غيبا باللغة العربية، ويصلون بالعربية، ويستعملون الأبجدية العربية (مع بعض الاختلافات) في كتابة لغاتهم الخاصة. وكان المسلمون يرسلون بعض أبنائهم للدراسة في تركيا وبلاد فارس وأفغانستان وبخارى وتركستان وغيرها من بقاع المحيط الخارجي للعالم العربي، حيث يتعلمون الكتابة العربية، وقراءة القرآن وربما تفسيره، وشيئا من العلوم إلى جانب ذلك. وكانت اللغة العربية تلعب في هذه البقاع دورا يماثل دور اللغة اللاتينية في الكنيسة الكاثوليكية.

إذا كان ذلك هو التقدير الذي حظيت به اللغة العربية في الأطراف، حيث لا يوجد إلا القليل من العلماء الذين يتقنونها بشكل كامل، فضمن المنطقة المركزية التي تم تعريبها بعد الفتح العربي الإسلامي نالت لغة القرآن المقدسة مكانة لم تبلغها أية لغة في أية ثقافة. إن عملية التثقيف العربي التي قام بها من لم تكن العربية لغتهم الأم، تطورت بمعزل عن أساسها الديني لتصبح هدفا أدبيا يسعى إليه لذاته بسوية متعاظمة من الشدة والإخلاص. إن خيرة العقول العربية اعتبرت اللغة العربية الكنز الأثمن الذي حظي به العرب، ووظفوا قدرات هائلة في سبيل الوصول إلى أقصى حد في استثمار إمكانيات هذه اللغة، وخلال سعيهم هذا استفادوا بشكل كبير من مخزونها اللفظي الغني، والبنية المتنوعة العظيمة التي يتصف بها نظام الأفعال، والسهولة التي تسلم فيها اللغة قيادها لإيقاع النبرات، وتلاؤمها الاستثنائي مع الأغراض البلاغية.

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©
شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

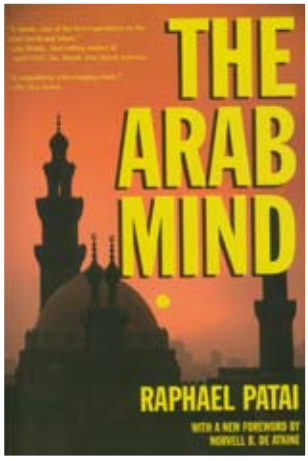

العقل العربي 15

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

3. البلاغة

مصطلح «البلاغة» هنا يمثل القيمة العالية الاستثنائية التي يقيم بها العرب لغتهم، وارتباطهم غير الطبيعي بها، والتأثير الذي تمارسه عليهم. إن البلاغة ميزة مهمة جدا في الشخصية النمطية العربية.

لقد تسنى لي شخصيا، وفي أكثر من مناسبة، أن أشهد قوة الفصاحة العربية -أو على الأقل- الانذهال بهذه الفصاحة والذي حذر منه ألفارو معاصريه من المسيحيين في قرطبة إبان القرن التاسع. كنت أشعر بذلك حين أحضر المسرحيات العربية، أو أستمع إلى خطبة عربية، أو أندمج في قصة يرويها أحد الرواة في مقهى ما في ليلة رمضانية، أو حتى عند خوض نقاش حيوي بين الأصدقاء. وباعتباري مطلعا على العديد من اللغات، يمكنني أن أشهد بالاعتماد على خبرتي الشخصية على أني لا أعلم لغة تقترب -ولو قليلا- من اللغة العربية في قوتها البلاغية وقدرتها على اختراق وتجاوز المعارف الأدبية لتصل إلى العواطف وتطبعها بطابعها الخاص. وبهذا الاعتبار، لا يمكن مقارنة اللغة العربية بغير الموسيقى. وبينما يختلف تأثير اللغة عن تأثير الموسيقى لدى الناطقين باللغة الانكليزية، تجد العرب يتفاعلون مع اللغة والموسيقى بنفس النمط أساسا، غير أن تأثير اللغة لديهم ربما يكون أعمق وأشد وأكثر عاطفية.

يمكنني أن أستمر طويلا في طرح أفكاري الشخصية وأحاسيسي حول اللغة العربية، لكنني سأذكر آراء بعض المختصين من العرب أنفسهم، مما يجعل آراءهم تتصف بالطابع الرسمي. يقول ادوارد عطية في كتابه (العرب) حول علاقة العرب بلغتهم: «من خصائص

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

العقل العربي أنه يميل إلى اللغة أكثر من الأفكار، ويميل إلى الأفكار أكثر من الحقائق.»

ويفصل المؤرخ الأمريكي من أصل عربي فيليب حتي القول في ذلك (في كتابه الوجيز في تاريخ العرب):

«ما من شعب في العالم لديه هذا الإعجاب الحماسي بالتعبير الأدبي وتحركه الكلمة، منطوقة أو مكتوبة، كالعرب. ومن الصعب أن تهيمن لغة غيرها على عقول ناطقيها بتأثير لا يقاوم كتأثيرها. ويمكن إثارة العرب الذين يستمعون إلى الإذاعة في بغداد ودمشق والقاهرة بدرجة عالية من خلال إلقاء قصيدة لا تفهم إلا بصعوبة، أو بخطابات تعتمد النمط القديم وإن لم يع المستمعون مقاصدها كافة. إن الإيقاع والقافية والموسيقى تحدث فيهم تأثيرا يسمونه (السحر المباح).»

ويطرح البرت حوراني في مقالة له مصطلحا يصف اللغة العربية بأنها «المرآة المشوهة التي يرى العرب العالم من خلالها،» ويستمر بالقول بأن اللغة العربية تحمل معها «مخيلة خاصة» وأن:

«العرب يحبون الكلمات الصافية الرنانة لأسباب ذاتية، ويهتمون بالشعر والبلاغة أكثر من الفنون الأخرى. إنهم يحبون الإيماءات البطولية ويميلون إلى رؤيتها تفعل فعلها فيهم، باعتبارها تجسيدا لحدث لا حلقة في سلسلة (سبب ونتيجة). ومن الصعب شرح نظرتهم إلى العالم؛ فهي تعتمد على نظرية (الأبيض والأسود). ومن خلال اللغة والمخيلة مرة أخرى يأتي نظام أخلاقي يمجد الفضائل البطولية: الإخلاص للصديق والعائلة والقبيلة، الإحساس بشرف العائلة والنفس، وحسن الضيافة، وشهامة الرجل القوي الذي لا يصر دائما على أخذ حقه.»

ويذهب بعض الكتاب إلى حد الافتراض بوجود علاقة داخلية بين اللغة والرجولة تقوم على أن: الرجولة القوية تترابط مع البلاغة القوية. وهذا ما يراه أحمد حسن الزيات في كتابه

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

(دفاع عن البلاغة).

سأورد الآن ملاحظة لغوية استنتاجا من تلك الآراء حول اللغة العربية: إن الكلمة العربية (البلاغة) مشتقة من الفعل (بلغ) الذي يعني (الإنجاز أو الدخول في مرحلة البلوغ). ومن هنا تكون البلاغة بالنسبة للعرب إنجازا يشابه الوصول إلى مرحلة الرجولة. ومن نفس الجذر اللغوي تأتي كلمة (مبالغة). وفي العقل العربي توجد علاقة ما بين البلاغة والمبالغة. وليست هذه العلاقة بالمعنى الحرفي للمبالغة إنما تنتج من التساوي في التأثير الذي يحدثه كلا الأسلوبين فحسب.

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

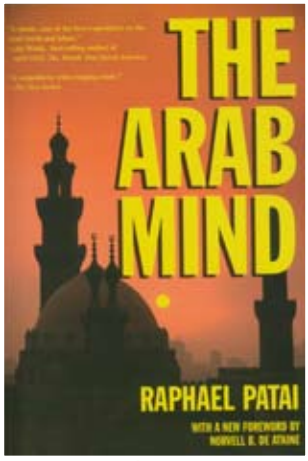

العقل العربي 16

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

4. المبالغة والتوكيد والتكرار

البلاغة والميل للمبالغة اللفظية ظاهرتان تبدوان شديدتي الصلة فيما بينهما. ففي اللغة الانكليزية تقود البلاغة إلى المبالغة في بعض سياقات اللغة. ويلاحظ ذلك في المبالغة التي تشوب لغة التصريحات والانتقادات والمطالب والمخططات التي يتفوه بها الذين يتعصبون للغة الانكليزية. أما في اللغة العربية فإن البلاغة العظيمة تترافق مع ميل أعظم لاستخدام المبالغة، ثم يليها في مجال الخطب استخدام التوكيد.

إن من تسنح له فرصة الاطلاع على أنماط الخطب عند العرب، بمن فيهم الأغلبية الأمية في القرى والقبائل المترحلة، ينصدم بالسيادة غير الطبيعية التي تمارسها اللغة عليهم بحيث يكون ذلك إحدى ميزاتهم. وتعبر هذه السيادة عن نفسها في استخدام خزينة لغوية ثرية بالإضافة إلى الإلمام بعدد هائل من العبارات الحكيمة شديدة التعقيد واللجوء المستمر إليها. وعند المقارنة مع بلاغة أبسط أمي عربي، تبدو اللغة الانكليزية التي ينطق بها شخص أمريكي عادي نوعا من الهمهمات المتناثرة.

تترافق سيادة اللغة العربية مع خاصتين اثنتين. الأولى هي الإسهاب الأسلوبي، والثانية هي المبالغة والتوكيد. وبما أننا لا نناقش هنا الإسهاب الأسلوبي، فيكفي مثالان لتوضيح صورة عنه؛ ففي سوريا تستعمل لتوجيه الشكر (بالانكليزية «Thank You») عبارة «كثّر خيرك» وهي اختصار وتحول للعبارة الفصيحة «الله يكثّر خيرك.» وعند الدعاء بالشفاء (بالانكليزية «Speedy Recovery») يقول العرب «ما عليك إلا العافية إن شاء الله.» ويكفي هذان المثالان لإعطاء صورة بسيطة للقارئ الذي لا يعرف العربية حول الجودة الفاخرة

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

للأساليب اللغوية العربية.

إن من يعتاد على التعبير عن أفكاره باستخدام مثل هذه العبارات الجاهزة (وثمة الكثير أكثر تعقيدا منها) والتي تتطلب استخدام ما لا يحصى من الأمثال والأقوال، لا يمكن الحؤول دون أن تقوده اللغة إلى استخدام المبالغة والتوكيد، وذلك بالمقارنة مع اللغات الأخرى (الانكليزية بخاصة). فالناطق بالانكليزية يجد العبارتين العربيتين السابقتين أكثر تأكيدا بكثير من العبارتين المختصرتين والجافتين اللتين تقابلهما في لغته. أما الناطق بالعربية فيعتبر عبارتيه المنمقتين أمرا عاديا جدا. وإليك مثالا ثالثا تبدو فيه المبالغة أشد وضوحا؛ إذ تستعمل لإبداء شعور الاشتياق (بالانكليزية «We Missed You») العبارة العامية «اوحشتنا» من الجذر (وحش: البرية، الصحراء، الكآبة، الغم).

عندما يلتقي أمريكيان صباحا، سيقول الأول: «صباح الخير (Good Morning).» فيرد الآخر بالعبارة نفسها. أما عند العرب فالحساسية اللغوية تستاء من الإجابة بالتكرار، حيث قضت العادة بأن العبارات المهذبة ينبغي الرد عليها بعبارات أكثر إسهابا؛ فإذا التقى عربيان صباحا وقال الأول: «نهاركم سعيد» ينبغي على الآخر أن يرد: «نهاركم سعيد ومبارك.»

من السهل طرح أمثلة تبين كيف غزت المبالغة والتوكيد كافة استعمالات اللغة لتصل إلى التصريحات والنقاشات السياسية. ففي عشية حرب 1948 قام موسى العلمي، القيادي الفلسطيني المعروف، بجولة جاب فيها العواصم العربية ليستصرخ القادة العرب الذين كان يعرفهم جيدا. في دمشق قال له رئيسها آنذاك: «يسعدني أن أخبرك بأن جيشنا ومعداته على أتم الاستعداد وسيكون قادرا على التعامل مع ثلة من اليهود؛ وإني أقول لك بثقة بأننا نمتلك حتى القنبلة النووية... نعم، لقد صنعت محليا؛ إذ عثرنا على صديق ذكي جدا يعمل سباكا.» وفي العراق أخبره رئيس الوزراء بأن «كل ما يلزم هو <بعض المكانس> لإلقاء اليهود في البحر.» وفي القاهرة أكد له أحد المقربين من ملك السعودية بأنه «ما أن نحصل على الضوء الأخضر من البريطانيين فسنتمكن من طرد اليهود بسهولة.» إن ما

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

جمع بين هذه التأكيدات اللفظية هو كونها عبارات شديدة المبالغة بالنسبة لما نوى أو أمل العرب بفعله. وكذلك لما أيقنوا بأهم قادرون على فعله حالما يبدؤون قتال اليهود؛ أما في الواقع: لم تلِ هذه العبارات جهود جادة أو داعمة لترجمتها إلى أفعال.

وثمة نمط آخر للمبالغة اللفظية يتمثل في الإشارة إلى أحداث يتمنى المتكلم حدوثها باعتبارها حقائق واقعة. ففي خريف عام 1964 قامت دانا آدم شميدت (Dana Adam Schmidt)، مراسلة صحيفة نيويورك تايمز، بزيارة اليمن التي كانت في خضم حرب أهلية؛ إذ كان أنصار الملكية الذين تدعمهم السعودية يقاتلون أنصار الجمهورية الذين يدعمهم الجيش المصري. ومع أن الدعم العسكري المصري -كما كتبت شميدت-:

> «كان في الحقيقة محبطا على الدوام، فإن المصريين أصروا على تجاهل كافة النكسات التي تعرضوا لها وزعموا تحقيقهم انتصارات باقتناع هائل إلى حد جعلهم يقنعون أنفسهم وربما بعض اليمنيين بذلك. لقد اندهشت، مثلا، من الثقة الكبيرة التي جعلت العقيد حسن علي كمال، قائد العمليات، يدلي إليّ بتصريحات كنت أعلم بعدها عن الحقيقة. وكانت التصريحات كالتالي: أن قبائل قارة انقلبت على الإمام وطردته من المنطقة، وأن القوات المصرية تتجول على الحدود السعودية وهي تمتطي الجمال، وأن المصريين فقدوا ثلاثة قتلى فقط في هجوم شهر أغسطس على منطقة حرض، وأن الأمير عبدالله حسن في خولان قد تعرض للضرب المبرح من القبائل التي رفضت العمل معه.»

إن الآلية النفسية التي أنتجت هذه التأكيدات الباطلة شبيهة بالآليات النفسية التي تنتج الحلم النمطي بتحقيق الأماني: الرغبة الجامحة بأن يحصل حدث ما، أو أن يتحقق وضع ما. وهذه الرغبة تنتج عبارة لفظية (استجابة للحلم) يتمثل الحدث المنشود من خلالها بصورة حقيقة ناجزة.

يقترب هذا التفسير من التفسير الذي حصلتُ عليه في مقابلة مع نائب وزير الصحة

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

في الحكومة الإسرائيلية، عبد العزيز زعبي، في مدينة القدس؛ حيث رأى زعبي أن الرغبة في المبالغة عند العرب هي إحدى صفاتهم السيئة، وقال:

«تقوم قلوبنا بأداء مهام عقولنا... إننا نبالغ في الحب والبغض كليهما. إننا عاطفيون ولسنا محللين محايدين، ونبالغ في الشرف على حساب الحاجة الحقيقية. إننا نرغب نرغب برؤية أمور معينة ثم نعتقد بأنها حقيقية.»

تنبثق جذور الكثير من مسببات الميل إلى المبالغة والتوكيد من اللغة العربية نفسها. ومن المعروف جيدا أن الفعل في اللغة العربية له عدة صيغ وتصاريف تأكيدية. وكثيرا ما تستعمل أدوات التوكيد في بداية الجمل العربية، مثل (إن) في قولهم «إن هنا رجل.» والاستعانة بطرق أخرى مثل إضافة (ذا) إلى (ما) الاستفهامية في قولهم «ماذا فعلت.» وإضافة ضمير الغائب بين المبتدأ والخبر في قولهم «الله هو الحي.»

ويلقي استعمال الصفات -بخاصة- ضوءا على هذه القضية. فعلى العكس من اللغة الانكليزية التي تمتلك ثلاثة أنواع من الصفات (بسيطة ونسبية ومطلقة)، لا يوجد في اللغة العربية سوى نوعين من الصفات (بسيطة وما يطلق عليه «صيغة أفعل التفضيل» والتي تتضمن الصفتين النسبية والمطلقة في صيغة واحدة) وفي ذلك تشترك مع الفرنسية التي تستعمل صيغة واحدة للصفتين النسبية والمطلقة. ويمكن في اللغة العربية استعمال الصفة البسيطة للتعبير عن الصفة المطلقة مثل قولهم «كبير الناس» التي تعني (أكبر الناس)، كما يمكن استعمال صيغة (أفعل) للتعبير عن صفة بسيطة مثل قولهم «الله أكبر» التي تعني أن (الله أكبر من كل شيء) حرفيا وتعني أن (الله كبير) مضمونا. إن استعمال صيغة (أفعل) للدلالة على صفة بسيطة تشير إلى وجود ميل إلى التعبير التأكيدي. والنية هنا تتجه أساسا إلى صياغة جملة بسيطة ولكن على أساس تأكيدي ولهذا يستعاض بصيغة (أفعل) بدلا من الصيغة البسيطة للصفة. ومن الواضح أن صيغة (أفعل) لا تقتصر على معاني صيغة المقارنة والصيغة المطلقة وإنما ما يمكن

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

اعتباره «توكيدا.» ومن هنا، يمكن لعبارة «الله أكبر» أن لا تعني (الله كبير) و(الله أكبر من...) و(الله أكبر من كل شيء) فحسب، وإنما لتعني أيضا المعنى التأكيدي (الله كبير جدا).

إن صيغة أفعل تستعمل عادة لتضخيم العبارة، وفي مثل هذا السياق تأتي الصيغة المطلقة من أجل تضخيم المعنى الأساسي للصفة، وليس للدلالة على الدرجة العالية الخاصة للنوعية التي تعبر عنها الصفة. وفي القرآن مثال على هذا في سورة الزمر (الآية 35): {ليكفِّر اللهُ عنهم أسوأَ الذي عملوا ويجزيَهم أجرهم بأحسنِ الذي كانوا يعملون}. فالتفسير الحرفي لكلمتي (أحسن) و(أسوأ) باعتبارهما صيغتين مطلقتين لا يؤدي المعنى المطلوب، وإنما يجب اعتبارهما مجرد صيغتين تضخيميتين للصفتين (حسن) و(سيئ).

ثمة أسلوب آخر للتوكيد يتمثل في الميل إلى التكرار. فحينما يرغب العربي بترك انطباع لدى محاوره بأنه عازم على أمر ما، فإنه سيكرر ذكر ما يهم بالقيام به مستخدما سلسلة من التأكيدات المكررة التي تتصاعد نبرة تأكيدها مع القليل من الاختلاف في الأسلوب. وخذ مثالا على ذلك اتخاذ قرار إعلان قيام الطيران الأمريكي والبريطاني بمساعدة إسرائيل وقصف مصر في حرب 1967. ففي مكالمة هاتفية موجزة بين الرئيس المصري جمال عبد الناصر وملك الأردن الحسين بن طلال اتفقا فيها على القرار، كرر عبد الناصر مقصده 4 مرات على الأقل، بصيغة أكثر تأكيدا في كل مرة:

1. حسنا، الملك حسين سيصدر بيانا رسميا حول الأمر وسأصدر البيان ذاته...
2. إذن، جلالتكم ستصدرون بيانا حول التدخل الأمريكي والبريطاني...
3. ليشهد الله عليَّ، إني أقول لك أني سأصدر بيانا وأنت ستصدر بيانا. وسنرى أن السوريين سيعلنون تعرضنا لهجوم الطائرات الأمريكية والبريطانية التي تنطلق من حاملات الطائرات.
4. إذن سنصدر هذا البيان، وسنؤكد على هذه النقطة وسنفعل ذلك سوية.

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

وفي نبأ موجز أذيع من القاهرة عام 1957 مثال آخر على التكرار:

«تفاصيل الأنباء: التقى الرئيس جمال عبد الناصر اليوم مع وفد الأساتذة والطلبة السوريين الذين يزورون مصر حاليا لتقوية العلاقات الثقافية بين البلدين. وألقى الرئيس فيهم خطابا تحدث فيه عن مؤامرات المستعمرين على القومية العربية. وقال أن القومية العربية هي الدرع الواقية التي ستدافع عن الدول العربية ضد مؤامرات المستعمرين وطموحات الطامعين. وأضاف أن مصر، بما أنها تطالب بالقومية العربية وأعلنت أنها جزء من الأمة العربية، وانتبهوا هنا، فإنها شعرت شعورا عميقا بذلك، وشعرت بأن العرب إن كانوا متحدين فسيتمكنون من الانتصار على المستعمرين، وإن كانوا متفرقين فسيكونون لقمة سائغة للطامعين والغزاة. وقال الرئيس: إن هدف القومية العربية هو تحقيق المصلحة التعاونية، والمصلحة المشتركة، والحماية، التي سنعمل جميعا لبلوغها، ضد الطامعين والمعتدين والمستعمرين.»

إن الصفات التكرارية والتوكيدية لهذا «الموجز» تصبح أكثر وضوحا عندما نحلله ونجد أنه ذكر المستعمرين والاستعمار 4 مرات، والقومية العربية 4 مرات بالإضافة إلى مرتين ذكر فيهما الدول العربية ومرة ذكر فيها العرب، والطامعين 3 مرات، والشعور 3 مرات (فعلان واسم)، والحماية مرتين، والمؤامرات مرتين. ويكمن جانب آخر للتكرار والتوكيد في الاستعمال المتكرر لعبارتين متشابهتين الواحدة تلو الأخرى من أجل التشديد على الفكرة الوحيدة المتماثلة، مثل: «مؤامرات المستعمرين وطموحات الطامعين» و«الطامعين والغزاة» و«المصلحة التعاونية، والمصلحة المشتركة»؛ أو استعمال ثلاثة عبارات، مثل: «ضد الطامعين والمعتدين والمستعمرين» أو تكرار العبارة نفسها، مثل: «شعرت شعورا عميقا بذلك، وشعرت....»

ومثال ثالث نأخذه من مقال كتبه كمال الدين حسين، وزير التعليم في الجمهورية

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

العربية المتحدة. وكان المقال جزءا من مجموعة أوراق ناقشت العام 2000 ونشرت عام 1959 في مجلة الهلال القاهرية. وقام جمال عبد الناصر بكتابة مقدمة العدد ثم تلا هذه المقدمة المقال المذكور باعتباره أولى المواد. وجاء مليئا بالتكرار كما تبين ذلك الأمثلة المأخوذة من صفحتين وحسب:

«اليوم يمكن رؤية عظمة وتألق الثقافة العربية على مدى بعيد وواسع» (ص312).

«إننا بالفعل نمتلك حضارة عربية يمكن رؤية عظمتها وتألقها على مدى بعيد وواسع» (ص313).

«إن الحضارة العربية اليوم تختلف شيئا ما عما اعتدنا أن نطلق عليه <علم العرب>» (ص312). لم يكن <علم العرب> ما تمت دراسته سابقا» (ص313).

«سابقا كان كل ما يعرفه العرب هو الحلال والحرام مع القليل من الأدب وعلم اللغة والتاريخ...» (ص312). «في الماضي كان العرب سادة علم ما أحله وحرمه الله وفنون اللغة والأدب والتاريخ.» (ص312). «هنالك مجال فيها [الحضارة العربية] لعلم ما أحله الله وحرمه.» (ص313).

«[الثقافة العربية] يجب أن تتقدم وأن لا تفتر همتها حتى تلحق وتتجاوز الثقافة [الأوروبية] التي تغلبت عليها. يجب عليها أن تلحق بها وتتجاوزها.» (ص312-313). «وهكذا سنتغلب على أوروبا» (ص313).

لقد تمكن بعض الكتاب العرب من إجادة اللغات الأوروبية بما في ذلك مفرداتها وقواعدها وأساليبها وحتى روحها. لكن كثيرا منهم واجهتهم الصعوبات التقاليد اللغوية العربية المتمثلة في المبالغة على الرغم من كتابتهم بلغة أوروبية. ومثال على ذلك ما كتبه مصطفى لاشيراف، وهو قيادي في جبهة التحرير الوطني الجزائرية وناشر معروف ومختص في التاريخ، وهو -بالطبع- يكتب بالفرنسية كما يفعل معظم المثقفين الجزائريين.

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

لكن كتابته بالفرنسية لم تحرره من أسلوب المبالغة التقليدي؛ حيث كتب مثلا: «هاهنا المفارقة: معظم الجزائريين يقرؤون ويكتبون قليلا بالفرنسية، ناهيك عن العربية. ومع ذلك يدعون بأن لهم جذورا في ثقافة ذات تاريخ عريق حوّلها الاستعمار إلى خيال.» إن لاشيراف يعلم جيدا أن «معظم الجزائريين» أميون (92% وقت كتابة المقال 1954) وكان عليه أن يقول: «معظم الأقلية المتعلمة من الجزائريين الأميين. تكتب وتقرأ قليلا بالفرنسية...» ولكن تركيزه كان منصبا على توضيح قصده فاستعان دون وعي بالمبالغة وكتب عوضا عن ذلك: «معظم الجزائريين يقرؤون ويكتبون قليلا بالفرنسية...» مع أن هذه العبارة خاطئة بوضوح.

وفي مقالة للكاتب شوبي (E. Shouby) حول التأثير النفسي للغة العربية على العرب؛ أورد شوبي ملاحظات متبصرة حول التأثيرات الفينومينولوجية (الظواهرية) والنفسية الناجمة عن التوكيد والمبالغة. ففي قواعد اللغة العربية توجد صيغ فعلية خاصة للتعبير عن تأكيد إضافي، وتوجد كلمات واصلة تعمل لنفس الغاية، بالإضافة إلى أدوات نحوية وصرفية أخرى. أما في ميدان الأسلوب؛ فهناك الاستعارة والتشبيه، واللذان يستعملان بكثرة، ولهما نفس التأثير الذي يشترك فيه معهما أسلوب التكرار الذي يمثل إحدى خواص الأسلوب اللغوي العربي.

ومع أن هذه المميزات القواعدية والأسلوبية لا تشكل معضلة في التواصل ما بين العرب، فإنها تمثل عائقا في التواصل ما بين العرب وغيرهم (الغربيين بخاصة)، ولا يختلف العائق سواء إذا كان التواصل عن طريق مترجم أو كان أحد الطرفين على معرفة بلغة الآخر. فالمعنى الحرفي لكلمة أو عبارة في لغة ما ربما يختلف عن أهميتها الحقيقية. وأذكّر هنا بالنكتة الشائعة: إذا قالت امرأة «لا» فهي تعني «ربما.» وإذا قالت «ربما» فهي تعني «نعم.» وإذا قالت «نعم» فهي ليست امرأة. والقصد من وراء أول جزأين من العبارة هو أن المعنى الحقيقي للكلمات التي تتلفظ بها المرأة يختلف أحيانا عن معنى نفس الكلمات في سياق الاستعمال اليومي.

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

وعلى نحو مشابه، يمكن أن لا تعني موافقة بسيطة من عربي -بالنسبة له- أكثر من شكل مؤدب من أشكال التملص، بينما قد تعني هذه الموافقة التزاما أكيدا تاما بالنسبة لمحاوره الانكليزي. وإذا أراد العربي أن يعقد التزاما ما، فسيستعمل المبالغة والتوكيد، بالإضافة إلى التكرار، وهو ما سيبدو غريبا في أحسن الأحوال. وتظهر هذه الصعوبة نفسها في الحالة المعاكسة أيضا؛ فمجرد قول «نعم» أو «لا» يعتبر عبارة قاطعة لدى المتحدث الانكليزي، لكن محاوره العربي، وبتأثير من المبالغة والتوكيد الكثير في لغته الأم، لا يتمكن ببساطة من فهم عبارة موجزة وبسيطة كهذه بنفس الإحساس. فبالنسبة له تعتبر «نعم» تعني «ربما» فحسب (أما «لا» فلها نفس المعنى القاطع لدى اللغة الانكليزية). ولن يكون العربي قادرا على ادراك ما يعنيه محاوره الانكليزي بكلمة «نعم» على وجه الحقيقة إلا إذا قال له: «نعم، إني أكلمك جازما. نعم، أضمن لك بالتأكيد وأشدد على ذلك. نعم، إن جوابي بشكل مبرم ونهائي هو نعم.»

طرح شوبي مثالا يرسم صورة للصعوبات التي قد تظهر أثناء التواصل ما بين أشخاص ينتمون إلى تقاليد لغوية مختلفة؛ وهو عن فتاة انكليزية وفتى عربي أخبراه عن العلاقة التي تربطهما:

> «اشتكت الفتاة من أن صديقها العربي، (أولا) كان يلح عليها بالتماساته وإعلاناته بحبها، وأنه (ثانيا) كان يرفض الاكتفاء بكلمة «لا» عندما أوضحت له بشكل كامل أنها غير مهتمة به على الإطلاق. أما الفتى العربي فأفضى بسره حيث قال أن الفتاة الانكليزية (أولا) كانت تشجعه على ممارسة الجنس معها، وأنه لم يبد لها حتى الآن إلا القليل من الاهتمام والإعجاب. لقد كان كلاهما دقيقا في صراحته صدقه حتى بالنسبة لذاتيهما الواعيتين، لكنهما لم يعلما ما التضاد الذي يمكن أن ينشأ ما بين التوكيد الكثير عند العرب وبين اللباقة والتلميح عند الانكليز.»

استنتج شوبي أن «العرب مجبرون على استخدام التوكيد والمبالغة في كافة أنماط

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الاتصال تقريبا» إذا كانو يرغبون في التأكد من أنهم لم يسأ فهمهم. وكان هذا الاستنتاج عرضة لفحص شامل أجراه بروثرو (Prothro) الذي قام بإجراء استبيان على حوالي 140 طالبا في لبنان. وقارن النتائج المستحصلة مع نتائج لطلاب أمريكيين. فخرج باستنتاج مفاده «إن العبارات التي تبدو للأمريكيين شديدة من حيث الترغيب والنفور, تبدو للعرب محايدة.» وهذا قاد بروثرو إلى أن يصوغ نظرية تفترض أن الطلاب العرب «أكثر ميلا لاستخدام المبالغة من الطلاب الأمريكيين.» وأن «الطلاب في العالم العربي إما أن يكونوا أكثر عاطفية من أقرانهم الأمريكيين. أو أنهم أكثر عاطفية فيما يتعلق بالحكم على الناس.» وكان لبروثرو نصيحة مقنعة لكل من يرغب بنقل وجهات نظر العرب إلى الأمريكيين أو العكس. وهي أن «يتذكر دائما أن العبارات التي تبدو عبارات حقائق مجردة بالنسبة للعرب. إنما تبدو تأكيدة مفرطة وحتى عنيفة بالنسبة للأمريكيين. وإن العبارات التي يستخدمها العرب لإظهار الحزم والقوة لنفي أو تأكيد أمر ما. قد تبدو للأمريكيين مبالغا فيها.» وأن:

> «الذين يرغبون بعرض وجهة النظر الأمريكية للمتعلمين العرب يجب أن ينتبهوا إلى أن العبارة التي تبدو تأكيدا حازما بالنسبة للأمريكيين قد تعطي انطباعا ضعيفا وحتى ظلالا من الشك عند القارئ العربي. عندما يجري التواصل ما بين شعبين ينتميان إلى ثقافتين مختلفتين. لا ينبغي الانتباه إلى مشاكل الترتيبات اللغوية فحسب. وإنما إلى مشاكل الثقافة والإدراك.»
>
> (بروثرو. الاختلافات ما بين العرب والأمريكيين في الحكم على الرسائل المكتوبة. مجلة علم النفس الاجتماعي.)

ولاحظ دارسون من العرب. أيضا. الميل العربي للمبالغة وهاجموه بكلمات ناقدة حادة. حيث كتب سالم اللوزي. رئيس تحرير أسبوعية الحوادث اللبنانية. مقالا في 16 يونيو 1972 بمناسبة مرور 5 أعوام على حرب حزيران 1967. وانتقد فيه قيام وسائل الإعلام العربية بتغذية الوعي العربي بتخيلات تافهة ومبالغات في استذكار ما جرى صيف عام 1967.

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©

الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

وإليك ملاحظة حكيمة أخرى حول الطريقة التي ينظر بها العرب الحداثيون المتعلمون في الغرب إلى الميل العربي لاستخدام المبالغة اللفظية، وهذه الملاحظة حصلت عليها من الدكتور سامي فرح غيرايسي، وهو ضابط مراقبة المدانين الطلقاء في الناصرة. ويربط غيرايسي بين هذه الخاصية والاستقلال الشخصي الذي ميّز حياة الفرد العربي، ويقول:

> «الدقة ظاهرة تعود للمجتمع الصناعي؛ إذ عليك أن تذهب للعمل في وقت محدد، وأنت مرتبط بآلة لا تتحمل انعدام الدقة، وتعيش في عالم ليست فيه علاقات شخصية، وعليك أن تكون دقيقا في ما تقول وتفعل. لكنك إذا كنت مستقلا، كأن تكون فلاحا يعمل في حقله الخاص، فأنت تذهب وتعود حينما تشاء، وتتكلم كيفما تشاء. إن المبالغة اللفظية والإسهاب والخيال تجعل المرء أكثر حرية. وعندما يكون لدى الناس وقت فراغ أكثر مدة، فسيملؤونه بالحوارات الطويلة والتحيات المفصلة وهذا يقود إلى المبالغة. ومن وجهة نظري الخاصة، فإن المبالغة ظاهرة ثقافية ذات جذور اقتصادية اجتماعية، وعلى نحو مشابه، تكون المفاخرة تعويضا عن أمر مفقود. وما أن تأتي البراعة التقنية، فستصاحبها الدقة حتما. وحينئذ سيتغير ويزول الكثير، بما في ذلك المبالغة.»

على الرغم من أن وقت الفراغ وظروف العمل المستقل لا تفسر الميل للمبالغة، فإن تحليل غيرايسي ذو قيمة تنبع من تقديمه للمبالغة باعتبارها ظاهرة عضوية متصلة بالأحوال الاجتماعية الاقتصادية للعرب. ويمكننا، حتما، أن نمضي مع هذا التشخيص بقناعة كاملة لنرى النظام التقني الاقتحامي، عاجلا أم آجلا، وهو يعلن نهاية ذاك التقليد الخاص لدى العرب وهو المبالغة.

من كل ما سبق ألخص الحصيلة النهائية بالتعميمات الآتية: خلال عملية تعلم اللغة العربية، لا يكتسب الطفل العربي ألفاظا وقواعد فحسب، إنما يضيف إلى ذلك الأسلوب بما فيه من أدوات مميزة تعرف بالمبالغة والتوكيد. ثم سريعا ما يصبح اللجوء لاستخدام هاتين

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

الأداتين أمرا طبيعيا كاستخدام الألفاظ والقواعد. وهذا يعني أن العربي من العامة حينما يستخدم المبالغة والتوكيد، فإنه في الواقع لا يعي، مطلقا في الغالب، أنه يستخدمها. ففي عقله، وعقل محاوره العربي، ليست المبالغة والتوكيد غير عبارات بسيطة. وعندما يكون الحال هكذا، على الباحث أن يكون شديد الحذر عند ملاحظته لمضامين نفسية في أسلوبي المبالغة والتوكيد عندما يتم تقديمها مترجمة بلغة انكليزية جافة، سواء أكانت بريطانية أم أمريكية.

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

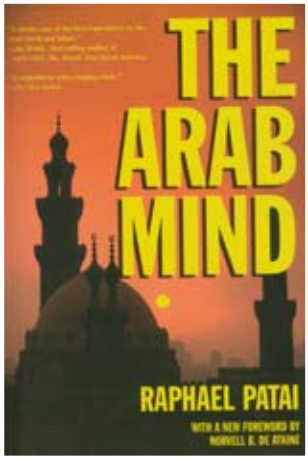

العقل العربي 17

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

5. الأقوال عوضا عن الأفعال

اقترحتُ سابقا أنه ربما توجد صلة ما بين تقليد رضاعة الولد عند الطلب اللفظي وبين توقعات نشأة هذا الولد. وهذه الصلة تتشكل وتفرض في عقل الطفل كنتيجة لخبرته الناشئة من التلبية الأكيدة لحاجته حينما يؤكد عليها لفظيا. كما هو الحال في ميل البالغين من العرب إلى التأكيد اللفظي على المطالب والنوايا دون أن يتبعوا ذلك بأفعال. وهنا أود أن أضيق نقطة أخرى إلى صورة أساليب تنشئة الطفل عند العرب والتي يبدو أنها تنتج أثرا دائما في عملية تشكيل الشخصية العربية. وهذه النقطة هي الدور الذي تلعبه التهديدات اللفظية في التهيئة الاجتماعية المبكرة عند العرب.

أشرنا في الفصل السابق إلى دراسة قام بها الباحث بروثرو (Prothro) حول أساليب تنشئة الطفل في لبنان، وفيها تبين أن الأمهات من العرب السنّة كثيرا ما يلجأن إلى التهديد في سبيل ضبط أطفالهن ولكنهن يفشلن في تنفيذ هذه التهديدات. ففي بعلبك، وهي أكبر مدينة مسلمة في سهل البقاع، قالت 88٪ من الأمهات أنهن يستخدمن التهديد دائما ويفشلن في تنفيذه. وفي العاصمة بيروت أجابت 52٪ من الأمهات المسلمات بنفس الإجابة. ومن المثير للاهتمام أن الدراسة لم تظهر انخفاضا كبيرا في هذه النسبة لدى الأمهات المسيحيات فحسب، إنما كشفت علاقة معاكسة ما بين العاصمة ومدن الريف: فأصبحت نسبة اللجوء للتهديد اللفظي 28٪ فقط عند أرثوذكس الوادي (في مدينة زحلة)، و36٪ عند أرثوذكس بيروت؛ و16٪ عند أرمن الوادي (في قرية عنجر)، و35٪ عند أرمن بيروت.

من المقبول عقلا أن الأشخاص الذين يتعرضون في طفولتهم لتهديد كثير بعقوبة

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

لا تنفذ، سيلجؤون إلى نفس الآلية عند بلوغهم. وهذا بالضبط نمط من أنماط السلوك العربي الذي يتوضح بالدراسة. وفي الواقع، فإن التقليد العربي المتمثل في محاولة تهديد العدو بتهديدات لفظية يشكل ميزة شائعة للشخصية العربية لا تخفى على المراقب عربيا كان أم أجنبيا. وكمثال على ما سبق، نذكر إجابة نائب وزير الخارجية المصري، صالح جوهر، على سؤال وجهه كبير محرري مجلة (تايم)، رون كريس، حول معنى التصريحات التهديدية ضد إسرائيل؛ حيث أجاب جوهر: «عندما يتجادل العرب، يصيح كل من طرفي الجدال على الآخر من الرصيف المقابل، <سأقطعك إلى أشلاء>، و<لن تعيش إلى الغد>، وبعد ربع ساعة، يمشي كل في طريقه دون أن يتعرض أحد للأذى. وهذا ما لا يفهمه الإسرائيليون.» كما يناقش د. صادق جلال العظم ظاهرة النقد الذاتي العربي التي تلت حرب حزيران 1967، فيقارن سلوك الروس قبل الحرب الروسية اليابانية عام 1904 مع سلوك العرب عام 1967: حيث انهمك الطرفان في توجيه تهديدات فارغة وتفاخرات تافهة. حيث هدد الروس بأنهم سوف «يلقون هؤلاء الآسيويين الوقحين في البحر» أو «يدفنونهم تحت قبعاتهم» وما شابه ذلك من الكلام. وأشار العظم إلى أن مفاخرات وتهديدات مشابهة يمكن ملاحظتها في كتابات وزير الإرشاد القومي المصري، محمد حسنين هيكل، التي نشرها في صحيفة الأهرام شبه الرسمية خلال الأيام التي سبقت الحرب.

إن التهديدات اللفظية التي لا يؤثر التلفظ بها على واقع عدم تنفيذها، ليست سوى إفراز من إفرازات خاصية الاستعاضة عن الأفعال بالأقوال، والصياغة اللفظية لنية أو طلب دون إتباع ذلك بفعل ما. فبتأثير من خبرة الطفولة في تلقي تهديدات لا تنفذ، يقوم العربي البالغ بتوجيه تهديدات وطلبات ونوايا لا ينوي تنفيذها، لكنه يجد فيها، حين لفظها، استرخاء في توتر عواطفه وراحة نفسية بالإضافة إلى تخفيف الضغط الناجم عن الحاجة إلى القيام بفعل ما لتحقيق الهدف المذكور لفظا. وفي ما يلي عدة أمثلة تظهر كيف يفعل هذا الميل فعله في حلبة السياسة. ولنبدأ أولا بقضيتين متصلتين بالموضوع يشرحهما الحسين بن طلال، ملك الأردن.

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

يقول الملك حسين حول مؤتمر قمة القاهرة الأول عام 1964، أن المؤتمر كان «بالنسبة لكثير من العرب خدعة قاسية. وذلك لسبب وجيه! إذ أصر الجميع على أن <الإسرائيليين إذا ما حولوا مجرى مياه نهر الأردن، فسيشهر العرب أسلحتهم فورا لمواجهتهم.> لكن شيئا مماثلا لم يحدث. فعندما شرع الإسرائيليون بتحويل مجرى مياه نهر الأردن، اتجه الجميع إلى جمال عبد الناصر،» والذي بدوره دعا إلى مؤتمر القمة الأول، والذي تلته قمتان أخريان، دون التوصل إلى اتفاق.

وإليك مثالا آخر على المغالاة في تقييم الكلمات ونزعة الاستعاضة عن الأفعال بالأقوال، من خلال تقييم الملك حسين للقائه بالرئيس المصري جمال عبد الناصر في 30 مايو 1967. ففي ذلك اليوم وعلى الرغم من «الإهانات التي بثتها إذاعة القاهرة على مدار العام الفائت،» سافر الملك حسين للقاء عبد الناصر. وخلال الاجتماع، وبعد التغلب على التوتر وانعدام الثقة في بدايته، اقترح عبد الناصر توقيع اتفاقية «فورا بين بلدينا في هذا المكان.» وبدوره طلب الملك حسين من عبد الناصر أن يرسل من يحضر ملف الاتفاقية الدفاعية الموقعة ما بين مصر وسوريا والتي ربطت البلدين منذ أبريل 1967. يقول الملك حسين: «كنت شديد الحرص على التوصل لاتفاق ما لدرجة أنني أزحت الاتفاقية جانبا وقلت لعبد الناصر: <أعطني نسخة أخرى. ضع الأردن عوضا عن سوريا وبذلك نصل إلى تسوية.> وفي جو من الراحة والمودة، وافق عبد الناصر، وبعد قليل قمت بالتوقيع.»

إذا أمعنا النظر بعقلانية إلى هذه الحادثة، فإن توقيع اتفاقية دفاعية ثنائية بين قائدي بلدين كانا لتلك اللحظة في أعلى درجات العداء، لا يمكن تفسيره سوى أنه بادرة حسن نية. وتشير حقيقة كون الاتفاقية وقعت في لحظة عابرة، ودون قراءة وافية من الملك حسين بعد استبدال «الأردن» بـ«سوريا»، إلى أن النية كانت أساسا تتجه نحو إصدار بيان للاستهلاك العام. وفي الواقع، كان تأثير توقيع الاتفاقية تماما كما كانت النية من ورائه. إذ بثت إذاعة القاهرة النبأ فورا، وفي مساء اليوم ذاته (30 مايو)، عاد الملك حسين إلى عمان، حيث استقبله «انفجار لا يوصف من الفرح الشعبي.» وعندما خرج من الطائرة «حيّاه

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

آلاف المتظاهرين الذين اندفعوا خلال بضع ساعات من كل ركن في عمان. وللتأكيد على سعادتهم رفعوا سيارته مرارا بشعور من الانتصار.» كما يقول زيد الرفاعي مدير المراسم والسكرتير الخاص للملك حسين الذي يضيف: «بدا لرجل الشارع أن الملك حسين تغلب على كل المعوقات التي فرضتها الخلافات العربية [والرفاعي يقصد هنا المعوقات التي تحول دون إنجاز الوحدة العربية]. وفي نفس الوقت، نجح في تنظيم الدفاعات الأردنية في مواجهة العدوان الإسرائيلي الذي نعتبره جميعا وشيك الوقوع.» وكما يظهر من هذه الأقوال، فإن الأمر لم يقتصر على «رجل الشارع» فحسب، وإنما تعداه إلى السكرتير الخاص للملك حسين، وحتى الملك حسين نفسه، للقبول بإعلان لفظي (وفي هذه الحالة، مكتوب) بديلا عن القيام بفعل ما. إن التوقيع المتسرع للوثيقة اعتُبر مساويا لنجاح فعلي في «تنظيم الدفاعات الأردنية.»

في الواقع، لم ينتج عن الاتفاقية الدفاعية أي دعم مصري للأردن باستثناء زيارة قام بها بعد يومين (1 يونيو) الجنرال المصري عبد المنعم رياض وطاقم من ضباطه لاستلام زمام قيادة القوات العربية في الجبهة الأردنية.

وفي تاريخ العراق الحديث أمثلة على ميل العرب للاستعاضة عن الأفعال بالأقوال. حيث يصف مجيد خدوري مطالبة العراق بالكويت عام 1961 قائلا: «تحدث عبد الكريم قاسم بصوت عالٍ لكنه لم يقم بأي إجراء.» وقال أيضا: «على الرغم من أنه ظل يكرر ادعاءه، فإنه لم يقم بأي تحرك لاستخدام القوة.» وفي مناسبات عديدة، أعلن قاسم أنه يعتبر الكويت «جزءا لا يتجزأ» من العراق وأنه ينوي إلحاق مشيخة الكويت بالدولة العراقية بالوسائل السلمية، مع أنه ظل يكرر أنه قادر على فعل ذلك باستخدام القوة. وفي مؤتمر صحفي، في 25 يونيو 1961، حيث أعلن لأول مرة ادعاء العراق تابعية الكويت، ألقى قاسم تصريحا حول الإجراءات الإدارية التي ينوي القيام بها عند إلحاق الكويت بالعراق. وبعد أن استعرض الصلات التاريخية للكويت بالعراق وادعاء تابعية أراضي الكويت للعراق باعتباره جزءا من محافظة البصرة، قال قاسم: «وفقا لذلك، سوف نصدر مرسوما بتعيين شيخ الكويت

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

قائممقام للبصرة ويكون تحت سلطة محافظة البصرة.» إن هذا التعيين كان ليكون بلا معنى بحسب اهتمام المشيخة في الكويت، ولكنه كان ليكون خطوة، وإن كانت تصريحا، بحسب اهتمام الوضع السياسي الداخلي في العراق. لكن قاسم لم يتجاوز تصريحه حتى بمجرد إصدار المرسوم، وكان جلّ ما فعله أن يصرّح بأنه، في وقت ما من المستقبل، «سوف» يصدر مرسوما. إن هذا، في الواقع، مثال تقليدي عن الاستعاضة بالأقوال عن الأفعال: فما فعله قاسم لم يتعدّ التصريح بأنه ينوي القيام بتصريح، وهذا التصريح، كما يعلم قاسم والمتابعون للقضية جيدا، سيبقى في إطار الكلمات، وذلك على ضوء الالتزام الكويتي بعدم التخلي عن الاستقلال الذي تدعمه بريطانيا.

وإليك مثالا آخر عن النزعة العربية لاعتبار الشروع بأمر ما إنجازا كاملا للأمر، ونأخذ المثال من المحاولة الانقلابية الفاشلة الثانية التي قام بها عارف عبد الرزاق، رئيس وزراء العراق عام 1965، ضد حكومة الرئيس عبد الرحمان عارف ورئيس الوزراء عبد الرحمان البزاز، صيف عام 1966. فما أن قامت مجموعة من الضباط بالسيطرة مؤقتا على محطات الإذاعة في أبوغريب وبغداد حتى بثوا بيانات باسم عبد الرزاق باعتباره رئيس مجلس قيادة الثورة الجديد. ويصف مجيد خدوري ما حدث (في كتابه: العراق الجمهوري) قائلا:

> أذيع بيان آخر أعلن نجاح الانقلاب ودعا عبد الرحمان عارف والبزاز إلى مغادرة مكتبيهما والعودة إلى بيتيهما. لكن هذه البيانات أوقفت وشجبت خلال ساعة ببيانات رسمية مضادة. وأعلن الرئيس عارف أن التمرد قُمع وأن المتمردين استسلموا.

وبعبارة أخرى، يمكن القول بأن المتمردين ما أن سيطروا على على منبر إعلامي حتى أعلنوا نجاحهم في إسقاط الحكومة.

إن وجود النية للقيام بعمل ما، أو التخطيط لعمل ما، أو النية للقيام بأول خطوة لإنجاز أمر ما، هي بدائل عن إنجاز الأمور وإتمامها. ففي مقالة عن العام 2000، كتب وزير التعليم المصري كمال الدين حسين عام 1959: «الوحدة طريق التقدم... لقد خطونا الخطوة

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

الأولى على هذا الطريق. وانتبهوا! لقد وصلنا....» ويعلق المستعرب ارنولد هوتينغر (Arnold Hottinger) الذي انتقى المقطع السابق قائلا: «تلعب <الخطة> دورا مفرطا في الدعاية الإعلامية القومية والتفكير القومي. فما تم <التخطيط> له جيد بقدر ما تم إنجازه.»

ومن المهم هنا أن نشير هنا إلى أن العربية العامية (خاصة في سوريا ومصر) تحتوي شكلا نمطيا يبدو أنه يعبر عن نفس الميل للقيام بإعلانات لفظية تعبر عن النية عوضا عن المباشرة بالقيام بعمل محدد.

تبدو الميزة السابقة في استخدام الأداة اللغوية العامية «بِد» أو اختصارها «ب» باعتبارها فعلا مساعدا أو سابقة لغوية للتعبير بوضوح عن فعل مستقبلي. فعندما يقول العربي: «أريد أن أفعل هذا» عوضا عن «سأفعل هذا» فإنه، في الحقيقة، يستعيض عن نية بوصف لعمل في المستقبل. وعلى سبيل المثال: يقول العربي «أنا بدي أضربك» بمعنى «سأضربك» ولكن المعنى الحقيقي هو «أريد أن أضربك» ومن خلال صياغة الفعل المستقبلي على شكل نية، يحقق شيئا من الراحة النفسية؛ وبعد ذلك لن يكون مرغما لتنفيذ الفعل المنوي عمله.

إن الشعور بالرضى الذي يلي العبارة ذو أثر عكسي لأنه يميل إلى الحؤول دون إتباع الإعلان اللفظي بالفعل الموصوف. فعندما يتم التلفظ بالنية لأداء فعل ما، تترك الصيغة اللفظية نفسها انطباعا في ذهن المتكلم بأنه قام بفعل ما إزاء الموقف الحالي، وهذا بدوره يقلل، نفسيا، أهمية إتباع اللفظ بترجمة النية المعبر عنها إلى فعل. إن الضغط النفسي للحاجة إلى القيام بفعل ما تتضاءل جراء التعبير عن النية للقيام بهذا الفعل، وبهذا الاعتبار تلعب الكلمات في العقلية العربية دور الأفعال بشكل دائم. وفي أحد خطابات عبد الناصر الأولى يشير إلى هذه الصفة وينتقدها بشدة قائلا: «أحس من أعماقي أن المأساة التي وقعت علينا جميعا في فلسطين لم تكن سوى نتيجة للطمأنينة التي هبطت على نفوسنا بعد الخطابات الشاعرية والتجمعات الجماهيرية. لقد استمعنا إلى

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

الخطابات فشعرنا بالطمأنينة. وهذه الطمأنينة كانت السبب الأساسي والرئيسي في مأساة فلسطين.» وينتقد محمد حسين هيكل، على نحو مماثل، القادة العرب لإظهارهم ما دعاه «حماسة» مما يؤدي إلى «الحديث عما ليس في حدود المستطاع والتهرب من الأفعال.» إن عبارات كهذه تشير إلى أن أنماط السلوك عند العرب تركت انطباعا لدى بعض المراقبين العرب يشبه نفس الظاهرة التي قادت الغرب إلى إنشاء ما دعي (نظرية التنفيس)، أي أن: الإظهار اللفظي للعدوانية لا يؤدي إلى تخفيض توتر المرء فحسب، إنما يضعف، بفعالية، قوة رغباته العدوانية.

وثمة مثال آخر يختلف قليلا ويوضح تأثير اللغة العربية على تعامل العرب مع القيام بفعل والواقعية طرحه شوبي (Shouby)، حيث استنتج أن اللغة العربية نفسها تميل إلى التسبب بإحلال الصور اللغوية محل الصور الإدراكية، والتي يتم التعامل معها (الصور اللغوية) في كافة المجالات العملية وكأنها هي الحقيقة وليست مجرد تمثيل لغوي لها.

وبعد 3 أعوام توصل مالك بن نبي، وهو كاتب جزائري يكتب بالفرنسية، إلى استنتاج مماثل في أحد كتبه. ففي تحليله للوضع العقلاني للتقدميين، وهم عرب شمال أفريقيا الذين تلقوا تعليما فرنسيا والذي أعطاهم مظهرا تقدميا وإسلاميا، لاحظ بن نبي أنهم يخلطون ما بين الكلمة والرمز وبين الواقع الذي يقع خلف ذلك.

لم تصل أبحاثي إلى تأكيد لهذا الاستنتاج. إذ لم أجد عندهم خلطا بين الكلمات وبين ما تمثله هذه الكلمات، وحتى أني لم أجد تعاملا مع الكلمات وكأنها حقيقة واقعة. لكن ما وجدته فعلا -وهنا أعيد تكرار ما ذكرته سابقا- هو أن التعبير اللفظي عن تهديد أو نية (وبخاصة عندما تقترن بتكرار ومبالغة) يحقق أهمية بحيث لا تعود هناك أهمية تذكر لاقترانه بتحقيق الفعل المعبر عنه. لا يوجد «خلط» ما بين الأقوال والأفعال، وإنما هنالك تبادل بتأثير نفسي في ما بينهما.

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

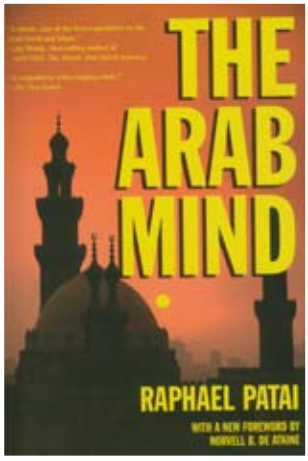

العقل العربي 18

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

6. الإحساس بالزمن، وزمن الفعل

في دراسة للباحثة في علم الأنثروبولوجيا (علم الإنسان) جوديث ويليامز (Judith Williams)، حول الشباب في قرية (حوش الحريمي) اللبنانية، وجدت ويليامز أن الفلاحين المسلمين في هذه القرية غير قادرين على تذكر أحداث الماضي بشكل متسلسل. إذ كانوا يقومون بانتقالات كبيرة ما بين أحداث الطفولة المبكرة وصولا إلى مرحلة البلوغ، وبالعكس، ما بين أحداث حالية إلى ماضٍ سحيق. كما أنهم إن رتبوا الأحداث بالتسلسل، فسيكون ذلك اعتمادا على علامات زمنية خارجية (زواج، عيد، شجار...) دون الاعتماد على مراحل نمو عمرية ذاتية. وكانت إحدى عباراتهم النمطية التي ذكرتها ويليامز: «الماضي لا يهم.» واشتبهت ويليامز بوجود ظاهرة التشوش الزمني ذاتها في عدم الاكتراث بتحديد العمر: فعمر الرضيع يحدد عندهم بـ«أقل من سنة» أو «أكثر من سنة.» وعمر الكهل يحدد بأنه بلغ «الأربعين أو الخمسين، وربما الستين.» ولاحظت ويليامز أن الأسئلة المتعلقة بعرض أحداث الحياة بتسلسل زمني شكلت لهم مهمة عسيرة وغريبة.

ربما يكون لهذه الصعوبة علاقة بعدم الرغبة أو عدم القدرة عند العرب على الاهتمام بتوقيت محدد ودقيق. ويمكن لكل من عاش مع العرب أن يشهد بأنهم أقل اهتماما بالوقت من الغربيين. إذ يعيش الإنسان الغربي تحت سلطة الوقت ويبقى دائما متيقظا حول ما سيفعل أو يجب أن يفعل في مكان وزمان محددين في المستقبل القريب. ويلعب التخطيط والجدولة المتقدمة دورا أساسيا في حياته اليومية. وبتأثير من الغرب تسرّب شيء من تلك العادة إلى العالم العربي في العقود الراهنة، وأصبحت جداول العمل والجداول الزمنية وما يشبهها من العوامل الأساسية للحياة في المدن العربية. ولكن على الرغم من ذلك،

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

يستمر الإهمال التقليدي للوقت منتشرا في العديد من مجالات الحياة، وبخاصة في القرى. وإليك مثالا على الفرق ما بين العالمين: يقول الغربي، «أيمكنني زيارتك غدا في الخامسة مساءً؟»، أما العربي فيقول، «سآتي لزيارتك غدا مساءً، إن شاء الله.» وتعني «مساءً» هنا أي وقت من العصر وحتى وقت متأخر من المساء، أو، في الحقيقة، أي مساء في الأيام القليلة القادمة. أما «إن شاء الله» فترافق كل التزام قادم مع الإشارة إلى انعدام التأكيد، وعلى ضوء هذا يصبح من المستحيل، وغير الملائم في بعض السياقات، تحديد وقت أداء فعل مستقبلي بدقة أكبر.

وعلى ضوء إهمال الوقت هذا والنمط السلوكي الذي يتمظهر به، لن نتفاجأ بغياب مفهوم دقة التوقيت في الثقافة العربية التقليدية، وبالصعوبات الكبيرة التي واجهت قدوم الجداول الزمنية الصارمة التي يفرضها التحديث. كما لن يكون من المفاجئ استمرار ظاهرتي التأخر عن المواعيد أو الغياب عنها في أوجه الحياة العربية، بما في ذلك القمم العربية التي تستمر ليوم أو اثنين لكنها لا تستكمل حضور المدعوين الذين تم التجهيز لاستقبالهم بناء على التزامهم بالحضور.

قد لا نبالغ كثيرا إذا ما بحثنا عن صلة ما بين هذا الموقف التقليدي اللامبالي تجاه الوقت وبين المعالجة المتعجرفة للوقت التي يتسم بها نظام الفعل العربي. ففي اللغة الانكليزية يوجد توافق بين صيغة الفعل ومعناه عند أخذ الزمن بعين الاعتبار. وعندما يكون الفعل في صيغة الماضي فإن معناه يشير إلى الماضي، وعندما يكون في صيغة الحاضر يشير إلى عمل يتزامن مع إلقاء العبارة، وعندما يكون في صيغة المستقبل يشير إلى أمر سيحدث بعد إلقاء العبارة. إن هذا الترابط ما بين الصيغة الزمنية للفعل والمعنى أمر بديهي جدا للناطقين باللغة الانكليزية. ولكن الوضع في اللغة العربية مختلف جدا.

ويتفق أكثر علماء الألسنيات المرموقين على أن دراسة معاني الفعل العربي مهمة شديدة الصعوبة للباحث الذي يدرسها انطلاقا من خلفية لغوية هندوأوربية؛ إذ لا تنسجم

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

الصيغ الزمنية للأفعال العربية مع ما يقابلها في اللغات الهندوأوربية. ولا تختلف اللغة العربية في هذا عن شقيقاتها من اللغات السامية، حيث يفترض علماء الألسنيات أن اللغة الأولية الافتراضية التي تفرعت عنها أسرة اللغات السامية كانت تحتوي على شكل وحيد للفعل فحسب، وهو الفعل غير التام، والذي كانت له وظيفة شاملة.

في اللغة العربية، يمكن للفعل غير التام (صيغة المضارع) أن يدل على الحاضر والمستقبل والماضي. ويمكن للفعل التام (صيغة الماضي) أن تدل على الماضي والمستقبل واستعمالات أخرى في الحياة اليومية. ومعنى ذلك أن الفعل التام ليس حكرا على معناه المعتاد (فعل تم إجازه في الزمن الماضي) وإنما يتعدى ذلك إلى المعاني التالية:

- فعل تم إنجازه في الزمن الحاضر: مثل «جاء أحمد هنا.»
- فعل تم إنجازه قبل لحظة زمنية يشير إليها المتكلم: مثل «التقيت معلمين: أحدهما علّم في دمشق، والآخر علّم في حلب.»
- الحاضر: مثل «اختلف العلماء.» و «عز وجل.» و «علمْتُ.» و «بعتُكَ هذا.»
- المستقبل عند التعبير عن أمنية: مثل «لعنه اللّه» و«واللّه؛ لا فعلتُ.»

وثمة استعمالات أخرى للفعل التام، لكن ما ورد يكفي لإيضاح القصد.

وللفعل غير التام (صيغة المضارع) وظيفة أساسية تتمثل في التعبير عن الزمن الحاضر المستمر والمستقبل. كما قد يشير إلى أفعال اعتيادية مجردة من الزمن، مثل «كثرة العتاب تورث البغضاء.»

وفي السياق التأكيدي يمكن للفعل غير التام أن يشير إلى الماضي، مثل «فأهويتُ نحو الصوت فأضربه ضربة بالسيف.» كما يمكن له أن يعبر عن فعل في الماضي ترافق مع فعل آخر، مثل «جاؤوا أباهم يبكون.» وله أن يعبر، أيضا، عن فعل في الماضي تلا فعلا آخر، مثل

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

«أتى العين يشرب.»

وبما أن الفعل غير التام قادر على أداء الكثير من المعاني المختلفة، فإن المتكلم حين يريد الإشارة بوضوح إلى فعل في المستقبل، يحتاج إلى استخدام أداة (سوف) قبل الفعل، مثل «سوف تعلمون.» وعادة ما تختصر هذه الأداة إلى حرف السين فحسب، مثل «سنريهم.»

لا زلنا نستخدم أمثلة فصحى حتى بلوغنا هذا الموضع. وعلى الرغم من هذا، فإن اللغة العربية العامية، التي يتحدث بها الأميون الذين يشكلون أغلبية العرب، تتميز بالمرونة الفائقة نفسها أو التوسطية عندما يتعلق الأمر بزمن الفعل. وبالتالي، عندما يرغب المتحدث بتوضيح نيته بالقيام بفعل في المستقبل، فإنه يستعمل كلمة (بدّ) مضافا إليها ضمير متصل يدل عليه، مثل «هوّه بدّه يرجع.» وكثيرا ما تختصر (بدّ) إلى (ب) فقط مضافا إليها الفعل غير التام، مثل «بَضرب.»

إن النتيجة التي نصل إليها من وراء هذا الاستعراض الضروري للتقنيات اللغوية في استخدام صيغتي الفعل (التام، وغير التام) في اللغة العربية: هي أن من يتكلم بلغة يمتلك فيها الفعل تلك الخصائص المعنوية، لا يمكن للزمن أن يمتلك المضمون المحدد والمنظم والمتسلسل لدى نظيره عند من يتكلم لغة ذات بنية زمنية صارمة. وهذا يقودنا إلى اعتبار أكثر تعميما.

تم اكتشاف العلاقة التبادلية ما بين الثقافة واللغة في أوائل العشرينات من القرن العشرين على يد العالم اللغوي ادوارد سابير (Edward Sapir)، والذي لا تزال عبارته الشهير حول الموضوع تقتبس بكثرة؛ حيث قال:

> لا يعيش الكائن البشري في العالم المادي وحيدا، كما لا يكون وحيدا في عالم النشاط الاجتماعي كما هو المعتقد عادة؛ إنه يعيش تحت هيمنة واسعة تمارسها

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©
شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

> لغة محددة تكون وسيلة تعبير المجتمع.... إن حقيقة الأمر تتمثل في أن «العالم الحقيقي» يتشكل تدريجيا على مدى واسع من خلال العادات اللغوية للجماعة. ولا يمكن أن تتشابه لغتان بما يكفي لاعتبارهما تمثيلا لحقيقة اجتماعية واحدة. إن العالم الذي تعيش فيه مجتمعات مختلفة هو عوالم متمايزة، أكثر من كونه عالما يحفل بعدة عناوين.

ثم قام العالم اللغوي بنجامين ل. وورف (Benjamin L. Whorf) بتمحيص هذه الرؤية وتطويرها لتصبح الفرضية المعروفة باسم (فرضية سابير-وورف) وتتلخص فكرتها الرئيسية في أن «اللغة ليست مجرد أداة للتعبير عن العمل فحسب، وإنما هي إضافة إلى ذلك، وبشكل أدق، وسيلة لتوضيح ماهية العمل للناطقين بها.» وكما يقول وورف نفسه: «إن من يستخدم لغة ذات قواعد مختلفة بشكل ملحوظ، يُقاد بواسطة هذه القواعد إلى أنماط مختلفة للملاحظة وتقديرات مختلفة عند ملاحظة أحداث متشابهة ظاهريا، ولهذا لا يكون مؤهلا لأن يكون مراقبا حيث يشكل وجهات نظر عن العالم مختلفة نوعا ما.» وهكذا يجد وورف أن «النظام اللغوي (القواعد) في كل اللغات ليس مجرد أداة لإعادة الإنتاج من خلال التلفظ بالأفكار، فهي تتجاوز ذلك لتقوم بتشكيل الأفكار وتكون البرنامج والمرشد في الفعاليات العقلية وتحليل الانطباعات وصناعة الناتج العقلي المعد للتداول....»

إن فرضية سابير-هورف ذات أهمية في ما يتعلق بما ناقشناه حول تأثير نظام الزمن في اللغة العربية على إدراك الزمن بشكل خاص. وفي ما يخص العلاقة بين مفهوم الزمن عند الناطقين بالانكليزية وتمييز الزمن في الفعل الانكليزي، لاحظ وورف أن نظام الزمن الثلاثي للفعل في اللغات الأوروبية الشائعة «يوجه كافة أوجه إدراكنا للزمن.» ويرى وورف أن مفهومي الزمن والمادة الأساسيين في العلوم عند غرب أوروبا لم ينتجا على شكل صدر عن تجربة إنسانية بل عن طبيعة اللغة أو اللغات التي تطور المفهوم ضمنها. ويقوم الناطقون باللغات الأوروبية الشائعة بممارسة «تجزئة وتنظيم انتشار الأحداث وتدفقها...

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

ويعود ذلك عادة إلى أنه ضمن اللغة الأم، نكون ملزمين باتفاق يفرض علينا فعل ذلك، دون أن تكون الطبيعة نفسها مكونة من أجزاء على النحو الذي نراها عليه.» ولاحظ وورف أن «المحصلة الثقافية لوجهة النظر الأوروبية حول الوقت تتمثل في اهتمامنا المهيأ لغويا بالأرشفة واليوميات والتأريخ والاهتمام بـ«الماضي» عموما، ويضاف إلى ذلك إصرارنا على استعمال أدوات كالساعات والتقاويم والجداول الزمنية من أجل التحديد الدقيق للزمن.»

من الضروري إعطاء مقدمة مفصلة عن فرضية سابير-وورف، وبخاصة عما قاله وورف عن الزمن في اللغات الأوروبية الشائعة، وذلك من أجل تقديم صورة مناسبة نتمكن من خلالها أن نركز على العلاقة ما بين الزمن في الأفعال العربية والإحساس بالزمن كما يظهر في تصرفات العرب. ويمكن تطبيق فرضية وورف على اللغة العربية والعرب وفق الطريقة التالية: توجد في اللغة العربية أزمان للفعل مبهمة وغير محددة على المستوى المعنوي، وهذه الخاصية تمنح الثقافة العربية مفهوما مبهما وغير محدد للوقت، ومن هنا ينبغي على المجتمع العربي أن يكون متّصفا بأنه يهتم بشكل أقل نسبيا بالوقت، بما في ذلك تكميم الوقت، والوعي بالمدد النسبية والمواضع التي احتلتها أحداث الماضي، وأهمية ترتيب الحياة وفق جداول زمنية.

إن الملاحظات التي وردت في بداية هذا القسم، والتي جمعتها الباحثة جوديث ويليامز (Judith Williams) من دراسة أجرتها على قرية لبنانية، جاءت بالاستنتاج السابق. إذ وجدت أن مهمة استعراض حياة أهالي قرية حوش الحريمي وفق منظور زمني هي «مهمة غريبة وشاقة.» ونعلم الآن أن هذه الظاهرة هي مظهر للغموض الأكبر نسبيا في فهم الزمن والذي تفرضه اللغة العربية على من ينطقون بها، وذلك كما يفترض وورف.

وعلى ضوء هذه الرؤى، دعونا نبقى قليلا مع إحدى خصائص زمن الفعل العربي، والتي أشير إليها سابقا، ويبدو أنها تفسر سبب قيام أهالي قرية حوش الحريمي بما دعته جوديث ويليامز «تبادلا هائلا بين مواقع أحداث الماضي.» إن اللغة العربية لا توفر صيغة سهلة

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

للتمييز ما بين فترتين مختلفتين من الماضي، ولذلك، ينظر العقل العربي باهتمام أقل نسبيا إلى ما إذا كان فعلان أو حدثان أو وضعان قد حدثا في الماضي على نحو متزامن أو سبق أحدهما الآخر، وكأن الماضي كيان ضخم غير متمايز لا أهمية فيه للاختلافات الزمنية والتي لا تتم ملاحظتها لهذا السبب، وعادة ما لا يُنتبه إلى أنها تندمج في الزمن الحاضر وتستمر معه إلى المستقبل. ويبدو أن هذه الميزة ناتجة عن النمو مع حالة نفسية تفرضها اللغة العربية باعتبارها اللغة الأم، واللغة التي تصوغ الفعاليات الفكرية.

من المؤكد أننا لسنا بصدد البدء بإجراء عملية تقييم عامة لكتابة التاريخ عند العرب. لكن يمكننا أن نذكر في هذا السياق أن تلك الكتابة جاء على شكل سيَر أشخاص ذوي طبيعة خاصة، وأن كتب التاريخ العربية مليئة بالمفارقات الزمنية وترتبك فيها التفاصيل والمسار الزمني. ويبدو هذا النقص في التسلسل الزمني والتواريخ واضحا في كتاب تاريخ البخاري (810-870م). حيث احتوى هذا الكتاب على سير رجال الإسناد في الأحاديث النبوية: لكننا نجد أن أقل من 7% فحسب من هذه السير قد اشتملت على ذكر تاريخ الوفاة، وأقل من 0.5% منها أشارت إلى تاريخ الولادة، وأكثر بقليل من 0.5% احتوت تاريخا ما يحدد الزمان الذي عاش فيه صاحب السيرة. ويذكر لباقي المؤرخين في شؤون الدين اهتمام أقل بذكر التواريخ.

عند قراءة مؤلفات المؤرخين العرب والدراسات النقدية التي تتناول كتابة التاريخ عند العرب، يتولد لدى المرء انطباع بغياب فهم الزمن باعتباره عملية مستمرة. ووجدت الباحثة جوديث ويليامز لدى دراستها للقرية اللبنانية أن الأحداث المهمة، كالزواج والاحتفال والشجار، يتم تذكرها واستعمالها كدلائل تنسب إليها أحداث أخرى عند استرجاع الذكريات. إن هذا النمط من استرجاع الذكريات على شكل «رزم» لأحداث متزامنة دون القدرة على تكوين سلاسل لأحداث منفصلة هو إحدى خواص المؤرخين العرب كذلك. ولا شك في أن هذا هو المعنى الذي أراده ابن خلدون، أفضل المؤرخين العرب، عندما عرّف التاريخ بأنه يذكر أحداثا تختص بعصر أو أمة محددين. وعلى نفس المنوال سار الكافيجي، وهو أحد علماء الدين

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

في القرن الخامس عشر، عندما رأى بأن الهدف من كتابة التاريخ هو تدوين أحداث مميزة ذات أهمية. وحتى عندما استخدم المؤرخون العرب مصطلح الزمن، فإنه لم يعبر عندهم عن مدة زمنية تجري ضمنها أحداث تاريخية، ولم يكن كما رآه الباحث شبنغلر «فضاء غير متناهٍ من الأزمان،» بل كان يعبر لديهم عن حيز زمني محض يستند على حدث كبير أو مميز. وكما يرى الكافياجي، فإن العرب لم يفرقوا لغويا ما بين الزمان والوقت. وعندما يكون الحال هكذا، فلا يمكن مقارنة كتابة التاريخ عند العرب بالطريقة النقدية في دراسة وكتابة التاريخ في الغرب (مدرسة ليوبولد فون رانكة Leopold von Ranke بشكل أساسي)، ولا بتفاعل التاريخ مع باقي العلوم الاجتماعية، الأمر الذي ميزه في الغرب منذ قرن من الزمن.

ولأخرج باستنتاج مما سبق، سألقي ضوءا على اللغة العبرية، وهي من القلة الباقية على قيد الحياة من أسرة اللغات الساميّة. ففي شكلها القديم (التوراتي) احتوت اللغة العبرية على نظام مبهم لأزمنة الفعل مماثل لما هو الحال في اللغة العربية. وكان يمكن للفعل غير التام أن يشير إلى الزمن الماضي، كما كان يمكن للفعل التام أن يشير إلى المستقبل، مثل العربية تماما. لكن العبرية مرت بعملية تطور بعد المرحلة التوراتية لينتهي بها الحال كما هي اليوم بعد أن تخلصت تماما من الالتباسات القديمة. وفي الواقع، يمكن القول بأن أحد الاختلافات الرئيسية ما بين العبرية التوراتية والعبرية الحديثة يكمن في أن العبرية الحديثة تحتوي صيغا للماضي والمستقبل كاللغات الأوروبية، بينما احتوت العبرية التوراتية على صيغتي التام وغير التام كما هو حال اللغة العربية إلى يومنا هذا.

إذا أريد اللغة العربية أن تكون بيئة ملائمة لاحتياجات الحياة الحديثة، بما في ذلك ضرورات الخطاب العلمي والأكاديمي، فعليها أن تتعرض للعملية ذاتها التي مرت بها اللغة العبرية. عندها ينبغي أن تكون اللغة العربية أكثر واقعية، وأن تتخلص من الخطابية التقليدية والمبالغة والتأكيد المفرط، وأن تتحول صيغتا الفعل (التام وغير التام) إلى ما يقابلهما من صيغ الماضي والمستقبل في اللغات الأوروبية الشائعة.

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©

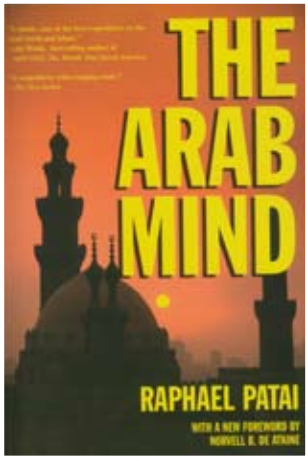

العقل العربي 19

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

الفصل الخامس: المكون البدوي في الشخصية العربية

1. القيم البدوية

على الرغم من أنه في يومنا هذا لا يشكل البدو أكثر من حوالي 10% من سكان العالم العربي، فإن سكان المدن والقرى في العالم العربي يدّعون انحدارهم من أصول بدوية. وما هو أهم من الأرقام أن قسما كبيرا من السكان المتحضرين لا يزالون يعتبرون القيم البدوية مثلا أعلى ينبغي اللحاق به -على المستوى النظري على الأقل. وكما قال جاك بيرك (Jacques Berque)، أحد المستشرقين القلائل الذين كتبوا عن العالم العربي بحس مرهف وتفهّم: «فرضت حدة العاطفة لدى سكان الصحراء قيمها على مترفي المدن.»[1] إن الحقيقة تتمثل في أن كل العرب، وليس سكان المدن فحسب، مع استثناء الذين تأثروا بالغرب، ينظرون إلى البدو على أنهم صور وأشكال قادمة من الماضي، وأنهم الأسلاف الأحياء، والورثة والشهود على المجد الغابر لعصر البطولات. ومن هنا تأتي أهمية القيم البدوية والنظام الأخلاقي الارستقراطي فيها عند العالم العربي ككل.

يترك عصر البطولات، حيث قام الأسلاف بأعمال عظيمة ذات تأثير مستديم، أثرا لا يمحى على إدراك الناس جميعهم. وعندما تنظر الذرية إلى أسلافها الأبطال فإنها تمنح نفسها الصفات التي تحظى بأعلى تقدير في ثقافة الخَلَف: كالقوة الخارقة التي تحولهم إلى عمالقة حقيقيين مليئين بالشجاعة، والقدرة على القيادة، والثقافة. ومن خلال التمسك بأولئك الأسلاف باعتبارهم صورا مثالية، يخلق الخَلَف لنفسه نماذج ذات أقوال وأفعال

1) يرى المؤرخ الألماني ماكس ويبر (Max Weber) أن الخصائص القومية ترجع إلى نمط اجتماعي ناتج عن طبقة اجتماعية ذات أهمية استراتيجية. ومن هنا انطلق للافتراض بأن طبقة اليونكر (Junker)، وهي طبقة اجتماعية كان لها أهمية ونفوذ في المجتمع الألماني، أثّرت تأثيرا كبيرا على الشخصية القومية الألمانية ككل. وبهذه الطريقة استطاع البدو أن يطبعوا المجتمع العربي بطابعهم الخاص.

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل الخامس: المكون البدوي في الشخصية العربية

يجب أن تحتذى، وهي تحتذى بالفعل، وذلك بالطريقة نفسها التي تفعل فيها المؤثرات القوية فعلها في نظام القيم وأنماط السلوك.

ليس عصر البطولات عند العرب مقيدا بعصر معين، وليس ذلك غريبا لما يتصفون به من مجافاة للتاريخ. صحيح أن هذا العصر يقع في الماضي، لكنه ما زال مستمرا في الحاضر لأن مسرح الأحداث الذي عاصره ما زال موجودا دون تغير. وبعبارة أخرى يمكن القول أنه في العقل العربي يتساوى عصر البطولات الذي طبع بطابعه الخاص كافة الأجيال اللاحقة، مع بيئة بطولية وبنية اجتماعية خاصة نشأ استجابة لتحديات ذلك العصر. تلك البيئة هي الصحراء العربية، وتلك البنية الاجتماعية هي سكانها من البدو الرحّل. تدعى الصحراء في اللغة العربية بالبدو أو البادية، والنسبة إليها بَدْوي أو بَدَوي. وبالمناسبة ثمة معنى آخر لكلمة «البدو» وهو (البداية) مما يسمح بالاستدلال على أن الصحراء كانت بداية العالم بالنسبة للعرب القدماء، كما هو حال الماء بالنسبة لليهود والفيلسوف الأغريقي طاليس. وعلى الرغم من أن الصحراء وسكانها من البدو يختلفون كلّيّا عن أغلبية العرب التي تسكن المدن والقرى منذ أجيال عديدة، فإنهم يحتلون المكانة الأولى في الأفكار والمعتقدات وسلم القيم دون منازع.

من الأمور الكثيرة التي تشير إلى تفوق الصحراء وقيم وتقاليد سكانها، عادة قديمة كانت تقوم بها الأسر المرموقة في دمشق (وفي مدن عربية أخرى) حتى وقت قريب. وتقضي هذه العادة بإرسال أبناء هذه العوائل، والتي تسكن المدن منذ أجيال بعيدة، إلى القبائل «الأصيلة» التي ترعى الجمال في الصحراء السورية لمدة تصل إلى عام أو اثنين، يتعرف الأبناء خلالها على التجارب والمدارك والعادات والقيم البدوية، بشكل مشابه لما كان يفعله الانكليز بإرسال أبنائهم ليتعلموا في جامعتي ايتون واوكسفورد، أو ما كان يفعله اليابانيون بإرسال أبنائهم إلى إحدى أديرة الزن لعدة أسابيع كل عام. وفي كل حالة من هذه الحالات كان الهدف واحدا: تمكين الشباب من اكتساب أكثر ما يمكن مما يعتبر أفضل وأنبل التقاليد القومية. وكان على ابن المدينة العربي أن يتعلم من مضيفه البدوي

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل الخامس: المكون البدوي في الشخصية العربية

-بالأخص- اللغة «الصافية» وعاداته وتقاليده ذات التقدير العالي (أي «الأدب» و«العادات»).

إن هذا الميل للنظر إلى البدو باعتبارهم العرب «المثاليين» تعزز من خلال ما مارسته أجيال عديدة من قضاة المسلمين حين كانت أحكامهم القضائية تستند بقوة على الأحكام البدوية. وتعزز ذلك الميل أيضا بسبب اعتماد علماء اللغة العربية على الاستعمال البدوي في تحديد قواعد اللغة.

إذا استطاع الزمان أن يخفي الأصول البدوية لسكان قرية ما بغطاء النسيان، فإن الظروف الاجتماعية أو السياسية تؤدي أحيانا إلى إعادة الوعي بالأسلاف البدو على نحو قوي يثير الانتباه. وهذا ما حصل، مثلا، في مصر عندما أدت الحركة القومية المصرية بقيادة أحمد عرابي باشا (1839؟-1911) إلى إعادة إحياء القيم البدوية في القرى، والتي لا تزال مسيطرة في مناطق الصعيد بشكل خاص، حيث أدى النظام الأبوي وعادة الثأر والفخر، وهي قيم بدوية، إلى التسبب بتأثير استثنائي وخطير على مدارك الفلاحين. وقد درس الباحث العراقي علي الوردي هذه الظاهرة من منظور علم النفس وانتقد تمسك الدول العربية بالقيم البدوية وتمجيدها. حيث حمل الوردي على الاتجاه الفكري والعاطفي الذي ينظر إلى القيم البدوية باعتبارها مثالا يجب أن يحتذى. كما انتقد حتى القومية العربية لأنها تقاتل الامبريالية من جهة وتنتج الامبريالية من جهة أخرى عن طريق تمجيد القيم البدوية. وبشكل قريب من هذا الانتقاد، جاء هجومه على القيم التقليدية في الأدب العربي، بما في ذلك التراث الذي وضعه الكتاب العرب الكلاسيكيون، إذ يرى الوردي أن هذا التراث مليء بمديح السلطة والإثارة الإباحية والعواطف الشهوانية والمحسنات اللفظية. وكل هذه الخصائص -وهي تنتمي إلى القيم البدوية- مرفوضة جملة وتفصيلا؛ ولا يتردد الوردي في أن مفهوم الأدب الكلاسيكي «الرفيع» ليس سوى أسطورة لا صلة لها بالحقيقة.

إن محافظة العديد من العائلات على تقاليد الأسلاف البدو أو الادعاء بها، هو نوع شائع من النوستالجيا (الحنين إلى الماضي) موجه نحو القيم البدوية. وتتواجد هذه الظاهرة

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل الخامس: المكون البدوي في الشخصية العربية

بكثرة بين سكان البلدات الصغيرة والمدن الكبيرة على حد سواء، وحتى ضمن العائلات التي سكنت المدن منذ أجيال عديدة. ويشيع ضمن الطبقات الاجتماعية المتواضعة، كالحرفيين والعمال، أن تتمسك بقوة وعناد بأصلها البدوي لأنها يزودها بالادعاء الوحيد الذي يمنحهم أهمية ومرتبة ضمن المجتمع. ولتوضيح هذه النقطة نطرح قضية ما ادعاه عبد الكريم قاسم (رئيس العراق 1958-1963) من أصل لوالديه: إذ كان أبوه، جاسم محمد بكر، نجارا فقيرا يعيش في المهدية على الضفة الغربية لدجلة، وهذه البلدة يسكنها عوائل فقيرة كادحة من العرب السنة. وقد ادعى قاسم أن أباه ينحدر من قبيلة زبيد، بينما تنحدر أمه من قبيلة بني تميم، وكلتا القبيلتين مشهورة بأصولها العربية.

بشكل عام يمكن القول بأنه حتى في أفقر ضواحي بغداد، حيث تعيش أعداد كبيرة من المهاجرين تنحشر في أكواخ بدائية رثة، لا يزال الناس هناك ينظرون بافتخار كبير إلى انتماءاتهم وعاداتهم العشائرية وولاءاتهم القديمة وقانونهم العرفي الخاص، أي: تراثهم البدوي. وفي دمشق يتمسك كل مكوّن من مكوناتها الشعبية «بمصالحه وقيمه الخاصة طبقا لقانون الشرف الأبوي الذي يعود في معظمه إلى النموذج البدوي الذي يفرض نفسه على المدينة من خلال تقاليده الشعرية وأهميته الجغرافية.» كما يقول المستشرق جاك بيرك.

من هذا البدوي الذي تتفاوت العلاقة به في المجتمع العربي المستقر؟ إن الإجابة على هذا السؤال تبدأ بأن نذكر أولا أن البدوي هو ابن الصحراء وسيدها، والذي لم تتغير حياته بشكل ملحوظ منذ استئناسه للجمل في القرن 11 أو 12 قبل الميلاد وإلى أن اقتحمت التكنولوجيا الحديثة موطن أجداده بحثا عن النفط. فطوال 3000 سنة، ظلت الصحراء حصنه المنيع الذي استطاع البدوي أن يحافظ فيه -دون تشويش- على طريقة حياته التي طورها بالتعايش مع جمله «سفينة الصحراء.» وفي الصحراء كان قادرا على حماية تقاليده المقدسة، والمحافظة على نقاء لغته ونسبه، وتطوير تكيف اجتماعي وثقافي فريد مع إحدى أقسى البيئات التي عرفها الإنسان على الأرض. وخلال هذا التطور أصبح البدوي، كما

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

الفصل الخامس: المكون البدوي في الشخصية العربية

صقره الصياد: متوترا، حاد الذهن، سريع الغضب، وكتلة من الأعصاب والعضلات والعظام القوية. وتتفاوت حياته ما بين خمود كسول واهتياج مضطرب. وفيما عدا المناسبات الاحتفالية التي يتخم نفسه فيها بلحم خروف أو جمل، يقتصر البدوي في طعامه على التمر، ولبن الجمال الخاثر، ومزيج من الطحين أو الذرة المشوية. ويلبس البدوي «ثوبا» طويلا يتوسطه حزام وتحيط بهذا الثوب «عباءة» مما يمنحه مظهرا مميزا وأرستقراطيا. ويغطي البدوي رأسه «بالكوفية» التي يثبتها باستخدام «العقال.» ولا يستخدم البدوي البنطال ولا يلبس شيئا في قدميه إلا نادرا. وتمنحه الظروف الشاقة والقاسية في حياته إدراكا يجعله يفضل الصبر على بذل مجهود لتغيير واقعه. كما إنه متشدد في الاعتماد على نفسه ويرفض إطاعة السلطات وينحصر ولاؤه في إطار العائلة والعشيرة. فالصحراء تفرض عليه الكثير من المتطلبات بحيث لا يتبقى لدى البدوي احتمال لأية متطلبات أخرى تفرض عليه من سلطة خارجية.

وكي نناقش القيم العربية التي تعود إلى أصول بدوية، أو طبقة بدوية، ينبغي علينا أولا أن نبدأ بإشارة مختصرة إلى طبيعة المجتمع البدوي نفسه. فهذا المجتمع، حيثما لا يزال موجودا اليوم، بقي على ما كان عليه قبل ظهور الإسلام دون تغيير في كثير من جوانبه الرئيسية: إذ لا يزال منظما على أساس الاتجاهات البنيوية نفسها، ويبدي التحركات الداخلية نفسها، ويتمسك بالقيم ذاتها، وحتى أنه يحافظ على خصائص ميزت الحياة الدينية لمجتمع ما قبل الإسلام.

كان البدو، ولا زالوا، مجتمعا أبويا، ومؤسسا على أساس القرابة ويتأثر بها تأثرا شديدا. ويعتبر الكيان الاجتماعي البدوي الحقيقي متمثلا في البدو الرحّل، وهم مجموعة من العوائل التي تعود أصولها إلى سلف مشترك. يخيّم أعضاء هذا الكيان سوية، ويبحثون عن مرعى لأنعامهم سوية، ويتزوجون من ضمن نفس المجموعة، ويحملون شعورا قويا بالتلاحم. إن البقاء على قيد الحياة في بيئة مقفرة كالصحارى والبراري في سوريا وشبه الجزيرة العربية وشمال افريقيا، جعل التطور الاجتماعي يقتصر على بلوغ مرحلة العشيرة

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

الفصل الخامس: المكون البدوي في الشخصية العربية

فحسب وإلى يومنا هذا. وهذا يعني على الصعيد العملي أن عدة مجموعات من البدو الرحل شكلوا شبه عشيرة، وعدة من هذه الكيانات شكلت عشيرة، وعدة عشائر شكلت اتحادا عشائريا. وكلما كبر حجم الكتلة الاجتماعية المتشكلة بهذه الطريقة، تضاءل التلاحم ما بين المجموعات التي تشكلها، وندرت الحالات التي تشارك فيها بقوات من أجل عمل مشترك. وهذا يعني أيضا أنه دون الأقرباء والعشيرة المباشرة التي ينتمي إليها البدوي وتكون الكيان المترحل، فلا توجد أية بنية سلطوية أو قوة أو حماية يستطيع الاعتماد عليها. ففي الصحراء ينطبق المثل الشائع «أنا وابن عمي على الغريب» بشكل حرفي.

إن تأثير هذا الوضع أدى إلى وضع عدة معايير اجتماعية متشابكة، وكل من هذه المعايير مستند إلى قيم متشابكة مشابهة. وربما من الأصح أن نقول بأن حياة الترحل في الصحراء لم تكن ممكنة إلا بفضل تطوير قيم محددة وبالمعايير التي من خلالها تم تجسيد هذه القيم والتعبير عنها. وفي كل الحالات التي صادف بها البدوي تحديات الصحراء، كان الحل ممكنا، وكان هذا الحل مجموعة خاصة جدا من القيم والبنى والنشاطات. ويمكن عرض الطبيعة المتشابكة لهذه المجموعة من خلال تحليلها من جهة استجابتها لظروف الصحراء.

قبل كل شيء ينبغي الانتباه إلى أن الصحراء، على الأقل حتى اكتشاف النفط وحفر آبار الماء، لم تتمكن من دعم أي اقتصاد إلا بما يسد الرمق بصعوبة. ومن هنا لا يمكن لغير العشيرة، دون ذكر أي بنية سياسية أكبر حجما وأكثر تعقيدا، أن تقاوم الظروف، لأن البنية الأكبر والأعقد تحتاج إلى إنتاج فائض من الطعام لتغذية الإداريين والجنود وغير ذلك من القطاعات الاقتصادية غير المنتجة. ومن خلال هذا التقييد، كان على الفرد حماية نفسه من هجمات الآخرين الذين يفوقونه قوة، وتم تحقيق هذا بشكل رئيسي من خلال التأكيد على تجمع الأقارب وتلاحمهم، وغرس فكرة الالتزام بالولاء للجماعة والمسؤولية المشتركة باعتبارها قيما عليا. ويمكن لمثل هذه القيم أن تنمو وتفعل فعلها باعتبارها إرشادات إلزامية في مجتمع صغير فحسب، حيث تتأسس العلاقات ما بين الناس على أساس الاتصال

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل الخامس: المكون البدوي في الشخصية العربية

الشخصي والحياة الاجتماعية في وسط يعرف فيه الناس بعضهم بعضا بشكل شخصي وتربط علاقة القرابة بين معظمهم أو -على الأقل- يربطهم توهّم بانحدارهم من نسب مشترك. وفي مجتمع صغير كهذا توجد ضغوط كبيرة تدفع باتجاه للتطابق مع الجماعة، والتمسك بقيمها، والعيش وفق العرف غير المكتوب الذي يعرفه الجميع. وبعبارة موجزة يمكن القول بأنه دون توفير جماعة الأقارب للدعم الفعال والحماية، تنتهي حياة البدوي. أما الثمن الذي يتوجب عليه أن يدفعه مقابل هذا الدعم فهو الانسجام مع عرف الجماعة وقيمها، والاندماج بهم إلى حد يدفعه إلى أن يحدد مصالحه عاطفيا بمصالح الجماعة، وهذا انسجام لا يتعارض مع استقلالية الفرد.

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

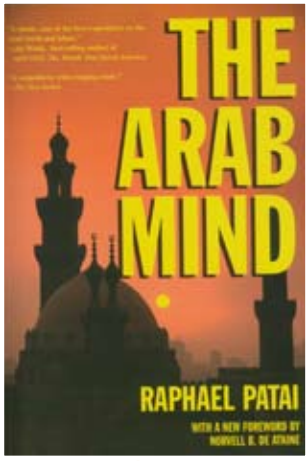

العقل العربي 20

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

الفصل الخامس: المكون البدوي في الشخصية العربية

2. تلاحم المجموعة

في أغلب الظروف يمكن القول أن الصفات الشخصية التي تنزع إلى تقوية تلاحم الجماعة تعتبر قيما إيجابية، ويتم تشجيعها والمكافأة عليها في الطفولة، ويعترف ويتمسك بها البالغ باعتبارها قيما مثالية. وبشكل معاكس، فإن الصفات الشخصية التي يمكن بأي شكل من الأشكال أن تسبب الأذى لتلاحم الجماعة فإنها تعتبر من الخطايا، ومن تبدو عليه في الطفولة يتعرض للتأنيب والعقاب، وبعد البلوغ تلاقى برفض واستهجان شديدين. في مرحلة الطفولة يقوم على أداء مهمة السيطرة على الفرد: أبوه وأمه وعماته وأعمامه وكافة أفراد العائلة بشكلها الواسع. بعد ذلك تتوسع مجموعة السيطرة لتشمل الكيان الاجتماعي الفاعل، وهو الجماعة التي تخيّم وترعى قطعانها سوية.

لا مجال عند البدو لمجهولية اسم الفرد، فالكل يعرف الكل شخصيا، وينتج عن هذه الظاهرة سيطرة اجتماعية شديدة الفعالية، تتعزز بالتراتبية العمرية. وبصياغة أخرى يمكن القول أن: أصغر الجميع هو من كان له أقل عدد من الناس الذين يذعنون لقبوله ورفضه، وأكبر الجميع هو من كان له أقل عدد من الناس الذين يذعن لآرائهم، وأكبر عدد من الناس الذين يذعنون لرأيه. ومن الجانب الآخر، كلما علا شأن الفرد، تعرض إلى نوع آخر من الضغوط: إذ تؤدي مكانته كقدوة إلى أن يتوجب عليه الانسجام التام مع العرف والتوجه القيمي للجماعة.

ما هي الصفات الشخصية التي تحظى بأشد التفضيل أو الاستهجان في المجتمع البدوي؟ تأتي هذه الصفات على شكل أزواج متضادة، حيث تأتي في أعلى قائمة الصفات

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل الخامس: المكون البدوي في الشخصية العربية

الإيجابية كل القيم والصفات التي تشجع على تلاحم الجماعة، وبالتالي: بقائها، وفي أعلى قائمة الصفات السلبية تأتي عكس هذه الصفات. ومن هذه الأزواج: الحماسة (الشجاعة) والجبن، وهما أمران فطريان: فلا حاجة للاستفاضة من أجل فهمهما في مجتمع تكون فيها كل جماعة فريسة متاحة لجماعة أخرى، فهنا لا تنجو إلا الجماعة التي يتصف أفرادها بالشجاعة ويصممون على الدفاع دون الاكتراث بالخطر على المستوى الشخصي.

وتتصل بهذا الزوج من الصفات (الشجاعة-الجبن) أزواج أخرى من الصفات مثل: (العدوانية-الوداعة والمروءة والحلم)، ولكن ثمة اختلاف كبير بين هذين الزوجين. فالشجاعة فضيلة مطلقة؛ والتصرف الشجاع مطلوب من الفرد في كافة المجالات، والجبن (ضدّ الشجاعة) مرفوض تماما: فينبغي على الفرد أن لا يظهر بمظهر الجبان في أي ظرف كان. بينما تطلب العدوانية من الفرد خارج الجماعة التي ينتمي إليها، وهي مرفوضة داخل هذه الجماعة، ومن يمارسها داخل الجماعة يعتبر مثيرا للمتاعب، أي أنه شخص تخلَّف عن أداء الواجب الأسمى له كعضو في الجماعة، هذا الواجب المتمثل في دعم وتقوية التكتل الاجتماعي. كما إن الوداعة تعتبر صفة سلبية إذا منعت الفرد من الدفاع عن حقوق جماعته ضد الآخرين. وفيما عدا ذلك، يحظى الفرد الوديع والمسالم بالاحترام، وعادة ما يدعى للتوسط في الخلافات الداخلية. وبينما تشجب العدوانية داخل الجماعة، تحظى المسالمة بالإعجاب والثناء، ويميل الفرد المسالم إلى الحفاظ على السلام داخل الجماعة مما يقويها في مقابل الجماعات الأخرى.

يعتبر الثأر من الأحداث المتكررة في المجتمع البدوي، ويشارك فيه كل من الأعضاء العدوانيين والمسالمين سوية بحسب ما تملي عليهم طبائعهم.فإذا ما تعرض فرد ينتمي إلى جماعة ما للقتل على يد فرد من جماعة أخرى فسيعاني أقارب الضحية من إضعاف قوة الجماعة، وتتمثل الاستجابة العلنية على ذلك بإعلان تلطخ سمعة الجماعة بالعار، ويدعى الجميع للأخذ بالثأر الذي يصبح مهمة كافة الذكور من أقارب الضحية ممن ينتمون إلى مجموعة الخمسة (وهي مجموعة من الأقارب تتكون من كافة الذكور الذين يتصلون

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

الفصل الخامس: المكون البدوي في الشخصية العربية

مع الفرد بقرابة يفصله عنها خمسة أو أقل من الأقارب الذكور في سلسلة النسب. ويتراوح التركيب الدقيق للخمسة باختلاف القبيلة، لكنها تؤدي نفس المهمة أينما كانت: (مجموعة يعتمد عليها الفرد دائما عندما يتورط في عداوة مع الغرباء). وإذا لم يستطع أصحاب الثأر أن يجدوا القاتل فمن المشروع لهم أن يقتلوا أي فرد من أعضاء مجموعة الخمسة التي تتصل بالقاتل. وبالطبع، سيكون على الأفراد العدوانيين في «خمسة» المقتول أن يقوموا بدور فعال في أداء هذه المهمة. وسيلاحق هؤلاء القاتل ويخططون للثأر منه بطريقة مفصلة في العرف العشائري. وفي الوقت نفسه، أو بعد مدة محددة، يقوم الأفراد المسالمون في عائلة الضحية (وعادة ما تكون هذه مهمة أكبرهم سنا) بالمباشرة في جهد موازٍ لإيجاد زعيم مسموع الكلمة أو أكثر، بحيث يتساوى في درجة قرابته من كلا الفريقين، وإقناعه بلعب دور الوسيط، وهو دور صعب لكنه شديد الهيبة.

إن الثأر والوساطة في قضايا الدماء في العرف البدوي بقيت دون تغيير عند الانتقال إلى الحياة القروية، كما استمرت باقية في المجتمع العربي الحضري أيضا. إن الإصرار على عادة أخذ الثأر يعقّد عمل الشرطة والجهاز القضائي في الجرائم الكبرى والاعتداءات التي يعاقب عليها العرف العشائري بالقتل: فحتى إذا ما حكم على القاتل بالموت وأعدم، فسيظل واجبا على «خمسة» الضحية أن يثأروا له؛ ولن يثأروا له إلا إذا قتلوا قاتله أو أحد أقاربه. وكما يقول العرب دائما: «الدم يطلب الدم.» ولا تستعيد عائلة الضحية شرفها إلا بالانتقام، أو الصلح مع دفع الدية المناسبة.

إن التشدد في تطبيق قانون الثأر يدفع البدو إلى تنفيذ غاراتهم (الغزو) -والتي كانت تعتبر إلى وقت قريب نوعا من أنواع التسلية بالإضافة إلى ضرورتها الاقتصادية- بشكل متحفظ وحذر بحيث لا يقتل أحد من الطرفين. إذ تؤدي إراقة الدماء أثناء الغزو إلى عداء دموي يعاني منه الطرفان. وتتمثل الغاية من الغزو في سرقة أكثر ما يمكن من الحيوانات التابعة لمجموعة أخرى، وذلك دون خوض أي صراع مع الرجال الذين يرعونها. أما الغزو الناجح فيحقق هدفين اثنين في نفس الوقت: يقوي المجموعة الغازية من خلال زيادة أعداد

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل الخامس: المكون البدوي في الشخصية العربية

قطعانها، ويضعف المجموعة المعادية من خلال تقليص أعداد قطعانها؛ وذلك بما تشكله قطعان الماشية من ضرورة أساسية للمعيشة، وحتى البقاء، في البيئة الصحراوية. يقول المؤرخ اللبناني فيليب حتي عن ذلك في كتابه (تاريخ العرب):

> منذ أمد بعيد، والعربي يعادي الآخر والآخر يعاديه.... ففي الصحراء، حيث يكون المزاج العدائي حالة نفسية مزمنة، يكون الغزو إحدى المهام القليلة التي يقوم بها الرجال.... ويصف الشاعر الأموي القطامي المبادئ الموجهة لهذه الحياة بقوله:
>
> أغرَنَ من الضَّبابِ على حَلالٍ وضبةَ إنَّهُ مَن حانَ حانا
> وأحياناً على بَكرٍ أخيـــــنا إذا ما لم نَجِد إلا أخانا
>
> واتباعا لقواعد اللعبة -باعتبار الغزو نوعا من الرياضة العامة- يجب عدم سفك الدماء إلا في حالات الضرورة القصوى.... إن هذه الأفكار حول الغزو وما يتعلق بها من مصطلحات قام العرب بنقلها من خلال الفتوحات الإسلامية.

ورغم ذلك، ينبغي اللعب بلعبة الغزو مع مراعاة قوانينها التي لا تقل صرامة وتقييدا عن قوانين الشطرنج. فإذا كان الغزو مجرد عملية سطو، فإن القبائل الأضعف ستتلاشى مع مرور الوقت بسبب حرمانها من قطعانها التي تأخذها غارات القبائل الأقوى. لكن إطاعة القوانين، والتي يتم الطعن في شرف من ينتهكها، تؤدي بالغزو إلى أن ينحصر بين القبائل أو ما يتفرع عنها بحيث يتساوى الطرفان في المنزلة والقوة. ومن العار بمكان أن تقوم قبيلة نبيلة بغزو قبيلة تقل عنها منزلة (والفرق بين الاثنين يستطيع جميع البدو تمييزه)، بحيث تفضل القبيلة النبيلة أن تعاني الجوع عوضا عن القيام بفعل كهذا. ونفس الكلام يمكن أن يقال عن القبائل التي تتفاوت في مستوى القوة.

وبالطبع، يحدث أن تُنتهك قوانين الغزو ويقوم مجموعة من شباب البدو الذين ينتمون إلى قبيلة نبيلة بغارة افتراسية تستهدف قبيلة أدنى أو جماعة مستقرة. ومع أن مثل

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل الخامس: المكون البدوي في الشخصية العربية

هذه الغارة لا يمكن أن تتماشى مع قيم القبيلة النبيلة. فإن هؤلاء لا يتلقون توبيخا كبيرا لأن الغنائم التي أحضروها تحسّن الوضع الاقتصادي للقبيلة. ويضاف إلى ذلك ما وفّروه من تمارين لشباب القبيلة. وللحيلولة دون حدوث غارات كهذه. تقوم القبائل غير النبيلة والجماعات المستقرة التي تعيش ضمن نطاق غزو القبائل النبيلة بالدخول ضمن علاقة تابعية تقوم من خلالها بدفع المال سنويا (خوّة) لقاء الحماية.

بما أن هذه الأعراف والترتيبات لا تدع إلا عددا قليلا من القبائل متاحا للغزو. وهذه القبائل تكون مساوية في المنزلة والقوة للقبيلة الغازية. فإن نتيجة الغزو لا تتقرر تبعا للتفوق العددي أو القوة الجسدية على الجانبين. إنما تعتمد على مستوى الجرأة والمهارة والتحمل. ومن هنا يقوم الغزو بحصر كافة الفضائل الرجولية ضمن مفهوم المروءة.

لقد قيل عن القيم البدوية ما يكفي لإفهامنا بملمح مميز آخر من ملامح العقل البدوي. والذي وجد طريقه ليصل إلى العقل العربي بشكل عام. وهذا الملمح هو ثنائية (الفعالية والخمود). إن الشخصية البدوية تتنقل ما بين فترات طويلة نسبيا من الخمود. حيث يقضي البدوي عامة يومه في ما يدعوه العقل الإيطالي. وبنمط مشابه من التقدير والميل. بـ«متعة فعل لا شيء.» ويقابل ذلك تدفق موجز لفعالية هائجة أوضح أمثلتها الغزو. ويتميز المزاج البدوي بالانفعالات المفاجئة التي تستطيع أن تدفعه بسهولة للعنف وحتى القتل. ويلي هذه الانفعالات شعور بالندم وفترات طويلة من الهدوء والخمود وميل إلى اللامبالاة. إن هذا التحول ما بين الحالتين لاحظه وعلّق عليه الكثير من الباحثين في مجال الشخصية العربية. من حيث أنها ليست ميزة تختص بالبدو. وإنما تتعداهم إلى الجماعات المستقرة والقرويين وسكان المدن. وإن بدرجة أقل. وحتى في المجتمعات العربية التي تتشبه بالغرب. فإن الاجتماعات الودية بينهم لا تخلو من نوبات مزاجية عنيفة. لكنها لا تسبب إلا اضطرابا مؤقتا قصير الأمد لا يلبث أن يزول لأن الكل يعلم أن هذا الاضطراب ليس جديا. وأن تيار الأخذ والرد المستمر سيعود بعد حدوث أمر ثبت أنه ليس إلا مقاطعة بسيطة.

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل الخامس: المكون البدوي في الشخصية العربية

وتلاحظ هذه الظاهرة نفسها في أداء المجتمع العربي عندما يمر بتغيرات في الطبقية الاجتماعية والبنية الاقتصادية والحياة السياسية: إذ يحدث تقدم مفاجئ متقطع تليه فترة من الخمود يتعرض فيها ما تحقق خلال مرحلة الفعالية الموجزة إلى التآكل أو يتحول إلى عنصر من عناصر العرف. وهذا العرف الجديد يتحول بدوره إلى عائق يحول دون حدوث تقدم تدريجي إضافي، ولا يمكن التغلب على هذا العائق إلا بتغيرات مفاجئة جديدة.

لاحظ جورج أنطونيوس في كتابه الشهير (يقظة العرب) أن العرب يؤدون أعمالهم من خلال فورات متعاقبة ومعزولة، عوضا عن الجهد المستمر والإصرار. وأورد أنطونيوس أن هذه الصفة هي التي أرجع إليها الباحثان نبيه أمين فارس ومحمد توفيق حسين الفورات العنيفة المتقطعة التي توزعت على فترات زمنية سادها الهدوء والخمود، وهو الأمر الذي وجدا بأنه ميّز تاريخ الحركة القومية العربية، وذلك في كتابهما (الهلال في أزمة: دراسة تفسيرية للعالم العربي الحديث).

وكرّرت ليلى القاضي هذا الرأي في كتابها (مؤتمرات القمة العربية والمشكلة الفلسطينية) رغم أنها اعتمدت على مجموعة مختلفة جدا من الملاحظات في دراستها عن القمم العربية. ففي صدد التعليق على عجز الحكومات العربية عن التوصل إلى قرارات، لاحظت كادي أنه «من الأسهل بكثير، كما يبدو، الإقدام على تصرف فوري ينظر إليه على أنه وليد اللحظة أكثر من كونه حافزا على إطلاق جهد دائم يقتضي، كما لاحظنا مسبقا، أداء مستمرا وتضحية صبورة لمدة طويلة.»

صحيح أن البون شاسع ما بين الملمح البدوي المتمثل في الفعالية والخمود، وما بين النمط المتقطع الملاحظ في إنجاز المهام في الدوائر الحكومية ومستويات القيادة في الدول العربية، لكن هاتين الظاهرتين مرتبطتان. وعلينا أن لا ننسى أن قادة العرب اليوم تلقوا تربيتهم في بيئة اعتنقت القيم البدوية وتأثرت بها تأثرا شديدا، أو أن آباءهم كانوا كذلك حتما.

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

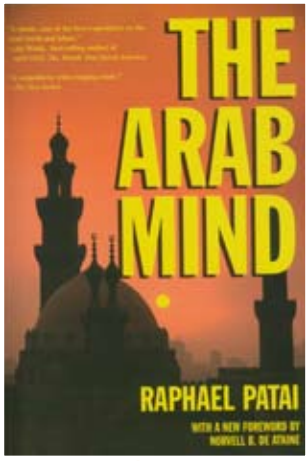

العقل العربي 21

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

الفصل السادس: القيم البدوية

1. حسن الضيافة

يرجع تاريخ حسن الضيافة لدى البدو إلى زمان المرويات التوراتية وما قبلها. فالمنحة العظيمة التي تلقاها إبراهيم من الرب كانت لحسن الضيافة التي فاقت الحد الطبيعي، ويظهر ذلك من سياق الإصحاح الثامن من سفر التكوين والذي تضمن وصفا دقيقا للوليمة التي صنعها إبراهيم لزواره الإلهيين بحيث تجاوز وصف الوليمة وصف الحوار الذي دار بينه وبين الرب وما قطعه الرب له من وعد بأن يمنحه ولدا من زوجته المسنة سارة. وطويلا ما تناقل الناس ذكر حسن الضيافة لدى البدو، الورثة الحاليين لإبراهيم. ويعدّ حسن الضيافة من الصفات النبيلة التي يحرص حتى أفقر البدو على أدائها بفخر، وتثير الإعجاب حتى في صيغتها المعدلة والمقنّنة التي يصادفها المرء في تقاليد المدينة العربية. لكن دور هذه الخصلة في تقوية الجماعة التي تمارسها ما زال بعيدا عن دائرة الاهتمام. وبصرف النظر تماما عن المكانة الاجتماعية التي تتعزز للمضيف السخي، فإن سلوكه الكريم يضمن له تابعين محتملين وحلفاء سياسيين عند نشوء النزاعات القبلية. وبصياغة أخرى يمكن القول أن حسن الضيافة، شأنه شأن القيم البدوية الأخرى، يخدم تماما الغاية الأهم في الحياة البدوية: تقوية الجماعة.

لا يمكن معرفة أصل خصلة حسن الضيافة لدى البدو سوى عن طريق التخمين. إذ ربما تكون نشأت استجابة لحاجة ماسة من حاجات الصحراء: فمن دونها لا مفرّ من أن يفقد البدوي حياته إن هو ابتعد عن محيطه الحامي المتمثل في الأقرباء والقبيلة. وإن لم تقتله الصحراء ذاتها، فسيلقى حتفه على يد أول جماعة بشرية يصادفها. إن عذاب الفرد الذي فقد أقرباءه وحماته تم تجسيده تراثيا في نداء قابيل: «عقوبتي أعظم من أن تحتمل...

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

الفصل السادس: القيم البدوية

وأكون شريدا طريدا في الأرض، ويقتلني كل من يجدني.» فإذا زال الملجأ الحامي الذي يمثله حسن الضيافة فإن كل عربي في الصحراء سيتحول إلى هارب وهائم على وجهه، لأن أعراف حسن الضيافة تقتضي أن يعتبر الهارب ضيفا مكرما يجب على المضيف أن يحميه ولو كان ذلك على حساب حياته نفسها.

وإذا لم يتم استقبال الغريب بحسن الضيافة أو أوذي بعد استقباله، فإن ذلك لا يعد إهانة بحق شرف القبيلة وأعرافها فحسب، إنما تمتد إلى الله ذاته الذي يعد الحامي الحقيقي.

وتصل أعراف حسن الضيافة إلى حد مفرط من الشدة والصرامة بحيث تفرض على المضيف تضحيات عظيمة أحيانا، وربما تجبره على الامتناع عن أداء واجب مقدس: كأن يتغاضى عن قاتل سفك دم أحد أقربائه. وتفرض الأعراف على المضيف أن يستقبل في خيمته ويحمي كل من يأتيه سائلا الحماية، وإن كان هذا الضيف أحلّ دمه في قضية ثأر تتصل بالمضيف. ومما يقتضيه هذا الواجب المقدس في بعض الأنحاء البعيدة من الجزيرة العربية: أن يقوم المضيف بإتمام التزام أهم من التزامات حسن الضيافة وهو أن يسمح لضيفه بالدخول ضمن الحرم الجنسي لنسائه. وثمة تقارير من جنوب شبه الجزيرة العربية تشير إلى وجود عرف بحسن الضيافة الجنسية تمت المحافظة عليه إلى وقتنا هذا، وسنناقش ذلك في الفصل الثامن.

لا يمكن للفقر أن يعد سببا كافيا يعذر البدوي من القيام بواجبه السامي في أداء حسن الضيافة من خلال إيواء وإطعام الضيف لثلاثة أيام، سواء أكان صديقا أم عدوا، حتى وإن كان هذا الفقر على درجة شديدة كالتي نصادفها في المجموعات القبلية الضعيفة في الصحراء. وثمة قصص متداولة في أعراف البادية تبدو للأذن الأوروبية غير الخبيرة بالعرب وكأنها ما ورد في الكتاب المقدس عن قصة الابن الضال الذي أنفق أمواله تبذيرا لكنها عند البدو تعد فضيلة حقيقية. ومن هذه القصص ما يروى عن أبو زيد الهلالي البطل الأسطوري لقبيلة بني هلال، والذي نفّذ واجبات حسن الضيافة من خلال ذبح جماله واحدا تلو الآخر

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل السادس: القيم البدوية

كي يطعم ضيوفه الذين لم يوجه لهم الدعوة أصلا. مما أدى في النهاية إلى أن يخسر كل جماله ويعيش هو نفسه في مجاعة. وتقديرا لشخصيته. قدّم له أقرباؤه في القبيلة عدة جمال بعد أن جعلوه يقطع لهم وعدا بعدم التضحية بها لغرض حسن الضيافة. وبما أنه لم يكن يملك الخيار في الأمر. فقد وافق أبو زيد الهلالي. لكن إدمانه الشديد على حسن الضيافة لم يترك له إلا ناقة لبون. وبعد عدة أيام. وبينما كان أبو زيد جالسا أمام خيمته. لاحظ خيال شخص يقترب في الأفق البعيد. فاختبأ في خيمته خشية من أن يرى الضيف يقترب ويضطر إلى دعوته ليكون ضيفه. لكنه لم يستطع أن يمنع نفسه من سؤال زوجته عما إذا كان الضيف قد تم استقباله في إحدى الخيمات. وبعد أن تلقى الغريب الرفض عدة مرات وأصبح قريبا من خيمة أبو زيد. لم يستطع أبو زيد أن يكبح جماح نفسه وهرع إلى الغريب ورجاه بأن يكون ضيفا في خيمته. وقام بذبح جمله الأخير ليؤدي واجبه السامي وينال امتياز حسن الضيافة البدوي.

لقد جرت تعديلات كبيرة على حسن الضيافة عند المجموعات البشرية المتحضرة. ففي القرية أو المدينة لا يكون البيت مفتوحا للغرباء كما هو حال الخيمة في الصحراء. ولا يجرؤ الغريب على أن يطرق بابا في الأحياء المحافظة في المجتمعات المتحضرة التي تشهد انعزالا مشددا ما بين الأجناس المختلفة. وبينما يبقى حسن الضيافة عرفا عاما ربما يمارسه المرء خلال حياته. توجد بالإضافة إلى ذلك مناسبات خاصة في حياة المرء ينبغي فيها ممارسة حسن الضيافة بشكل مفرط. ومن هذه المناسبات: الزواج. الوفاة. الختان. وإتمام بناء البيت؛ ومن الشائع أن يشهد شهر رمضان تزاورا وتبادلا للمأكولات ما بين القرويين. وبالأخص ضمن الفقراء منهم.

سواء أكان ذلك في البدو أو الحضر. يرتبط حسن الضيافة عضويا بالشرف. أو بصيغة أوضح. بمفهوم «الوجه.» فممارسة حسن الضيافة على نحو مترف تؤدي إلى «تبييض الوجه.» أي الإعلاء من شأنه. وعلى العكس من ذلك. تؤدي عدم ممارستها إلى تسويد الوجه. وإذا ما لم يعامل ضيف ما بحسن الضيافة. فإن ذلك ينعكس على القبيلة أو القرية

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

بكاملها ويلوث سمعتها. كذلك، فإن الإذعان لهذا العرف النبيل لا يتولد من رغبة المضيف بتبييض وجهه فحسب، وإنما ينشأ أيضا عن ضغط الحاجة إلى الحفاظ على سمعة التكتل الاجتماعي الأشمل الذي ينتمي له وعائلته.

وفي قرية كفرالما الأردنية التي تقع على الضفاف المقفرة الشرقية لوادي الأردن، يتم توجيه الضيوف العابرين الذين يودون المبيت إلى أغنياء القرية الذين يقدرون على توفير وجبة جيدة ومبيت مناسب، حيث يقع على عاتق هؤلاء واجب الحفاظ على سمعة القرية.

ينطبع عرف حسن الضيافة في ذهن الطفل العربي في سن صغيرة. ولم أتمكن إلا مؤخرا من ملاحظة كيف تنغرس هذه الفضيلة عند الصغار -حتى ضمن المجتمعات العربية المتحضرة التي تتبع النمط الأوروبي في العيش. ففي صيف عام 1971 ذهبت لزيارة منزل صديق عربي قديم يسكن أطراف القدس الشرقية. ولما لم يكن لديه هاتف، لم أتمكن من الحصول على موعد مسبق معه. وعندما وصلت للمنزل كان صديقي غائبا هو وزوجته وأبناؤه الكبار، ولم يكن هنالك غير ابنته ذات السنوات العشر وابنه ذو السنوات الثلاث عشرة يلعبان في حديقة المنزل الخلفية، وبما أنني لم أزر عائلة صديقي منذ سنتين أو ثلاث، كنت واثقا من أن الأطفال لن يتمكنوا من تذكري، وقلت للطفلين بأنني صديق لوالدهما وأنني سأعود في وقت آخر، لكنهما لم يدعاني أغادر، وأصرا على أنتظر والدهما في المنزل حيث سيعود بعد وقت قصير. ترددت أول الأمر، ثم انصعت لرغبتهما، فأجلساني في غرفة المعيشة وأحضرا لي، دون سؤال، الفستق والفواكه والكعك وقنينة من الكولا وعرضا علي السجائر. و كان عليّ أنا أن أحافظ على استمرار الحديث بالسؤال عن المدرسة وما شابه، لأنهما طبقا كافة أشكال حسن الضيافة بشكل محترف بحيث أجرؤ على القول أنه كان جزءا من شخصيتهما.

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©
شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

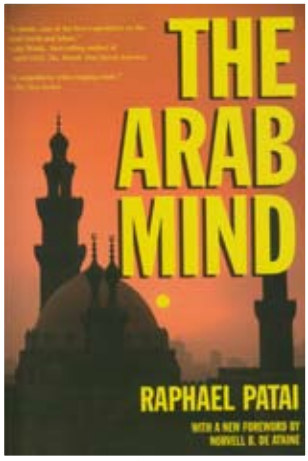

العقل العربي 22

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

الفصل السادس: القيم البدوية

2. الكرم

يعد حسن الضيافة التعبير الأكثر تحديدا وتمييزا لقيمة أشمل تعود بجذورها إلى البدو، وهي الكرم. ويقوم الكرم المفرط في المجتمع العربي التقليدي بالموازنة ما بين تراكم الثروة ونشوء حالات غير عادية من الغنى والفقر المفرطين. ويقتضي الكرم القيام بنوع محدد من توزيع الثروة من خلال إعادة توزيعها، وهو بذلك يقترب من الواجب الإسلامي المتمثل في دفع الزكاة التي تعتبر أحد «أركان الإسلام الخمسة». والواجب المالي الديني-القانوني الوحيد المفروض على من «يملكون» تجاه من «لا يملكون.»

وعلى الرغم من أن هذا الواجب الإسلامي ليس إلا انعكاسا بسيطا للفضيلة البدوية القديمة المتمثلة في الكرم، فإنه مع ذلك يعززها ويؤكد تقبلها العام في أوساط البدو والحضر على نحو سواء. وللزكاة ارتباط وثيق بإيمان الشخص بأن الله مهيمن على مصير الناس على المستويين الفردي والجماعي. وكما جاء في القرآن: [والله فضّل بعضكم على بعض في الرزق] (سورة النحل، الآية 71). ومن هنا يكون التوزيع غير المتساوي للثروة مظهرا من مظاهر القدرة الإلهية. وهذا المبدأ يشكل ضغطا هائلا على الأغنياء ويدفعهم إلى إعطاء الفقراء شيئا من ممتلكاتهم. أما البخل فهو أمر مرفوض ويعتبر من المواضيع الرائجة على ألسنة خطباء الجمعة.

ثمة قرب كبير بين مفهومي حسن الضيافة والكرم بحيث يتم الإشارة إلى كليهما باستعمال المصطلح نفسه أحيانا. وعند السودانيين تشير كلمة الكرم إلى الكرم وحسن الضيافة كليهما دون وجود فارق مميز بين الاثنين. ويعد حسن الضيافة أكثر الوسائل

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل السادس: القيم البدوية

المتاحة للحصول على استحسان المجتمع واحترامه مما يؤدي إلى زيادة الإحساس باحترام الذات. ويتم الحكم على المرء بشكل واسع من خلال الطريقة التي يعامل بها ضيوفه. ومن القيّم جدا أن يوصف العربي بأنه مضياف. مما يجعله يتفاخر بذلك أمام ضيوفه عالما بأنهم سينشرون أخبار كرمه. وعندما يكون الأمر كذلك، تنشأ قوانين معقدة جدا وشديدة التفصيل حول عملية استقبال الضيوف. تتضاءل أمامها طقوس تقديم الشاي عند اليابانيين.

يعد البيت المكان الأفضل لإبداء كرم المرء. ففيه يستطيع أن يغدق اهتمامه ومجاملاته اللطيفة ويقدم الطعام والشراب والسجائر والأزهار لضيوفه. لكن ذلك لا يمنع الشخص الذي يحترم نفسه بحق من أن يحمل كرمه معه أينما كان. فإذا ما صادف صديقا في الشارع فإنه سيصر على دعوته إلى بيته، أو إلى المقهى أو المطعم إن كانا بعيدين جدا عن البيت. وإذا ما اعتذر الصديق بأن عليه أن يذهب إلى مكان ما. فإن الرجل الكريم الذي يحترم نفسه سيعرض عليه إيصاله إلى مقصده بسيارة أجرة. وإذا كان يقود سيارته ورأى أثناء ذلك أحد أصدقائه ماشيا فإنه سيتوقف ويصر على إيصاله إلى مقصده وإن كان ذلك في الاتجاه الآخر من الشارع. وإذا التقى صديقان في الحافلة، فسيحاول كل منهما أن يقنع الآخر بأن يدفع أجرته. ومن هذا القبيل ما يحدث من تقديم الهدايا والإنفاق الباذخ للمال في المناسبات.

وبما أن حسن الضيافة والكرم يعتبران فضيلتين مهمتين على النحو الذي سلف، فإن العادات والتقاليد كان عليها التأكد من أن تبعد الإحباط عن المرء الذي يريد العيش وفق هذه المثل. لأن من يرفض دعوة أو هدية سيصيب المضيف أو المُهدي بالإحباط. ومن هنا قضت الأعراف والتقاليد بوجوب قبول الدعوة والهدية. أما الرفض فهو مساوٍ للإهانة والاستخفاف والازدراء. ويمكننا من هذه الملاحظات القليلة أن نستنتج بأن هذه الأعراف تبتعد كثيرا عن الوصية القرآنية بمساعدة من هم في حاجة شديدة وأداء الزكاة.

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

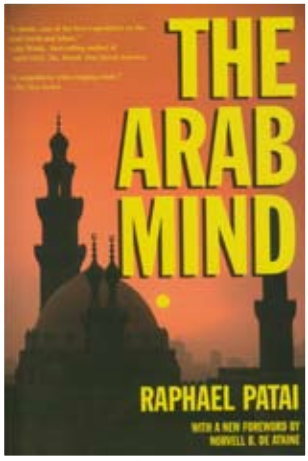

العقل العربي 23

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

الفصل السادس: القيم البدوية

3. الشجاعة

من الصعب جدا التمييز ما بين البسالة والشجاعة في المفهوم العربي. إذ يبدو أن البسالة تمارس بشكل أساسي في سعي الإنسان من أجل المخاطرة بحياته في سبيل مصلحة المجموعة. بينما تعني الشجاعة أساسا القدرة على تحمل الألم الجسدي أو الضغط العاطفي من خلال ضبط النفس إلى حد لا يمكن فيه لأي صوت أو إيماءة أن تصدر لتخون أداء التجربة التي يمر بها. فعرب السودان، مثلا، ينخرطون طوعيا في أداء عدة ألعاب لاختبار شجاعة الأولاد البالغين، حيث يتعرض هؤلاء للضرب بالسوط، أو تكوى أيديهم بعيدان الذرة المشتعلة والسجائر، أو تجرح بالسكاكين. ومن أجل الهدف ذاته المتمثل في تعويد الأولاد البالغين على الألم الجسدي، يفضل أفراد قبيلة الرولة البدوية تطبيق نوع آخر من العقاب على من يبلغون الرابعة عشرة أو السادسة عشرة من العمر، ويتمثل ذلك في قيام الأب بجرح ابنه بالسيف أو طعنه بالخنجر، وبذلك لا يكون العقاب مجرد جرح أو طعنة، بل تهيئة للحياة المستقبلية. وفي مصر يشيع استخدام أنواع من العقاب الجسدي مثل الضرب بالأيدي والسياط. وليس غريبا في البلدان العربية الأخرى أن نشاهد عقوبات جسدية قاسية.

وفي هذا السياق يشار إلى الأنواع المختلفة من الختان التي يختبرها الأطفال في البلدان العربية، والتي تعتبر اختبارا لشجاعتهم. وأحيانا يجرى الختان قبل الزواج مباشرة بوجود العروس. وأشد أنواع الختان ألما ما يمارس ضمن بعض القبائل العربية في منطقتي الحجاز وعسير في السعودية، حيث يزال كامل الجلد المغطي للعضو الذكري بالإضافة إلى جلد المنطقة المحيطة به في البطن والقسم الداخلي من الفخذ. وبينما تتم العملية، ينبغي

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل السادس: القيم البدوية

على الشاب أن يبدي شجاعة فائقة، وينهض بعد ذلك مبديا سعادته الغامرة بصوت عالٍ، وملوحا بخنجر طويل! وأثناء إجراء هذه العملية تجلس العروس أمامه ضاربة على الطبل مرددة زغاريد الفرح بصوت عال. وإذا ما صدرت عنه آهة صغيرة فلها الحق في رفض الزواج منه. وفي البلدان العربية الأخرى التي تمارس فيها عمليات ختان أقل قسوة يبقى عنصر امتحان الشجاعة حاضرا أينما حدثت. (فيما يخص البنات، واللاتي لا يتوجب عليهن أن يتحلين بالشجاعة، يسمح لهن أن يبكين وينتحبن بقدر ما يشأن أثناء عملية الختان).

إن الشجاعة المتوقعة من الشاب أو الكهل العربي هي بالأساس مسألة مظهر خارجي. ويميل الكثيرون إلى القول بأن الطفل العربي الذكر تتم تنشئته اجتماعيا ليتصرف بشجاعة ويظهر بمظهر الشجاع دون أية مراعاة لمشاعره الحقيقية. وسيحسب في عديد الشجعان ما دام قادرا على كبح أية إشارة يفهم منها أنه خائف أو أنه يعاني جراء الألم الذي يمارس عليه. ومع ذلك، فإن العربي، ودون وعي منه بأنه يمارس دورا ما، تجده لا يعلم بأنه يخفي بعض الضعف خلف واجهة الشجاعة. إنه يؤمن بذاته وليس مدركا للضعف الداخلي الذي قد يدفعه إلى مثل هذا السلوك المتكلف. ويظهر الضعف الداخلي جليا، على الأقل من وجهة نظر مراقب للناحية النفسية، عندما تؤدي الاتهامات التي يخشاها إلى رد فعل كبير. فالشخص الذي لا يخاف حقيقة هو الذي لا يبالي باتهامه بالخوف. أما من يكتفي بإخفاء خوفه أو ضعفه فسيتعرض إلى جرح عميق إن هو جوبه باتهام بذلك ويكون رد فعله على الأمر بأن يرد على التحديات والإهانات التي تطعن فيه. ويشار هنا أيضا إلى أن سطحية شجاعة العربي تقف وراء رغبته في أداء أعمال جميلة المظهر وفارغة المضمون من أجل استثارة الخيال. وفي العديد من المناسبات يقوم العربي ببطولات لا تتناسب مع إمكاناته، لكن كثافة مشاعره في لحظة ما تقويه على إنجاز أعمال غير طبيعية.

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

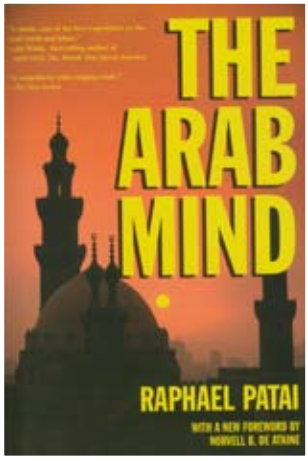

العقل العربي 24

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

الفصل السادس: القيم البدوية

4. الشرف

كتب الكثير عن الشرف عند العرب، لكن ما لم يتم البحث بإسهاب حوله، على الأقل وفق ما أعلم، هو وجود ترابط عميق بين الشرف وبقاء الجماعة. إن السلوك المشرّف هو الذي يساعد على تمتين ترابط الجماعة وبقائها، مما يؤدي إلى تقوية الجماعة وخدمة مصالحها؛ بينما يكون السلوك معيبا عندما يتجه إلى التشويش على الجماعة أو تعريضها للخطر أو عرقلتها أو إضعافها.

إن الشرف في العالم العربي مفهوم عام يظهر بأشكال مختلفة. ومن هذه الأشكال: هناك الشرف الذي يتأتى عن طريق الرجولة المتمثلة بكثرة الأبناء، والشرف الناتج عن أداء أعمال معينة والامتناع عن أخرى: ولهذا فإن من الشرف أن يقوم البدو بتدليل جمالهم، ومن العار القيام بأعمال حرفية أو زراعية. وثمة نوع ثالث من الشرف هو المترابط مع السيف، أي: القدرة على الدفاع عن النفس ضد الأعداء بقدر من الشجاعة عموما. وللحصول على الحماية من قبيلة أقوى يقوم البدوي بدفع الخوّة (مال يدفع مقابل الحماية) وهذا يؤدي إلى تدني شرفه على نحو كبير. ويعد القيام بغارات الغزو وفق الأعراف المرعية عملا مشرّفا، ومن العار الامتناع عن القيام بذلك. ومن المشرّف القيام بحماية القطيع ضد الغارات، وكذلك امتلاك قطيع من الأنعام. كما تعد حسن الضيافة والكرم من الأمور المشرفة، ويصيب العار من لا يحسن الضيافة أو يبخل على ضيوفه. ومن المشرّف أيضا: نقاء الدم العربي من جهة الأبوين كليهما، وإظهار حس عميق بالتلاحم ما بين الأقارب في القبيلة، والتصرف بنبل والحرص على «الوجه» من أن «يسود» تحت أي ظرف من الظروف، والعمل بجهد على «تبييض» وجه الفرد ووجه الجماعة التي ينتمي إليها. ومهما كانت التكلفة،

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل السادس: القيم البدوية

على البدوي أن يحمي صورته أمام الناس. وأي أذى يمس شرفه يجب أن يتم الثأر له. وإلا يفقد احترامه تماما. وبالطبع هنالك الشرف الجنسي للمرأة الذي يشكل ميدانا يمكن من خلاله وصم أسرتها بعار خطير ودائم.

ومن الممكن لمفهوم الشرف أن لا يقتصر على الفرد فحسب، وإنما يتعداه بسهولة إلى العائلة والقبيلة والأمة بشكل عام. وتبعا لهذا صدرت فتوى عن لجنة الإفتاء في جامع الأزهر في 11 يوليو 1952 تنتقد بشدة من يدعي أن مصر يجب عليها أن تقوم بتحديث موقفها من المرأة وتفعل ما تنتهجه باقي الأمم في القرن العشرين، وهو ما اعتبرته الفتوى تقليدا أعمى يتنافى مع شرف مصر.

إن كل ما سبق من أنواع الشرف، والتي تتميز بوضوح في الحياة العرب وتصبح فاعلة ضمن أوقات ومناسبات عديدة، تحيط بالأنا العربية بشكل محكم وكأنها درع. وكل ثقب في هذا الدرع يهدد بانفلات حلقاته وتداعيها، لذا كان من الواجب إصلاح الدرع فورا وبكل تصميم عند حدوث ذلك. وهناك من يرى أن الحساسية المفرطة التي يبديها العربي تجاه أي تعدّ على شرفه إنما هو نوع من جنون الارتياب. وهناك من ينطلق من وجهة نظر إيجابية فيرى ذلك تعبيرا عن الفخر وإصرار على التمسك بمعايير أخلاقية عالية. ولا يمكنني أن نتخذ موقفا من هذه القضية، لكن يجب أن أشير إلى ذلك باعتباره إحدى الخصائص المهمة من خصائص العقلية البدوية التي تركت أثرها على العقل العربي بشكل عام.

ثمة مكونان لظاهرة الشرف لهما علاقة ببقاء المجموعة، وهما: الرجولة، وروح القرابة. وفي الهيكلية القيمية البدوية يزداد المرء شرفا عندما يكثر أبناؤه -الذكور منهم بخاصة. وعادة ما يفسر ذلك بأن كثرة الأبناء دليل مادي على الرجولة.

إن الرجولة من الصفات المهيمنة التي يتمسك بها المرء وإن كان ذلك على حساب التضحية بقيم أخرى. وأي ذم يوجّه للرجولة يعتبر عارا كبيرا إلى حد يفرض على المرء أن يبذل أقصى جهده لإزالة أي ظل من الشك قد يحوم حول رجولته، وإن كان ذلك يجعله

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل السادس: القيم البدوية

مسؤولا عن التسبب بعار آخر لنفسه. وتعد العنانة سببا من الأسباب القليلة التي يمكن للمرأة أن تستخدمها من أجل الحصول على الطلاق. وإذا ما صحت دعوى الزوجة يوافق الزوج على طلاق هادئ لا يعرضه للعار على الملأ. أما إذا كانت الزوجة كاذبة فالزوج يصاب بالاستياء الشديد ويصر على إثبات كذبها. وإن كان ذلك يفرض عليه أن يقوم بعمل جنسي دون مراعاة للخصوصية العرفية المطلوبة. وثمة تقارير حول كيفية القيام بذلك لكنها مبهمة (في أوساط قبيلة أولاد علي في صحراء مصر الغربية)، وتتضمن العملية أن يدخل الزوجان إلى ما يدعى «بيت الشنعة» ويبدو أنه خيمة بسيطة تصنع بطريقة تمكّن أحد الجيران الموثوقين، أو أكثر من ذلك، من أن يشاهد ويسمع ما يجري بين الزوجين. ويمكن الافتراض هنا بأن الزوج لا يخضع لهذه المحنة إلا إذا كان عنّينا ولم يكن لديه طريقة أخرى لإثبات كذب ادعاء زوجته. وبذلك ينبغي عليه أن ينتهك قيمة مهمة ولكنها أدنى درجة من الرجولة: وهي الخصوصية الجنسية.

وكما يظهر في هذه الحالة، جاءت الرجولة باعتبارها قيمة عليا على مستوى الواقع. وما الذي بإمكانه أن يبرهن على الرجولة أكثر من كون المرء أبا لذرية كبيرة؟ وبهذا المنظار تصبح كثرة الأبناء مدعاة لشرف كبير. لكن سببا أعمق يكمن خلف الشرف والاحترام الذي يُكتسب من خلال الذرية الكبيرة؛ فكل من كثرة الأولاد وما تنم عنه من نشاط جنسي تخدمان الجماعة بشكل مباشر التي يشكل الرجل وذريته جزءا منها. ففي المجتمع البدوي توجد علاقة متبادلة مباشرة ما بين السلامة، وما يتبع ذلك من فرص البقاء، وبين عدد الذكور القادرين على المشاركة في القتال ضد الغارات. وهذا يضيف إلى الأهمية الكبيرة التي تولى للذرية الذكرية. أما أهمية الأطفال الإناث من وجهة نظر بقاء الجماعة وسلامتها فلا تفرض نفسها إلا بعد مضي جيل: وذلك بأن تقوم الذرية الذكرية التي تنجبها بتعزيز القوة البشرية العاملة في الجماعة.

يمكننا من خلال الاعتبارات السابقة أن نحصل على واحد على الأقل من الأسباب التي تدعو البدو إلى تفضيل زواج الأقارب: إذ يجب الحفاظ على الطاقة الإنجابية لنساء

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل السادس: القيم البدوية

المجموعة على المستوى الداخلي لضمان بقاء الزيادة الطبيعية والتعويض الناجم عن الزواج ضمن المجموعة نفسها دون أن يكون ذلك لصالح مجموعة أخرى قد تكون معادية. وإذا ما تم السماح بحدوث زواج الأباعد (وهو ما يحدث بشكل استثنائي في المجتمع البدوي)، فسيكون ذلك بمراعاة الأعراف الأبوية المسيطرة على قانون الأنساب. وسيلتحق الطفل المولود في هذا الزواج بنسب أبيه وبهذا ينشأ غريبا كليا عن الجماعة التي تنتسب أمه إليها. وإذا ما أخذنا هذا المبدأ إلى المستوى التالي، فإن الزواج الأكثر تفضيلا عند البدو هو ما يحصل بين أبناء العم؛ وهذا الزواج يعني بأن الأطفال الناتجين عنه سيكونون أعضاء في نفس العائلة مما يزيد عددها، وقوتها، ومقامها، وشرفها. وكل شاب يمتلك الحق والواجب في الزواج من ابنة عمه؛ وفي الواقع، يتوقف شرفه إلى حد ما على أداء هذا الواجب. ومرة أخرى نقول: إن الأعراف العشائرية تعتبر الأمور المشرّفة هي التي تزيد من ترابط الجماعة، وترفض الأعمال التي تميل إلى إضعافها.

إن الأمر ذاته يقف خلف العلاقات القوية التي تربط العوائل. فشرف عميد العائلة يعتمد إلى مدى كبير على مقدرته في مجال فرض إرادته على أفراد العائلة. ومن يحصل على احترام أفراد عائلته ويقود ولاءهم فإنما هو يحظى بالشرف داخل عائلته وخارجها، وضمن الكتلة الاجتماعية الأشمل -العشيرة أو القرية- التي تنتمي إليها عائلته. والعائلة الموالية والمطيعة قوية ومتحدة في الدفاع عن مصالحها ضد العوائل الأخرى التي تنافسها، كما تدخل ضمن حسابات التكتل الأشمل في ما يخص العلاقات الخارجية. وهكذا، يبرهن مفهوم الشرف على أنه عامل مساهم في عملية تقوية الجماعة.

على مدى التاريخ، ارتبط حس الشرف عميقا بروح الجماعة، وكان كلاهما -وما زالا- يدعوان بنفس المصطلح: «العصبية.» وتعني العصبية في الأساس «روح العائلة» أو «روح القرابة» (العصبية من الفعل عصب: جمع وربط). ومع أن النبي محمد شجب العصبية باعتبارها منافية لروح الإسلام، فإن ذلك لم يلغها من الوعي العربي. وذهب ابن خلدون إلى حد الاعتقاد بأن العصبية هي الرابط الأساسي في المجتمع البشري والقوة المحرضة

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

الرئيسية في التاريخ.

إن المعنى الأساسي لمصطلح «العصبية» يشير إلى تلاحم القبيلة، أو الروح التي تجمع جماعة تنتمي إلى قبيلة أو ما يتفرع عنها. أما المعنى الثاني «حس الشرف» فتم افتراضه انطلاقا من أن الإخلاص للجماعة كان يعتبر التعبير الضروري الأفضل عن حس الشرف ضمن المجتمع القبلي العربي. وتقتضي العصبية ضمنا أن يظهر المرء ولاء مطلقا غير مشروط لأقرانه من رجال القبيلة، إلى حد يجعله يترك زوجته في سبيل ذلك كما يشير أحد الشعراء. إن هذا العرف القبلي الخاص والصارم يفترض، بالطبع، أن القبيلة تشكل وحدة بنفسها وتتصف بالاكتفاء الذاتي والفرادة وتعتبر كل القبائل الأخرى ضحية مشروعة وعرضة للغارة والنهب. إن هذه الصفات غير الاجتماعية التي تصاحب العصبية دون ريب، بقيت منطبعة في الشخصية العربية منذ فجر الإسلام، وكما يرى المؤرخ فيليب حتي: «كانت من بين العوامل الحاسمة التي أدت إلى تفتت وسقوط العديد من الدول الإسلامية.»

وبالرغم من أن العصبية هي في المقام الأولى من الخصائص البدوية كما أسلفنا، فإنها انتقلت من البيئة البدوية إلى البيئة الحضرية من خلال شكل آخر هو العائلة والتلاحم النَّسَبي. وتتمتع روابط القربى -العائلية منها في الأساس- بسلطة فائقة في كافة نواحي المجتمع العربي التقليدي. وبقيت هذه الروابط محافظة على تأثيرها حتى في أوساط من يغادر موطن عائلته ويسكن لسنوات في مدينة بعيدة أو بلد آخر. ويقدم المهاجرون اللبنانيون صورة توضح ذلك من خلال ما يرسلونه لأهلهم بانتظام من مبالغ مالية، ولا يقتصرون في ذلك على القرابة المباشرة إنما يتعدونها إلى من ينتسب إلى العائلة وإن بَعُد نسبه. ولي صديق عربي قرأ مرة خبرا في الصحف عن أحد أبناء عمومة الرئيس الأمريكي نيكسون والذي كان يتلقى معونات الرعاية الاجتماعية، فعلق على ذلك باستغراب كبير قائلا أنه لا يستطيع أن يتخيل حدوث شيء كهذا في بلده: لأن مساعدة ابن العم وغيره من الأقارب واجب أخلاقي مثله مثل مساعدة الأب لابنه.

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل السادس: القيم البدوية

وفي سبيل إطلاق تعميم أوسع يمكننا القول أن عصبية المجتمع القبلي العربي القديم استطاعت البقاء، على المستوى العملي، بنفس الشكل والشدة ضمن أوساط البدو العرب الذين تغير نمط حياتهم بشكل طفيف في بعض الجوانب. وحيثما تقتحم الحداثة مكانا ما، تجد التلاحم العائلي والقبلي يدخل مرحلة التلاشي التدريجي. ويمكن ملاحظة الضعف التدريجي ذاته الذي يصيب الأنماط التقليدية الشديدة من تلاحم الجماعة وهو يصيب المجتمع العربي الحضري أيضا. وانطلاقا من أن الحداثة أكثر تقدما في المدن مقارنة بالقرى، فإن قدرا أكبر من تلاحم الجماعة تتم المحافظة عليه في القرى مقارنة بالمدن. ومع ذلك، فحتى في أوساط عوائل النخبة العربية المتحضرة المتأثرة بالغرب، لا تزال دعوى القربى أقوى من أي دعوى يعرفها الغرب. ويمكننا أن نداوم على وصف الثقافة العربية بأنها «ثقافة قربى» ولا يزال الطابع «العائلي» يميزها كما كان في الماضي.

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

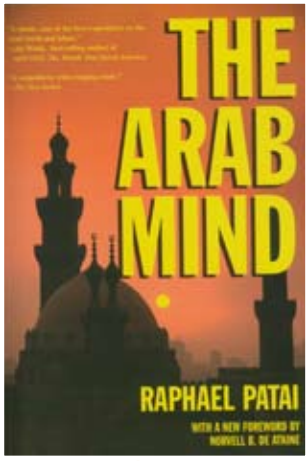

25 العقل العربي

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

الفصل السادس: القيم البدوية

5. احترام النفس

يقترب مفهوما الشرف واحترام النفس من بعضهما البعض بحيث يكاد المرء لا يميز بينهما. إن كافة الأفعال والأقوال والأحداث التي لا تتفق مع الأعراف المتوافق عليها، وبأي تواتر حصلت، تؤدي إلى الحط من الشرف، وقد تصل إلى حد فقدانه. وهذه بدورها، أي تقليص أو تدمير الاحترام الذي يتمتع به في عيون الآخرين، لها بالنتيجة أثر مشابه في النهاية على احترام النفس. وإذا ما تعرض الشرف للأذى، فلا بد من بذل جهود كبيرة لاستعادة وضعه الأصلي. وإذا ما فقد المرء شرفه، فيكاد لا يجد سبيلا لإرجاعه. ويعتبر الشرف ملكية تعود لأفراد العائلة ويشارك الجميع في صناعتها: فإذا قام أحدهم بعمل مشين، لحق العار بالعائلة أجمعها. والحال هذا يشبه طوف نجاة تستقله العائلة وتبحر به في خضم أمواج خطرة لبحر هائج هو المحيط الاجتماعي. فكلما التزم جميع أفراد العائلة بقوانين العرف، كلما كان هذا الطوف القلق أقدر على إيصالهم إلى بر النجاة. ومع ذلك، يمكن لأي حركة لاإرادية تصدر عن أحد أفراد العائلة، ومهما صغرت، أن تؤدي إلى ثقب في الطوف الهش، وبذلك يغرق الجميع.

مما سبق يتبين أنه على البالغين في العائلة أن يحرصوا على أن لا يقترف أي فرد من العائلة ذنبا يلحق الكارثة بالجميع. وعليهم أن يتأكدوا -قبل كل شيء- من أن سلوكهم خال من الأخطاء من خلال المحافظة -وبأي ثمن كان- على المظاهر الخارجية التي يفرضها قانون الشرف. وبعد ذلك تأتي المهمة الأصعب المتمثلة في المحافظة على شرف نساء العائلة، وهي مهمة ينبغي على الرجال القيام بها، أو أن يشرفوا عليها بدقة على الأقل، وذلك لأن النساء ضعيفات جدا على أن يعتمد عليهن في مسؤوليات صعبة كهذه. وسيتم

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

الفصل السادس: القيم البدوية

مناقشة هذا الموضوع المهم وشديد الحساسية في الفصل الثامن.

إذا ما فُقِد الشرف، فُقِدت الكرامة. والعلاقة ما بين هذين المفهومين، بالإضافة علاقتهما باحترام النفس، يمكن تمثيلها بأحسن تمثيل من خلال نظرية أحجار الدومينو. فعندما تفقد امرأة شرفها، يفقد الرجال في عائلتها شرفهم، مما يؤدي إلى فقدانهم كرامتهم، وهذا يؤدي بدوره إلى فقدان احترام النفس. إذن: ما الذي يمكن فعله عندما يتعرض المرء إلى تهديد بفقدان الكرامة؟ أولا، إذا كان التهديد متعلقا بفقدان امرأة لشرفها، فإن الأعراف تقدم العلاج التقليدي: على رجال العائلة (إخوتها أو أبيها) أن يقتلوها. وإذا فعلوا ذلك برهنوا للجميع أنهم قطع العضو المهين من جسم العائلة، وذلك يتيح للجسم أن يتعافى وينجو. وتاليا، قد يحاولون قتل عشيقها، وذلك ثأرا لما تسبب به من إزهاق روح فرد من عائلتهم.

بما أن الكرامة تستند إلى الاحترام الذي يحصل عليه المرء من الآخرين، فإن تعرضه للإهانة يلحق الأذى بكرامته. ولاستعادتها كما كانت، ينبغي عليه أن يبدي ردة فعل هائلة: وذلك بأن يرد على الإهانة بإهانة أشد ليري الجميع أنه لا يصبر على الإهانة، وأنه «يثور» ضدها، وأنه ينهض ويسخر كل طاقته للرد على الهجوم. إن من يتحلى باحترام النفس لا يسمح لأي كان بأن يهينه دون أن يلقى العقاب. ومن خلال قيامه بالدفاع عن كرامته، يفرض على الآخرين احترامه، وبذلك يستعيد احترام النفس.

وبما أن احترام النفس عرضة إلى هذا الحد لتدخل الآخرين، فإن العرب حذرون جدا من أن يتعرضوا للاستصغار ويجدون إهانات شخصية حتى في الملاحظات والأعمال التي لا تحمل أي نية بذلك. وفي ذلك أورد الباحث السويدي توري نوردينستام (Tore Nordenstam) في كتابه (الأخلاقيات السودانية) أن التعليق الساخر أو الناقد الذي يوجهه الأستاذ لتلميذه يفسر على أنه إهانة، كما يعتبر ترفيع المسؤول ذو المرتبة الأدنى إهانة للمسؤول الذي يعلوه مرتبة. وعندما طلب قائد الجيش الأردني غلوب باشا من حاجبه أن يأخذ زوجته لمشاهدة استعراض عسكري رد عليه غاضبا: «هل تظن أنني ممن يجلس مع النساء؟» فمن خلال

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

وضعه لقائده في مكانه، استطاع الحاجب أن «يثور» على الإهانة ويحفظ شرفه.

نستنتج مما سبق: أن الأخلاق العربية تحوم حول نقطة مركزية واحدة، وهي احترام النفس وتقديرها. وأكثر العوامل أهمية في المحافظة على ذلك هو السلوك الجنسي للنساء اللواتي يعد العربي مسؤولا عنهن: البنات والأخوات. وأدى هذا الموقع المركزي لشرف المرأة أو «العرض» إلى أن يتضخم هاجس العفة الجنسية للنساء ليصل إلى شكل استحواذي مفرط في الشدة. أما العاملان الآخران اللذان يستند إليهما احترام النفس عند العرب فهما متلازمتا (الشجاعة-الإقدام) و(حسن الضيافة-الكرم). وبغض النظر عن الهدف المباشر للحفاظ على احترام النفس، فإن كافة هذه الصفات قد وجدت أصلا لخدمة الهدف الأكبر المتمثل في تعزيز المصالح، وصولا إلى الهدف النهائي: بقاء الجماعة.

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

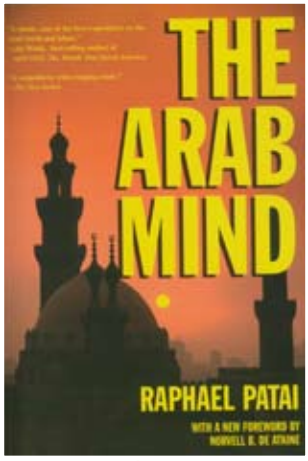

26 العقل العربي

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

الفصل السابع
الأخلاقيات البدوية والمجتمع العربي الحديث

1. الأخلاقيات القرآنية والأخلاق التقليدية

لا شيء يشير بقوة إلى بقاء القيم البدوية في العالم العربي حاليا أكثر من التحقق من عن الأخلاقيات التي يعتنقها العرب باعتبارها قيما عليا في حياتهم. إن مثل هذا التحقق يكشف سريعا عن أن الفضائل التي تظهر أكثر من غيرها في العقل العربي إنما هي ذات علاقة ضعيفة بتعاليم القرآن وتتجاوزه لتعكس على مدى كبير مُثُل القبائل البدوية العربية في عصر ما قبل الإسلام (الجاهلية). ولا يمكن التمييز ما بين هذين المصدرين بسهولة؛ فبعض مُثُل الجاهلية تم دمجها في القرآن والتعاليم الإسلامية. فعلى سبيل المثال ثمة حديث ورد فيه: «انظر أخلاقك التي كنت تصنعها في الجاهلية فاجعلها في الإسلام: أقر الضيف وأكرم اليتيم وأحسن إلى جارك.» وفي الواقع، نجد الوصايا الثلاث ذاتها في القرآن (سورة النساء، الآية 36).

يمكن تلخيص الخصائص الأساسية الأكثر أهمية في الأخلاقيات والفضائل العربية بثلاث متلازمات ترتبط في ما بينها، وهي:

- متلازمة الشجاعة-الحماسة
- متلازمة حسن الضيافة-الكرم
- متلازمة الشرف-الكرامة

ويمكن ملاحظة هذه المتلازمات أينما توجهت في العالم العربي حيث تقوم بتشكيل قوام الأخلاقيات العربية. وقد وجد الباحث السويدي توري نوردينستام (Tore Nordenstam)،

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل السابع: الأخلاقيات البدوية والمجتمع العربي الحديث

الذي أجرى دراسة مكثفة على الأخلاقيات العربية السودانية، أن العناصر المسيطرة في هذه الأخلاقيات تتمثل في «مُثُل الشجاعة، والكرم وحسن الضيافة، وثلة من الأفكار المترابطة شيئا ما حول الشرف والكرامة واحترام النفس.» كما أكد على أن هذه الخصائص ليست محصورة بالسودانيين وإنما تكوّن النظام الأخلاقي الذي يلتزم به العرب في الدول الأخرى على حد سواء.

ولا توجد دراسات منظمة أخرى تتناول أخلاقيات شعب عربي آخر. لكن التعليقات التي أدلى بها حول هذا الموضوع دارسو الحياة العربية في دول متعددة تشير جميعها إلى أن الحماسة، وحسن الضيافة والكرم، والشرف واحترام النفس (الذي يوصف أحيانا بالكرامة أو السلوك الملائم) إنما هي الصفات الشخصية الرفيعة التي تنال التقدير الأعلى.

وبالإضافة لذلك، ثمة دليل إحصائي يشير إلى أن العرب يعتبرون القيم ذات النمط السابق (وبالأخص حسن الضيافة والكرم، البشاشة والفخر، الشرف والصدق) أفضل صفات الشخصية العربية. وهذا يظهر من الدراسة التي أجريت على عرب مدينة الناصرة والقرى المحيطة بها؛ حيث ظهر بأن 41% من المشاركين الـ 464 يرون بأن على اليهود أن يتعلموا من العرب حسن الضيافة والبشاشة والكرم؛ بينما رأى 19% أن على اليهود أن يتعلموا الفخر والشرف والصدق. ورأت نسبة ضئيلة أن على اليهود أن يتعلموا من العرب أمورا أخرى كالتسامح وعدم التمييز (4%)، وبر الوالدين والتواضع (2%)، والعادات والتقاليد المتعلقة بالطعام والبناء (3%)، والزراعة (2%). إن خلاصة هذه النتائج ذات أهمية خاصة لأن السؤال تمت صياغته في الأصل بشكل لا يحرّض على الإجابة بفخر. فلم يكن السؤال: «ما هي أفضل صفات الشخصية العربية؟» وإنما جاء على شكل مبهم: «ما الذي تعتقد بأن على اليهود أن يتعلموه من العرب؟» وفي الإجابة على هذه السؤال كان 60% من الآراء على نحو ما بيناه سابقا. وهذا يبين أن حسن الضيافة والبشاشة والكرم والفخر والشرف والصدق إنما هي الخصائص التي لا تشكل المثل العربية العليا فحسب، وإنما يؤمن العرب أيضا بأنها أفضل الصفات التي تمثلهم على وجه الحقيقة. وأنا أعتقد بأن الشريحة التي أجريت

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

الفصل السابع: الأخلاقيات البدوية والمجتمع العربي الحديث

عليها الدراسة (عرب إسرائيل) تشرح غياب الإشارة إلى الحماسة والمروءة. وهذا ذكاء دافعه الهزائم المتكررة التي أوقعتها إسرائيل بالعرب. مما يجعل السؤال عن الحماسة والمروءة العربية أمرا لا بد أنهم أحسوا بأنه من الأفضل تحاشيه.

الحماسة والمروءة. وحسن الضيافة والكرم. ومتلازمة الشرف. وجميعها مفاهيم تعود إلى أصول بدوية من عصر ما قبل الإسلام. هي الأكثر استحواذا على الاهتمام عند العرب. وبالرغم من ذلك. فإن جميعها لا تمت بصلة إلى النظام الأخلاقي المذكور في القرآن مع استثناء وحيد؛ وبشكل معاكس. لم يتطور أي من التعاليم الأخلاقية القرآنية ليصبح من الخصائص المهيمنة في النظام الأخلاقي الفعلي للفضيلة عند العرب مع الاستثناء السابق نفسه.

يشدد القرآن على العفة ويستثني الممارسات المشروعة مع الزوجات وملك اليمين. ويؤكد على حفظ الأمانة والعهد والشهادة الصادقة. والأمانة في المقاييس والأوزان. وبر الوالدين وتعظيمهما. واللطف بالأقارب والأيتام والفقراء والغريب المستجير والصاحب في العمل وابن السبيل والعبيد. وإقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر والتواضع. وعوضا عن إلزامية الثأر الذي يعد جزءا من أخلاقيات الجاهلية. تبين التعاليم القرآنية بأن النبل الحقيقي يكمن في الصفح وأن من يكبح جماح غضبه ويصفح عن الآخرين سوف يدخل الجنة. كما ينصح المسلمين بأن يكونوا صبورين في البأساء والضراء. ويضع العدل والتعامل المنصف على منزلة سواء مع التقوى. ويفرض على المسلمين دفع الزكاة للفقراء. وعدم أخذ مال اليتامى. والإطعام عند المجاعة لليتيم القريب والمسكين وتحرير العبيد والإيمان والحث على التسامح والتعاطف مع الآخرين. كما يوصي القرآن باجتناب التبذير والبخل على حد سواء. وعدم قتل الأولاد خشية الفقر. وعدم ارتكاب الزنى والمثلية الجنسية. وعدم ارتكاب القتل دون وجه حق. والتورع عن شهادة الزور. والامتناع عن أخذ الربا. وعدم التعالي والفخر والاختيال على الناس.

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©
شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل السابع: الأخلاقيات البدوية والمجتمع العربي الحديث

وهناك وصايا خاصة بالنساء وردت في القرآن، مثل: الاحتشام والخشوع في الصلاة وإعطاء الصدقات وطاعة الله ورسوله، وأن عليهن مثل ما على الرجال من الإيمان والصدق والصبر والخشوع والصدقة والصوم والحرص على العفاف والمداومة على ذكر الله.

ومع أن تلك الوصايا جميعها هي في الواقع معروفة جيدا لعامة العرب الذين يطيعونها أو يتصرفون بناء عليها، فإن وصية واحدة من هذه القائمة الطويلة هي التي يعتبرها العربي مبدأ أساسيا في النظام اليومي لممارسة الأخلاق: وهي التي تقتضي الحفاظ على الاحتشام الجنسي للمرأة. وإذا ما صح القول بأن هذه الوصية أعطيت للنبي محمد من أجل دفع النساء للتخلي عن العادات غير الأخلاقية التي سادت في عصر الجاهلية، فإن هذا الاعتبار على الأقل يجعل الأعراف الإسلامية تنجح في إحداث انقلاب كامل. وبالإضافة إلى ذلك توجد علاقة ما بين الوصايا القرآنية المتعلقة بالإحسان إلى الأيتام والفقراء وذوي القربى والغرباء والعبيد، وبين حسن الضيافة والكرم التي تفرضها الأخلاقيات العربية العظيمة. لكن هاتين الوصيتين ليستا متماثلتين ما بين القرآن والأعراف العربية، والصيغة القرآنية أقل حدة وذات مجال تطبيقي ضيق. أما كافة العناصر الأخرى المكونة للنظام الأخلاقي العربي الحديث فتعود إلى ما قبل الإسلام، وبهذا تفرض على العرب قانونا قد يؤدي أحيانا إلى التناقض مع تعاليم الإسلام المنصوص عليها في القرآن والتي تطورت إلى القانون الذي يدعى بالشريعة. وكانت الخصال التي تغنى بها شعراء الجاهلية باعتبارها فضائل عليا هي: الحماسة، والمروءة، والشرف، وحسن الضيافة -وهذه الخصال بالذات لها أهمية خاصة كونها لا تزال تحتل المركز الرئيسي في الأخلاقيات العربية.

أما الأمر الثاني الذي يصدمنا عند المقارنة ما بين الأخلاقيات القرآنية والعرف العربي فهو أنه من ضمن العدد الكبير من الفرائض الأخلاقية التي ينص القرآن عليها لا يوجد غير خمس أو ست فرائض أساسية فعلية تملأ طيف الأخلاقيات العربية. وحتى أن هذه الفرائض الخمس أو الست قد تتقلص إلى واحدة تظهر بمظهر الهدف الأخلاقي الأعم للعرب: وهو المحافظة على احترام النفس.

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل السابع: الأخلاقيات البدوية والمجتمع العربي الحديث

وبالعكس مما يتوقعه المرء من المعنى الحرفي لمفهوم (احترام النفس أو الذات)، وهي الفريضة الأخلاقية العربية المطلقة، فإن هذا التقييم المهم جدا للشخصية العربية لا يستند إلى مقدار سلوك الفرد نفسه بقدر ما ينطلق من الموقف والعلاقة التي يبديها تجاهه الآخرون في المجتمع الذي ينتمي إليه. وبالطبع، يمضي الأمر دون ذكر الحاجة إلى أن يتصرف المرء بطريقة محترمة. وعوضا عن تصرفه الخاص، يعتمد احترام النفس عند العرب على ما إذا كان الآخرون يحترمونه أم لا: أي ما إذا كان الآخرون يبدون موقفا محترما تجاهه، أو يعاملونه بالاحترام الذي يرى أنه يستحقه. ولذلك فإن العرف السلوكي الذي يتبعه الفرد هو في الأساس محصلة وجدت أصلا من أجل تكوين انطباع لدى الآخرين الذين تحثهم تلك الخصال على احترامه. ويعبر بيير بوردو (Pierre Bourdieu) عن ذلك، عند ذكره لمجتمع القبائل في منطقة شمال أفريقيا (والتي تعكس وفق هذا الاعتبار -كما غيره- العديد من الأعراف العربية بأمانة)، بقوله: «إن الرجل ذو الخصال، أعني الرجل الذي ينتبه دائما لكل ما يهدد احترام النفس لديه؛ يجب أن يكون حذرا في اختيار الكلمات... أما الرجل الذي يعاني من نقص في احترام الذات... فهو الذي يكشف ذاته الداخلية بكل ما فيها من أخطاء وضعف...» وينتقل بوردو بعد ذلك إلى ملاحظة «الخوف من التعرض للعار والشنار، وهو الجانب السلبي لمفهوم الشرف، يجبر الرجل الذي لا يحظى باحترام النفس إلى التصرف وفق مقتضيات الشرف تحت وطأة الإجبار والضرورة... والرجل الشريف شريف بذاته.»

يمكن ملاحظة العرف ذاته ساريا عند بدو الصحراء الغربية في مصر. إذ يعتمد شرف الجماعة على ما إذا كان الآخرون يتواصلون معها بالقدر المطلوب من الاحترام. ويقول في ذلك الباحث أحمد أبو زيد: «إذا وُجّهت إساءة إلى شخص أو مجموعة تنتمي إلى مجموعة قبلية أكبر فهذا يعتبر إهانة لا تغتفر وتستدعي انتقاما فوريا لغسل العار واستعادة الشرف والعلاقات ذاتها التي كانت متبادلة بين الجماعات المختلفة.» ويمضي نوردينستام أبعد من ذلك من خلال ملاحظاته على السودانيين العرب ليقول: «احترام النفس يعتمد بالكامل على الاحترام الذي يبديه الآخرون.» وهذا بدوره يقوده إلى الاستنتاج بأن أنظمة الفضيلة

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل السابع: الأخلاقيات البدوية والمجتمع العربي الحديث

لديهم تحدد خارجيا على مستوى واسع. وبعبارة أخرى: إنهم يشددون على أهمية كسب احترام الآخرين. وإن السودانيين العرب (والعرب ككل اعتمادا على الاستقراء المبني على دراسات أجريت في دول عربية أخرى) يتصرفون وفقا لمنحى خارجي واضح. والمصطلح الأخير يعني بأن دوافعهم ونواياهم وأحاسيسهم ومواقفهم...الخ ليس لها أهمية ما دام المرء يتصرف وفق ما يتوقع منه كسلوك تجاه الآخرين. وبسبب هذا التحريض الطاغي فإن العرب تكيّفيّون على نحو واسع: فهم يتقبلون أخلاقيات المجتمع بدرجة عالية.

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

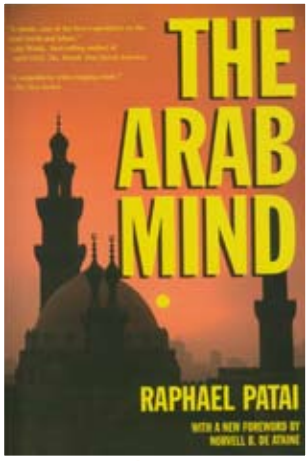

العقل العربي 27

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

الفصل السابع
الأخلاقيات البدوية والمجتمع العربي الحديث

2. الوجه

للشرف ميزة يحددها الآخرون وتتوجه تحت تأثيرهم ونعثر عليها واضحة في مفهوم أشرنا إليه سابقا، وهو مفهوم «الوجه» الذي أوردنا فيه قولا يعبر عن انحطاط الشرف بعبارة «تسويد الوجه.» وهذا المفهوم له وجود مماثل في المفردات اللغوية الغربية؛ إذ يوجد في اللغة الانكليزية تعبير «فقدان الوجه loss of face» وله نفس معنى العبارة العربية السابقة. وفي كلا الثقافتين، العربية والغربية، يعبر «الوجه» عن المظهر الخارجي للشرف، و«الجبهة» التي يستميت المرء في الدفاع عنها حتى وإن كان ارتكب بالفعل عملا مشينا. وما دام هذا العمل الشائن خفيا عن الأعين فهو يحفظ «وجهه.» أما إذا انكشف ذلك للعيان فسوف «يسود وجهه.» إن «تسويد» الوجه يعني أن اللون الأسود عار، و«الأبيض» لون مشرف. وعليه، عندما يرتكب الفرد عملا يعلي من شأن قومه سيقول له كبار القوم: «لقد بيّضت وجهنا.»

يوجد فرق كبير ما بين مدى تأثير مفهوم «الوجه» على التفكير وسلوك الناس عند المقارنة ما بين العالمين العربي والغربي. فبعبارة موجزة يمكن القول بأن «للوجه» في العالم العربي اعتبار أقوى بكثير مما هو عليه الحال في الغرب في تقييم أقوال المرء وأفعاله، ويتفاقم هذا الفرق بين العالمين ليكون فريدا من نوعه. لذلك من المفيد أن نقدم في ما يلي نقاشا أكثر تفصيلا في موضوع الوجه وتأثيره في النفسية العربية، ودعنا نبدأ بالمثال التالي.

في ساعات الفجر الأولى من يوم الاثنين الخامس من يونيو 1967، دمرت القوة الجوية

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

الفصل السابع: الأخلاقيات البدوية والمجتمع العربي الحديث

الإسرائيلية معظم الطائرات المقاتلة المصرية دون خسائر تذكر. وفي حوالي الساعة التاسعة صباحا أرسل المشير عبدالحكيم عامر، قائد القوات المصرية في القاهرة، رسالة مشفرة إلى الفريق عبدالمنعم رياض، المسؤول عن القوات العربية على الجبهة الأردنية. وكانت الرسالة تحتوي الآتي وفق ما ذكره الملك حسين بن طلال، ملك الأردن:

1. باشرت الطائرات الإسرائيلية قصف القواعد الجوية المصرية، وتم لحد الآن تدمير وإعطاب 75% تقريبا من الطيران المعادي.

2. يتوجه الطيران الحربي المصري الآن بطلعات مضادة إلى إسرائيل. وفي سيناء، اشتبكت القوات المصرية مع العدو وحازت زمام المبادرة على الأرض.

3. نتيجة لذلك، أصدر المشير عبدالحكيم عامر أوامره لقائد الجبهة الأردنية (الفريق عبدالمنعم رياض) أن يفتح جبهة جديدة ويشن عمليات هجومية طبقا للخطة المرسومة في اليوم السابق.

وفي رسالة ثانية بعد ساعات قلائل، أخبر المارشال عامر الجبهة الأردنية بأن هجمات الطيران الإسرائيلي مستمرة. لكنه، وفي الوقت نفسه، أكد بأن القوات المصرية عطلت 75% من القوة الجوية الإسرائيلية. وورد في نفس الرسالة أن الطائرات المصرية دمرت القواعد الجوية الإسرائيلية في هجوم معاكس، وأن القوات البرية في الجيش المصري توغلت في إسرائيل في طريقها إلى النقب!

ويحطّ الملك حسين في تحليله لرسائل المشير عامر من قيمتها وفق رؤيته التي تحمل طابع المعاهد العسكرية البريطانية التي تعلم فيها أكثر من البلاغة العاطفية التي اتسم بها أسلافه الهاشميون، حيث يقول: «هذه التقارير -إن كانت تقارير- شديدة الصلة بارتباكنا وتفسيرنا الخاطئ للوضع.»

لا يصادف المرء دائما مثالا كهذا يظهر كلّا من الضرورة القصوى لحفظ الوجه والثمن

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

الفصل السابع: الأخلاقيات البدوية والمجتمع العربي الحديث

الذي يقتضيه ذلك. وبينما لا يمكن لأحد أن يتصور ماذا كان سيحدث لو تحدث المصريون مع الأردنيين بصراحة ودون تحفظ في صبيحة الخامس من يونيو 1967 وأخبروهم بأنهم عانوا نكسة خطيرة، فإنه ربما يكون من المؤكد أن الأردنيين كانوا ليفعلوا أحد أمرين: إما تجنب دخول الحرب، أو الخروج منها بخسائر أقل. لكن الشعبين كليهما، بالإضافة إلى قادتهما، مرتهنون لقيمهم الثقافية في العادة. وإذا ما أخذنا القيمة العربية التقليدية لمفهوم «الوجه،» فإن من المستحيل للقيادة العسكرية المصرية في ذلك الوقت أن تتصرف بشكل يختلف عما كان. وقبل أن نلقي نظرة أقرب على مفهوم «الوجه» والسيطرة التي يمارسها على النفسية العربية، لنخرج أولا بمحصلة من قصة الحوار المصري-الأردني في حرب الأيام الستة عام 1967 لما يقدمه ذلك من ضوء إضافي على السيطرة الطاغية التي يتمتع بها «الوجه.»

في ذلك اليوم المشحون، الخامس من يونيو، أخبر الرئيس جمال عبدالناصر الملك حسين هاتفيا بالقصة نفسها: «قصفت إسرائيل قواعدنا الجوية. ورددنا على ذلك بقصف قواعدها الجوية. إننا نشن الآن هجوما شاملا في صحراء النقب.»

في صباح اليوم التالي، وعندما أصبح الضرر الذي تسببت به هجمات الطيران الإسرائيلي أمرا لا يمكن التستر عليه مدة أطول، اقترح الرئيس جمال عبدالناصر في مكالمة هاتفية مع الملك حسين أن يتم إصدار بيان رسمي من قبل الأردنيين، بالإضافة إلى السوريين، حول تأثير دعم الطيران الأمريكي والبريطاني لإسرائيل من خلال استعمالها حاملات الطائرات التابعة لهما في الهجوم على مصر. وبدت هذه الخطة في وقتها ممتازة لحفظ الوجه؛ فإسرائيل الصغيرة لم تعد هي التي تدبرت أمر ضرب مصر، وإنما القوى العظمى، الولايات المتحدة وبريطانيا، اللتان ليس من العار الاستسلام لهما. ومع ذلك، وفي نفس المكالمة الهاتفية التي اقترح فيها التصرف الحافظ للوجه على الملك حسين، لم يستطع الرئيس عبدالناصر أن يقاوم إغراء الاستمرار في محاولة الحفاظ على وجهه (وجه مصر) قبالة حسين نفسه، فقال:

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل السابع: الأخلاقيات البدوية والمجتمع العربي الحديث

سنقاتل بكل ما لدينا. إننا نقاتل على جميع الجبهات طوال الليل. وإذا حدث معنا بعض المشكلات في البداية، فما الضير في ذلك؟ فسنخرج من ذلك على أحسن ما يرام. إن الله في جانبنا.... لقد أرسلنا طائراتنا لمواجهة إسرائيل اليوم. وهي تقصف المطارات الإسرائيلية منذ الصباح الباكر.

بعد ساعات قلائل، وفي الساعة الثانية عشرة والنصف ظهرا، أرسل الملك حسين برقية إلى عبدالناصر يخبره فيها ببساطة وموضوعية (ولنتذكر مرة أخرى هنا دراسة الملك حسين في بريطانيا) بأن الوضع ميؤوس منه على الجبهة الأردنية. إن هذا الاعتراف الصريح بالهزيمة حطّم أخيرا السيطرة التي كان «الوجه» يمارسها على عبدالناصر، فأصبح قادرا في رده (الذي أرسله بعد تأخر دام 11 ساعة، في الحادية عشرة والربع ليلا) على أن يعترف بأنه، أيضا، قد تعرض للهزيمة. وجاء خطابه الطويل الذي بُثّ على الناس ليتكلم عن «اللحظات الحرجة التي تدعى الأمم لمعاناتها،» وعن وضع «يتطلب شجاعة تتجاوز قدرات الإنسان،» والحاجة إلى «التصدي لمسؤولياتنا دون خوف من العواقب.» ثم ربط عبدالناصر اعترافه بهزيمته الخاصة مع هزيمة الملك حسين فقال: «إننا مدركون تماما لوضعك الصعب في نفس الوقت الذي تعاني فيه جبهتنا الانهيار أيضا.» وأخيرا، استطاع عبدالناصر أن يصل إلى مراده فقال: «أمس، وجه الطيران الحربي المعادي ضربة قاضية لنا. ومنذ ذلك الوقت، وقواتنا دون دعم جوي مجبرة على الصمود في وجه القوى العظمى.» بعد ذلك استمر عبدالناصر في الحديث عن أمور لا علاقة لها بالحدث الراهن: «عندما تدوّن كتب التاريخ، فستذكر فيها شجاعتكم وإصراركم. ولن تنسى الشعب الأردني البطل الذي مضى قدما إلى المعركة دون تردد، غير مهتم سوى بالشرف والواجب.» وبعد أن اقترح إخلاء الأردنيين للضفة الغربية، وعبّر عن أمله بأن يصدر مجلس الأمن قرارا بوقف إطلاق النار، علق عبدالناصر متفلسفا: «تاريخ الأمم مليء بالنكسات، والانتصارات والهزائم....» وأنها «مشيئة الله -وربما يأتي منها خير ما. إننا نثق بالله وهو لن يتخلى عنا. وربما، وبفضل منه، ستأتي الأيام القادمة بالنصر لنا.» وبعد أن يكرر إطراءه لشجاعة وبطولة الملك حسين والشعب الأردني، يختم عبدالناصر

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل السابع: الأخلاقيات البدوية والمجتمع العربي الحديث

برقيته بالتحية التقليدية «والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.» وفي نسخة من النص الكامل لبرقية عبد الناصر يعلق الملك حسين منتقدا: «توجب على الأردنيين أن ينتظروا 48 ساعة ليعلموا حقيقة ما جرى في مصر عند بداية الصراع والذي حدد نتيجة الحرب.»

لا يقتصر معنى كلمة (وجه) عند العرب على ذلك الجانب من الرأس، والجانب الخارجي، والمظهر الخارجي، والسطح، وما شابه؛ وإنما تأخذ معاني أبعد مثل: المرتبة الأولى، وموضع الشرف، والفائدة، والتفوق، والرضى الذاتي، والشخصية الرائعة، والأمير، والنبيل، والرجل الشريف؛ والبداية، والنية، والغرض (من الكلام)؛ والسبب، والمنشأ، والاحترام، واللباقة، والأدب، والترف، والثروة؛ والمرتب، والدخل؛ والجاه، والأهمية، والاعتداد بالنفس؛ وكثير مما شابه ذلك. ورغم ما تبدو عليه هذه القائمة من الاضطراب فإنها تشير بالتأكيد، حتى لمن لا علم له باللغة العربية، إلى أن «حفظ وجه» العربي قضية تهم العربي بشكل أكبر بكثير مما هو الحال عليه لدى الناطقين بالانكليزية. ففي الانكليزية لا يعني «فقدان الوجه loss of face» فقدان الشرف بأي حال من الأحوال: فكل المعاني المختلفة لكلمة (face) تتعلق بالسطح والجانب الخارجي. أما بالنسبة للعربي، من جهة أخرى، فإن «الوجه» و«الشرف» مفهومان منفصلان ومميزان، لكنهما يقتربان من بعضهما بشدة. «فالشرف» يحاذي «الوجه» بشكل خطر دائما، و«فقدان الوجه» يلقي بظلاله دائما على الشرف إلى حد ما. لذلك تبذل جهود كبيرة جدا من أجل الحؤول دون ذلك في العالم العربي. وعلى سبيل المثال، من المبرر أن يلجأ العربي إلى المواربة من أجل الحفاظ على وجهه، ويصبح الكذب واجبا في سبيل الحفاظ على وجوه الآخرين.

إن الأعراف الناظمة للسلوك الحسن تلزم العربي بأن يعمل جاهدا من أجل الحفاظ على وجهه، فتراه يتقبل الأذى الجسدي وحتى الخطر في سبيل ذلك. وهذا الموقف يتأتى من العديد من الأمثال التي تعمل عباراتها البليغة عمل قوالب لتشكيل التقاليد الاجتماعية، مثل: «اللهم لا تدع يدي اليسرى بحاجة ليدي اليمنى.» و«الموت جوعا خير من طلب العون.» والعديد من الأقوال تحث على المحافظة على المظاهر في صحبة الآخرين، سواء أكانوا

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل السابع: الأخلاقيات البدوية والمجتمع العربي الحديث

أصدقاء أم أعداء. وللحفاظ على «وجهه،» يفضل العربي الجائع أن يرفض الدعوة لتناول الطعام مدعيا بأنه قد أكل للتو، وذلك مخافة من أن يتوقع مضيفه بأنه فقير أو لا يملك ما يكفي من الطعام. وعوضا عن طلب العون، يفضل العربي أن يتصنع ويقول: «الحمد لله، حالتي جيدة وعندي الكفاية،» وذلك لأن طلب العون أو قبوله يعني نقصا في «الوجه.» إن هذه السيطرة الطاغية التي يمارسها «الوجه» على العربي تجعله يبذل جهودا جبارة لإخفاء مشاكله عن الأصدقاء، دون الكلام عن الأعداء.

وتشيع بشكل كثيف في العالم العربي ظاهرة تعرف في عالمي السياسة والاقتصاد في أمريكا بـ«تسليط الضوء على صورة المرء projecting one's image.» ويلاحظ البروفسور كارلتون كوون (Carelton S. Coon)، وهو باحث أمضى عمره يدرس الشرق الأوسط، أن للعربي «نوعين من أنواع الشخصية على مستوى الفعل: واحدة يقدم نفسه بها للعالم الخارجي، وأخرى يعرفها أقرباؤه.» وتحتاج هذه الملاحظة الدقيقة إلى القليل من التعديل: سواء أكان سلوك العربي موجها نحو العالم الخارجي أو الأقرباء، فإنه يطيع الأوامر أو القوانين، مهما اختلفت، والتي يفرضها عليه ضرورة «تسليط الضوء على صورته» وذلك من أجل أن يحفظ وجهه. وبينما يجد المرء بعض الراحة في رفقة قريب له، فإن شخصيته الحقيقية تبقى مخفية حتى عن أقاربه.

وبالعودة إلى الموقف الذي أشرنا إليه سابقا، يتضح بأن الرئيس عبدالناصر والمشير عامر كانا عاجزين عن سلوك طريق آخر غير الذي سلكاه، إذ لم يترك لهما التكييف الثقافي خيارا آخر غير «الحفاظ على الوجه.»

ويمكن الذهاب أبعد من ذلك وملاحظة الاختلاف ما بين البيانات البسيطة والموجزة نسبيا التي أصدرها عبدالناصر وعامر لإخبار الملك حسين «بالنصر» المصري على الإسرائيليين، وما بين اللغة العاطفية والتكرارية والتأكيدية التي استخدمها عبدالناصر لإقناع الملك حسين بقراره إعلان المشاركة الوهمية للقوات البريطانية والأمريكية في

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الفصل السابع: الأخلاقيات البدوية والمجتمع العربي الحديث

الحرب. وبما أن الملك حسين ظل إبان سنوات تنشئته في بريطانيا متمتعا بالأذن التي تلتقط المعاني المختفية خلف الألفاظ، وهي أداة لا غنى عنها في التواصل ما بين العرب، فقد فهم أن النصر «الحقيقي» على إسرائيل الذي يعلنه عامر وعبدالناصر في خطاب طويل مليء بالتكرار والتأكيد قام بخيانة حقيقة الأمر ولم يكن إلا أداة لحفظ الوجه، ومؤشرا على نصر وهمي بالكامل.

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©
شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

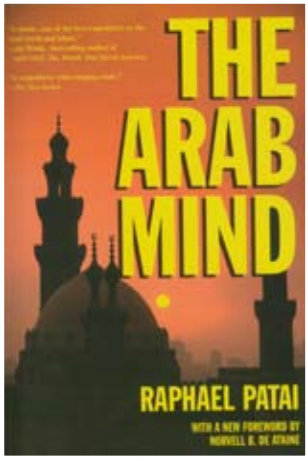

العقل العربي 28

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

الفصل السابع
الأخلاقيات البدوية والمجتمع العربي الحديث

3. العار

ليس «الوجه» إلا مثالا واحدا على جانب من الشخصية العربية يحدده الآخرون ويتوجه إليهم. وفي نفس المجال يقع الدور الذي يلعبه العار في الوعي العربي. ويجب التمييز بحذر ما بين العار والذنب. ويعرف العار بأنه شأن ما بين الفرد والمجتمع، بينما الذنب في الأساس شأن بين الفرد ووعيه. ومن ينعزل لوحده في الصحراء قد يشعر بالذنب، لكنه لن يشعر بالعار.

من أهم الاختلافات بين شخصية العربي وشخصية الغربي أنك ترى العار أكثر تواجدا في الثقافة العربية مقارنة بالذنب. وكنا ناقشنا عدة مفاهيم عربية كالشرف واحترام النفس والوجه بالقدر الكافي لتوضيح أن دلالاتها جميعها ذات منحى خارجي أساسا. وما يضغط على العربي للتصرف بطريقة مشرفة ليس الخوف من الذنب وإنما العار، أو بشكل أدق: الدافع النفسي للنجاة أو الوقاية من التقييم السيئ للآخرين. وللباحثة سانيا حمادي بحث وافٍ حول جانب من الحياة العربية تدعوه «مجتمع العار» ووصلت إلى الاستنتاج بأن الهم الأساسي للعربي في أداء عمل أو تجنبه هو «ما إذا كان سيشعر بالعار إن علم به الناس. وأهم مقياس لخياراته هو ‹ماذا سيقول الناس؟›» ويترسخ الشعور بالعار في الجيل الصغير من خلال تقنيات العار، كأن يقارن الطفل بغيره مثلا. وهو من أساليب تنشئة الطفل واسعة الانتشار في لبنان ومصر وربما في غيرهما من الدول العربية أيضا.

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

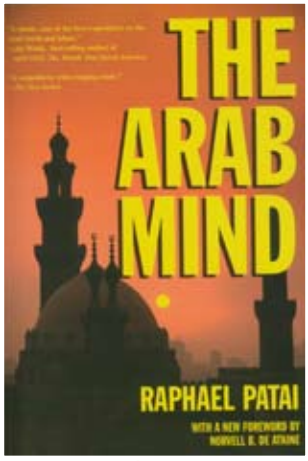

29 العقل العربي

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

الفصل السابع
الأخلاقيات البدوية والمجتمع العربي الحديث

4. شخصية «الفهلوي»

يمكن القول بدقة أن كون العار على مستوى عالٍ من الأذى والخطورة للعربي، وما للخوف من العار من ضغط نفسي لا يضاهى، يؤدي إلى أن استجابة العربي دائما ما تأخذ شكل مجرد انسجام خارجي مع متطلبات أخلاقية لا تتوفر شروطها على ميدان الواقع. إن الهم الذي يتملك شخصية كهذه هو الحفاظ على الوجه، والظهور كشخص يتمسك بالأعراف الأخلاقية في مجتمعه. ومثل هذا الاعتبار، عندما يصبح مسيطرا على نفسية الفرد، قد يحوله إلى ما يدعوه عالم الاجتماع المصري المرموق، د. حامد عمار، بـ«شخصية الفهلوي» في كتابه (في بناء البشر).

ينحدر مصطلح «الفهلوي» من كلمة في اللغة الفارسية تعني الشخص حاد الذكاء. ومع ذلك، كانت الصورة التي رسمها د. عمار للفهلوي باعتباره الشخصية المصرية النمطية تتكون -كما يعترف هو نفسه- بمعظمها من صفات سلبية. وبعد أن يضع الأسس النظرية لبحثه، يتساءل د. عمار: «ما هو الوسط الاجتماعي الحالي للشخصية المصرية الذي أثرت في تكوينه عوامل الزمان والمكان وطريقة الحياة؟» ثم يشرح بأن ما عناه بكلمة «وسط» إنما هو «الاستجابات الثابتة التي تتكرر في أوضاع معروفة جيدا، والتي يتوقعها المجتمع ويفضلها على غيرها...» وأن «الوسط الاجتماعي» هو مفهوم مشابه «للوسط» الإحصائي.

أول صفة بيّنها د. عمار من صفات الفهلوي هي «التكيف الجاهز». فالفهلوي لديه «القدرة على التكيف بسرعة مع أوضاع مختلفة، ومعرفة الاستجابات التي تتطلبها

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©

الفصل السابع: الأخلاقيات البدوية والمجتمع العربي الحديث

هذه الأوضاع.» إنه قادر على ضبط «سلوكه بحسب هذه المتطلبات إلى المدى الذي يراه مناسبا.» ورغم ذلك، يلاحظ د. عمار أن لهذه الجاهزية في التكيف جانبين اثنين: أولهما المرونة الحقيقية والقدرة الفطرية على تمثّل الجديد ومحاكاته، والآخر «الجاهزية لإبداء اتفاق مظهري وتعاطف سريع يهدف من ورائه إلى التكتم على الوضع وإخفاء المشاعر الحقيقية.» ويستمر د. عمار بالشرح فيرى أن هذا النزوع إلى التظاهر والنفاق والاتفاق المظهري تم غرسه في الشخصية المصرية عبر سلسلة طويلة من الحكام والسلاطين والملوك الذين كان على الناس أن يخضعوا لهم، ومن لم يفعل كان جزاؤه العقاب الشديد. ويقول د. عمار: «أصبح التكيف السطحي بسبب هذه الظروف شأنا في منتهى الضرورة للبقاء.... وأدى ذلك إلى أن الناس كان عليهم أن يفرحوا لفرح الحاكم ويحزنوا لحزنه.» وعندما جاء دور الامبريالية الغربية، كانت هذه النزعة للاتفاق السطحي قد تجذرت.

وثمة صفة أخرى للفهلوي هي سرعة البديهة وحس النكتة. فمن الأمور التي يستجيب بها المصري على الإخفاقات المتتالية التي تصيبه أن يواجهها بتعليقات ساخرة. وهو يحصل على الرضى الشخصي من هذا التذاكي ويجد فيه تهدئة وخروجا عن الواقع. وفي النكتة مجال لتنفيس الغضب وملجأ يجعل الحياة قابلة لأن تطاق. ومع أن باقي الشعوب تمارس ما يشبه النكتة، فإن الشعب المصري وحده قام بتطويرها لتصبح فنا حقيقيا وأصبح يعتبرها صفة محببة في الشخصية. ومن أهم وظائف النكتة أنها تقوم بتغطية المشكلة، وتخفيف وطأتها، وتجاهلها على نحو يحمي الشخصية من أن تضطر للتفكير بجدية حول الواقع، وكأن «فرقعة» النكتة تهدئ المسألة أو تحمل حلا لها.

ومن خصائص الفهلوي التي ناقشها د. عمار: فرض الذات. وتظهر هذه الصفة على شكل «تأكيد مبالغ فيه للشخصية، والميل بإصرار لإظهار قدرات المرء في التحكم والهيمنة على الأمور.» ويفرق د. عمار ما بين هذه الصفة والاعتداد بالرأي الناتج عن الثقة بالنفس والتفهم المناسب للعلاقة ما بين القدرات الذاتية والمواقف الخارجية. فهي، خلافا لذلك، «تنتج عن فقدان الثقة ونقص الرغبة في تقييم الموقف بشكل موضوعي.»

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

الفصل السابع: الأخلاقيات البدوية والمجتمع العربي الحديث

ويتمثل الشكل المتطور من هذه الاعتدادية المفرطة بالنفس في أنها تأخذ بمرور الزمن شكل التهور، أو انتقاص الآخرين، أو القدرة الاستثنائية على حل القضايا أو التخلص منها من خلال «حركة إصبع أو جرة قلم.» ويتصف الفهلوي بالإفراط والمبالغة وزخرف القول. وتقع مسألة المظهر الخارجي و«حجم الحظيرة» إلى ذلك النوع من الاعتداد بالذات والذي يتمظهر حتى في الأبنية التي يقلل مظهرها الخارجي من شأن ترتيبات بنيتها الداخلية ونوعيتها. ويتمظهر ذلك أيضا في ما يعرف بعادة «الزخرفة» في السلوك والحديث.

ويحدس د. عمار بأن الحافز الملحّ لفرض الذات هو السبب الرئيسي خلف البذخ في الولائم، والتأكيد على ترك انطباع أولي، ومسألة الكرامة الشخصية، والاهتمام بعادات الأعراس والمآتم، وكل ما يمت بصلة إلى نطاق «جبهة الشخصية» سواء على الصعيد الفردي أم الاجتماعي.

لذلك، يستنتج د. عمار أنه ليس من الغريب أن الكلام المعسول هو من أهم الوسائل التي يعتبرها الشعب المصري فعالة في تأسيس نوع من العلاقة الشخصية بشكل سريع بين المرء والآخرين. ومن الجانب الآخر، يؤدي فرض النفس إلى الميل للاستخفاف بالآخرين، وإهانتهم تصريحا أو تلميحا، والتقليل من قيمة الآخرين وأفعالهم، وازدرائهم؛ إن من يقوم بهذه الممارسات يحظى بالكثير من الإعجاب والتقييم. وفي شخصية جحا التي يحتفي بها التراث المصري، صورة تشخصن الجانب السلبي من الشخصية التي تمارس فرض النفس.

وبعد ذلك يولي د. عمار اهتمامه لخصيصة أخرى من خصائص شخصية الفهلوي: وهي النظرة الرومانسية تجاه المساواة. ويعدها «إحدى أهم قيم المجتمع المصري،» وهي محصلة للمرارة التي يُشعر بها تجاه ظروف البلاد التي قادت إلى التمييز وانعدام المساواة. ويعود لها رفض قبول السلطات أو القيادات واستهجانها النابع من أعماق الوعي؛ وذلك رغم المظاهر الخادعة التي يبديها الناس تجاه قادتهم والمتمثلة في عبارات الاحترام

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل السابع: الأخلاقيات البدوية والمجتمع العربي الحديث

وطقوسه التي تحجب في كثير من الأحيان مشاعر خفية من الحنق التي تشير إليها عبارة «فلان يتصرف كقائد.» ولا ينظر الفهلوي إلى السلطة أو القيادة على أنها أمر ضروري وإنما يعتبرها قوة لا تقاوم يستسلم لها المرء خانعا عندما تزرع الخوف والرعب في نفسه. وفي هذه النقطة يقدم د. عمار أمثلة تاريخية لتوضيح الظروف التي طبعت الشخصية المصرية بطابع الخوف من السلطات إلى حد جعل الفلاحين لا يحترمون من جباة الضرائب إلا من لا يرحمهم بينما يستخفون ويستهجنون الذين يرأفون بهم. ومع ذلك، بقيت فكرة المساواة قوة محفزة في سلوك المصريين وإحدى القيم اللافتة التي تسحرهم.

وهكذا، يرى د. عمار أن من أهم الموارد النفسية التي تستقي منها شخصية الفهلوي هي تقنية «النقل والإحالة.» فبواسطة نقل المسؤولية إلى الآخرين أو إحالتها إلى نطاق يخرج عن مجاله، يصبح من السهل تبرير أي وضع محرج يقع فيه المرء أو إهمال لمسؤولياته الاجتماعية. ويزداد مستوى «الفهلوة» بازدياد القدرة على إجادة هذه التقنية.

إن ما يحفز الفهلوي ليس الإخلاص للواجب، أو الأمل في تحقيق الذات، وإنما الرغبة في الحصول على الثواب أو تجنب العقاب. وإحدى أهم تمظهرات الإحالة هي الشكوى اللفظية الدائمة من سوء الحظ، وعدم الرضى عند التسريح من العمل، وتحميل المسؤولية بشكل دائم «للحكومة» و«العمدة» و«الإدارة» وأي عامل خارجي قابل لأن يكون عذرا لحصيلة عمل ما. وبينما يعد الميل إلى لوم الغير على الفشل إخفاقا إنسانيا عاما، فإن الظروف الخاصة اجتماعيا وسياسيا التي عايشها المصريون لآلاف السنين قد تفاقمت فيهم على مدى واسع.

وثمة خصيصة أخرى لشخصية الفهلوي هي الاعتماد على العمل الفردي وتفضيله على العمل الجماعي. وينتج هذا الميل من الرغبة في فرض شخصية المرء على الآخرين وتجنب الاحتكاك بهم. والعوامل التي تؤدي إلى ذلك هي: نظام الثواب الفردي، وتجزؤ الملكية، وبقايا العصبية القبلية. وهو أيضا يعتبر استجابة للقوانين والشروط المتعددة التي تحدد نمط

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

الفصل السابع: الأخلاقيات البدوية والمجتمع العربي الحديث

الحياة في مصر. وعلاوة على ذلك، من الممكن أن ضغط المجتمع بمؤسساته المختلفة وتشديده على الانصياع الشكلي لمطالبه قد أدى في الحقيقة إلى خلق نزعة مضادة تتمظهر في الميل إلى التفرد الجريء. وهذا يظهر في أمثال كـ«الإبريق المشترك لا يغلي» و«حصير أملكه خير من منزل مشترك.» ومع ذلك، إذا كان النشاط الجماعي أمرا لا مناص منه، فلا اعتراض على الانصياع الشكلي لنوع مفبرك من هذا النشاط، دون وجود التزام حقيقي كضرورة للمسؤولية الجماعية.

إن نزعة الاعتماد على الذات تعود إلى محاولة تحقيق الهدف بأقصر طريق ممكن. وذلك يقود أحيانا إلى الحماس والإقدام وعدم الاهتمام بالصعوبات وهي أمور تجعل المرء قادرا على تخطي المعوقات بنجاح. وعندما يتطلب العمل إصرارا وصبرا، يتضاءل حماس الفهلوي، ويخبو تلهفه وتصميمه. إن هذا البحث عن الإنجاز السريع السهل تجده في شخصية الكثير من الطلبة المصريين: فعوضا عن الدراسة الجادة من أجل الامتحان، يحاولون النجاح دون جهد. وحتى الحرفيون المصريون، فإنهم ينقصهم شيء من الاهتمام في إنهاء أعمالهم، وذلك على الرغم من مهاراتهم وقدراتهم.

وفي نتيجة تحليله لشخصية الفهلوي، يشير د. عمار باقتضاب إلى بعض من جوانبها الأخرى: كالتأكيد على الرجولة والشرف، وموقفه من مستحدثات الأمور، وإنتاجيته، وعمله؛ ويبرر د. عمار تشديده على ذكر نقاط الضعف دون نقاط القوة في الشخصية المصرية بالتصريح عن إيمانه بأن مثل هذا التحليل هو «ضرورة لا بد منها وخطوة أساسية في إعادة بناء المجتمع.»

كانت النتائج التي توصل إليها د. عمار محل تشديد وتكرار عند د. صادق جلال العظم، وهو مفكر عربي يساري كان يدرّس الفلسفة في الجامعة الأمريكية في بيروت وجامعة عمان. فهو يشدد في كتابه (النقد الذاتي بعد الهزيمة) على أن الفهلوي يحاول دائما أن يسلك كافة الطرق المختصرة لإنجاز هدفه دون أي جهد. وإذا ما توجب عليه أن يقوم

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل السابع: الأخلاقيات البدوية والمجتمع العربي الحديث

بمهمة فإنه لن يبذل جهدا لتنفيذها على الوجه الأمثل، بل إنه، وعلى العكس، سيكتفي بإبهار الآخرين بقدرته على تنفيذها كي لا يقول الناس عنه بأنه عاجز. ولا يهتم الطالب الفهلوي إلا بالنجاح الشكلي في التعامل مع دروسه، وبالانطباع الخارجي، ويلجأ دائما إلى الوسائل المحظورة في سبيل ذلك. وهو يحاول التزلف إلى مدرسه أو يقوم برشوته، ويغش في الامتحان، ويجتهد في الاطلاع على الأسئلة مسبقا، وتتمحور أحلامه حول الحصول على نسخة من أسئلة الامتحان قبل الموعد المقرر. أما كابوسه الأكثر رعبا فليس الفشل بذاته، إنما هو العار الذي يلحق به إن اكتشف الآخرون فشله. ولهذا، يقاسي الكثير ممن الطلاب الراسبين ألما عظيما في إخفاء الحقيقة عن أسرهم وأصدقائهم. وعندما ينهي الطالب الفهلوي دراسته ويصبح مسؤولا كبيرا في المؤسسات الحكومية، أو ضابطا في الجيش، فهنا تقع الكارثة، لأنه سيستمر باستعمال وسائله الفهلوية في إنجاز مسؤولياته. وبسبب هذه الخصائص التقليدية، يعجز العرب عن قبول الحقائق بالسرعة والمرونة التي تقتضيها المواقف الحرجة، وتراهم مجبرين على إخفاء الفشل من أجل الحفاظ على المظاهر والإبقاء على احترام النفس.

وتتصف شخصية الفهلوي بالتضخم، ويملؤها الإحساس بأهمية الذات، وهي مستعدة دائما لإظهار معرفتها وتفوقها العالي، وسيطرتها على الوضع. ويرافق ذلك شعور باحتقار الآخرين، وبالأخص لمن يبذل جهدا حقيقيا في سبيل إكمال عمله على الوجه الأتم.

ومثل هذا الشخص يعاني عادة شعورا بالدونية، ولكنه غير قادر على البوح به لأنه واقع تحت سيطرة مفهوم العيب والخوف منه أكثر مما يتقبل الواقعية والموضوعية. ولهذا السبب، يرى د. العظم أن شخصية الفهلوي بارعة في التظاهر السطحي والتأدب المؤقت والتي تؤدي بمجموعها إلى حجب الوضع كما هو في الواقع لإخفاء المشاعر الحقيقية، ويتم التعبير عن ذلك بعدة عبارات نمطية مثل: «لا يهم، كل شيء على ما يرام، كلنا إخوة.» وهذه الخصيصة نفسها تميز العلاقات ما بين الدول العربية: فالتوافق الرسمي الذي يعبر عنه باللباقة والتهذيب والإخاء من دون أي إخلاص حقيقي لمقتضيات مسؤوليات الجماعة،

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

الفصل السابع: الأخلاقيات البدوية والمجتمع العربي الحديث

حتى ولو كانت هنالك حاجة ماسة لعمل جماعي مخطط ومتقن.

عندما يجد الفهلوي نفسه في موقف لا مفر فيه من انكشاف كافة نواحي ضعفه وفشله، فإنه يميل إلى نفي مسؤوليته بالكامل وتحميل مسؤولية النتائج السلبية لأعماله إلى قوى خارجية. تماما كما لا يلوم الطالب الفهلوي نفسه على رسوبه في الامتحانات، وإنما يلوم الحظ السيئ، والمعلم، والأسئلة الصعبة، والدولة، والنظام، والرب. وكذلك تلوم الدول العربية العدو، والامبريالية، والخيانة، والحظ السيئ، وأي شيء آخر ما دام لا يتعلق باجتثاث جذور المشكلة وتدميرها.

ويرى د. العظم أن من الواضح للعيان أن الفهلوة ترتبط مباشرة بمفاهيم الشهامة والمروءة والشرف والشجاعة والمهارة. وفي الواقع، تزدهر شخصية الفهلوي في المجتمعات التي تحركها الأعراف حيث تكون الأنظار متوجهة إلى العادات والتقاليد القديمة الراسخة بقوة. وتميل هذه الظروف إلى تنمية شخصيات محافظة، وأشخاص بطيئي التقدم، ومتكيفين مع إيقاع بيئتهم، ولا يتصفون بنزعة البحث عن حلول جديدة للمشاكل القديمة. وهذا يفسر أيضا نظرة التقييم التي ينظر بها هذا المجتمع إلى الكهول عوضا عن الشباب، دون اعتبار للكفاءات الفردية لأي منهم، ويمنح حقوقا خاصة للناس دون النظر إلى مؤهلاتهم الحقيقية.

ومع أن الصورة التي رسمها لشخصية الفهلوي كل من د. عمار ود. العظم هي بالتأكيد صورة من جانب واحد وتحتوي على المبالغة، وبما أن غرض د. العظم -بالأخص- كان استنهاض العرب لبذل جهود استثنائية لمعالجة الفشل الذي قدم وصفا له، فإنه لا شك في أن القدرة الفائقة لمفاهيم الوجه والعار تجعل الناس يتصفون بشخصيات ضعيفة متكيفة تتجه نحو نمط «الفهلوي.» وعندما يتركز اهتمام المرء على الجانب الخارجي لسلوكه، فإن القيم الحقيقية بعيدة عن أن تكون أساسا لتصرفاته.

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©
شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

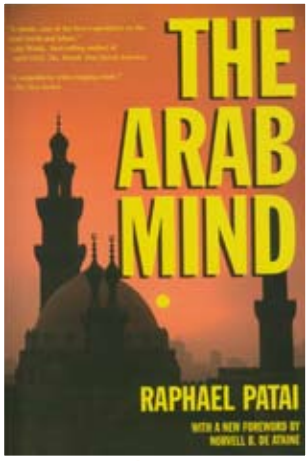

30 العقل العربي

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

الفصل السابع
الأخلاقيات البدوية والمجتمع العربي الحديث

5. النفور من العمل البدني

النفور من العمل اليدوي، وبالأخص ما يتضمن اتساخ الأيدي، هو موقف بدوي آخر تأثر به العقل العربي على مدى واسع. وإلى يومنا هذا لا يزال هناك ضمن البدو من يعتقد بأن مزاولة الزراعة أو الأعمال المهنية أمر مهين. وهذا التفضيل لحياة التعطل، أو -على الأقل- للعمل الذي لا يتضمن استخدام القوة العضلية على اعتبار أن الأغلبية الساحقة من العرب لا تستطيع التعطل عمليا، يعود بشكل مهم إلى كل من التطور التاريخي للثقافة العربية وعمليات التغريب.

لنبدأ أولا بمثال يقوم في نفس الوقت برسم صورة للاختلاف في الموقف -على هذا الاعتبار- بين العرب والأمريكيين. يتحمس الكثير من الطبقة الوسطى أو العاملة من الأمريكيين للقيام ببعض التحسينات الصغيرة على منازلهم. وإذا كان لديهم حديقة، قاموا بجز العشب وسقايته، وتقليم الشجيرات، وتوزيع السماد، وجمع الأوراق المتساقطة، وزراعة بعض النباتات، والقيام بأمور أخرى يرونها ضرورية. والكثير يصبغ غرف المنزل أو يكسوها بورق الجدران، ويبلط الأرضيات بالقرميد. ومعظمهم يغسل سيارة الأسرة ويلمعها ويفخر بقدرته على أداء بعض التصليحات الصغيرة عليها. إن هذه الجاهزية لدى الأمريكيين في «افعلها بنفسك» يتواجد عكسها لدى العرب بكل ما في الكلمة من معنى، وذلك من خلال تقاعس العربي عن مزاولة أي نشاط من هذه الأنواع، أو -في الواقع- عدم الإقدام على أي عمل ذي طبيعة يدوية. صحيح أن اليد العاملة متوفرة في الدول العربية بثمن بخس لأداء تلك الأعمال بينما تمنع الأجور الباهظة للعمال في أمريكا من توظيفهم للعمل ذاته. لكن القصد من وراء المثال ليس الكلفة أو التوفير، إنما هو حقيقة محبة الأمريكيين لأداء مثل

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل السابع: الأخلاقيات البدوية والمجتمع العربي الحديث

هذه الأعمال، بينما لا يكتفي العرب من نفس الطبقة الاجتماعية الاقتصادية بكره هذه الأعمال، وإنما يعتبرونها أمرا مهينا.

سأورد مثالا عشوائيا على ما قاله الكثير ممن لاحظ هذه الصفة عند العرب وعلّق عليها. فهذا الدكتور ويليام داريتي (Dr. William A. Darity)، وهو ممن له خبرة عميقة ببرامج العناية الصحية في الشرق الأوسط، يخبرنا بأنه في إحدى الدول اقترب منه ستة طلاب يريدون منه المساعدة في الحصول على عمل ليتمكنوا من الالتحاق بالدراسة الجامعية. فتم الترتيب لهم كي يعملوا في شركة بناء كمساعدين للمشرفين على المواقع التي يتم البناء فيها. لكن واحدا منهم فحسب قبل العمل، وأخبر الباقون داريتي أنهم كانوا يرغبون بعمل مكتبي، مع أن العمل الميداني كان ذا مرتب أكبر بكثير من مرتب العمل الذي أرادوه. وبعد سنوات، التقى داريتي باثنين ممن رفضوا العمل وكانا يعملان ككتبة بأجر منخفض جدا، على اعتبار أنهما لم يتمكنا من الدراسة في الجامعة، ولكنهما كانا لا يزالان مصرين على أنهما لا يستطيعان القبول بهذا النوع من الأعمال. ولاحظ خبير في الشؤون الإدارية أن المنزلة الدنيا للعمل اليدوي في مصر تشجع التمايز الطبقي وتقف عائقا دون التعاون والتواصل وإتاحة الفرص للتقدم.

إذا كان العمل الذي أشرنا إليه يجب أن يمارس في العراء، فإن النفور منه يشتد. وفي ذلك يقول خبير بريطاني في مجال العمل في الدول العربية المجاورة لإيران: «في هذه البلدان، يكره السكان العمل في العراء، لذلك يتم إنجاز الأعمال بشكل رئيسي من خلال الاستعانة بالعمال الإيرانيين.»

ما هي الحوافز النفسية التي تجعل العمل البدني مرفوضا للعرب من الطبقات التي تلي الطبقة العاملة؟ ولماذا يتقاعس العرب إلى هذا الحد عن أي عمل يوسخ اليدين، مالم يجبروا على ذلك بحاجة ماسة لكسب المعيشة «بعرق الجبين»؟ يكمن أحد الأجوبة في نص من الكتاب المقدس يحتوي العبارة السابقة، حيث ورد في الكتاب المقدس عن

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

الفصل السابع: الأخلاقيات البدوية والمجتمع العربي الحديث

اللعنة التي وجهها الرب إلى آدم بعد أن أكل جد البشرية من الفاكهة المحرمة لشجرة المعرفة:

«وقال [الرب] لآدم: لأنك أذعنت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التي نهيتك عنها، فالأرض ملعونة بسببك. وبالمشقة تقتات منها طوال عمرك. (18) شوكا وحسكا تنبت لك وأنت تأكل عشب الحقل. (19) بعرق جبينك تكسب عيشك حتى تعود إلى الأرض، فمن ترابٍ أُخِذْتَ، وإلى تراب تعود.» (سفر التكوين، الاصحاح 3 : 17-19).

إن هذه الأسطورة القديمة المثيرة لا تقتصر في الإجابة على أسئلة مثل: لماذا يجب على الإنسان أن يكدح طيلة حياته؟ لماذا عليه أن يموت ويدفن؟ وإنما، وبشكل أكثر أهمية لاعتبارات معاصرة، تعبّر وتنظّم وتشرّع موقفا من العمل لا يزال إلى يومنا هذا مميزا للشخصية العربية في المنطقة التي صدرت منها هذه الأسطورة. ويمكن صياغة هذا الموقف بعبارة أكثر دقة: العمل لعنة. إن هذا المفهوم هو الضد النوعي للأخلاق البروتستانتية، والتي تعتبر العمل فضيلة وأمرا يعلي شأن المرء. في أخلاقيات الشرق الأوسط، ومنذ عصور ما قبل الأحداث التوراتية وحتى عصرنا الحاضر، كان المثل الأعلى دائما هو الهرب من لعنة العمل، والحصول على الغنى، وحتى اكتسابه، من خلال ضربة حظ، أو العثور على كنز، أو عطية من أحد الملوك، أو شراء شيء رخيص وبيعه بثمن مرتفع، أو الحصول على عون من جني. ونجد أمثلة عديدة عن هذه الأخلاقيات في قصص (ألف ليلة وليلة)، وهي مجموعة قصصية ثمينة توفر سجلا للتقاليد العربية في العصور الوسطى وتشكل مرآة صادقة لجوانب الحياة في ذلك الوقت والمعتقدات والقيم والاهتمامات. وفي بداية إحدى القصص نقرأ أنه في أحد الأيام عاش في بغداد رجل غني فقد ثروته كلها وأصبح معدما إلى درجة أنه لم يعد يقدر على كسب عيشه إلا بغير العمل الشاق. ومن الواضح أن كلّاً من مؤلف الكتاب ومن يتمتع بالإصغاء إلى رواية قصصه ينظران إلى كسب المعيشة بالعمل الشاق على أنه من أسوأ المصائر التي قد تلحق بالمرء.

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل السابع: الأخلاقيات البدوية والمجتمع العربي الحديث

هذه الأخلاقيات تعتبر العمل بجميع أنواعه لعنة، وبالأخص العمل الذي يؤدي للتعرق. وقبل كل شيء، فإن حراثة التربة، والعراك مع الأشواك، والكدح والتعرق في سبيل أن يثمر النبات، تلك هي اللعنة وقيد الحياة والمعيشة. عندما لعن الرب آدم، حكم عليه بأن يكون فلاحا -هكذا يقرأ العرب النهاية الحزينة لقصة الطرد من الجنة. والمحظوظ هو الواحد بالمئة الذي يستطيع أن يكسب عيشه دون أن يعرق في سبيل ذلك، حيث ينعم براحة مكتبه أو دكانه، مستظلا بسقف وجدران تقيه من أشعة الشمس الحارقة، ولسع الحشرات، والريح الغبارية، وأوساخ التراب.

على الرغم من أن العمل اليدوي هو مصير لا مناص منه للقرويين (ما عدا المعلم، والحارس، وإمام المسجد)، فإن كراهية هذا النوع من الأعمال ليست على قدر يمكنها من أن تشكل جزءا من الجو الاجتماعي الذي يؤثر على مشاعر الطفل. وثمة مثال مفاجئ على ذلك في الأجوبة التي قدمها أغلبية المراهقين الذكور في قرية لبنانية مسلمة على السؤال: «إذا كانت لديك الإمكانية لتغيير شيء ما في حياتك، فماذا ستغير؟» حيث أجاب 20 من أصل 35: «أن لا يتوجب علي أن أعمل بيدي.» أو عبارات لها نفس المؤدى. وبما أن المراهقين الذي سئلوا كان يتوجب عليهم في الواقع أن يعملوا في أراضي أهاليهم، فإن العبارة السابقة تعني عدم القيام بأعمال الحقل. وبرغم ذلك، ربما يكون من المهم الإشارة إلى أن الرغبة في التحرر من العمل الزراعي جاءت بصيغة لغوية أشمل: عدم لزوم العمل اليدوي. وبهذه الصيغة الأشمل بقيت كراهية العمل اليدوي خصيصة من خصائص الشخصية العربية حتى ضمن شرائح المجتمع الأكثر تمدنا.

يعيش 90% من العرب في قرى أو بلدات. وتختلف حياتهم كثيرا عن حياة البدو. لكن المثل البدوية استمرت فيهم مهما بعدت المسافة بينها وبين الواقع المعاش. وفي هذه المثل تكون السمة الأساسية هي كراهية العمل البدني بكافة أنواعه مع استثناء الرعي والغارات، واللذان يعتبران المهنتين الوحيدتين اللتين تلائمان الرجل الحر. ومن بين أنواع العمل المكروه تأتي الزراعة في المرتبة الأولى من ناحية التشديد على الرفض، فمثلا تؤدي

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل السابع: الأخلاقيات البدوية والمجتمع العربي الحديث

المشاركة في الحصاد إلى خسارة المنزلة بشكل لا يمكن تجنبه أو إصلاحه؛ وفي الواقع، يلحق العار بالبدوي جراء ذلك. وبسبب من هذا الاحتقار للزراعة، لم تلق محاولات دفع البدو للاستقرار إلا نجاحا ضئيلا. وحتى إن استقروا فسيلزمهم سنوات عديدة لتحقيق ذلك، وسيبقى البدو المستقرون على تنظيمهم العشائري لعدة أجيال ولن يسأموا من الإشارة بفخر إلى أصولهم الصحراوية.

يعتبر الوعي الجماعي ظاهرة إنسانية عامة، يرافقه في ذلك التقييم العالي الذي يضمره المرء لقومه والاحتقار الذي يشعر به تجاه غيرهم. و«نحن» هي المفضلة على «هم» في كل مكان تقريبا. ويشكل الفلاحون العرب استثناء مميزا لهذه القاعدة العامة. ففيهم ترسخ التراث الروحي أو التأثير الجلي للأخلاقيات البدوية التي تجعلهم دون شك في منزلة أدنى من منزلة البدو، والاستسلام لذلك كإحدى حقائق الحياة التي لا سبيل إلى تغييرها. وعند الفلاحين، كما البدو، يعتبر العمل في الأرض أمرا متدنيا، إن لم يكن مشينا. وعلى هذا الأساس، يسعى الجميع إلى انتهاز أي فرصة للخلاص من عبودية الأرض.

كانت مثل هذه الفرصة في الماضي أمرا نادر الحدوث. إذ كان الفلاح ينشأ في العادة دون تعليم، ويتعلم من والده حرفة واحدة فقط: العمل في الأرض. كما يتعلم أن كونه فلاحا يضعه في أسفل الهرم الاجتماعي، وأن مكانته تحددت بمشيئة الله، وما على المرء إلا أن يطيعه. إن الله هو الذي جعله عبدا للأرض، وهكذا سيبقى.

لكن سحر البلدة له أثره الذي لا يخفى على أحد. فمن خلال زياراته النادرة لها ومشاهدته لشوارعها وأسواقها، يشعر الفلاح أنه يُنظر إليه بدونية من قبل أهالي البلدات والبدو. ومع ذلك، يحاول الفلاح أن يجد له عملا في البلدة، وربما يضطر للعمل هنالك بسبب عدم وجود فرصة عمل له في القرية. ويتمثل الطريق المعتاد في الخلاص من هذه الضائقة الاقتصادية بالبحث عن عمل كمساعد لأحد أقربائه، أو لأحد القرويين إن لم يجد من بين أقربائه من هو بحاجة له. ولكن هذه الطريق بعيدة كل البعد عن أن تشده إليها. فبالإضافة إلى فقدان

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

الفصل السابع: الأخلاقيات البدوية والمجتمع العربي الحديث

الوجه في مجتمع فلاحي القرية. ليست الأجور التي تدفع إلا أقل ما يمكن. لذلك تتوجه أفكار الشاب القروي أولا إلى البلدة. صحيح أنه لا يستطيع أن يحلم بأكثر من أن يكون عاملا باليومية بأجر قليل. ولكنه على الأقل لن يعاني فقدان وجهه. وذلك لتواجده بين غرباء. وربما يكون لديه فرصة للنجاح في عمله.

لعدة أجيال مضت. تسببت الهجرة من الريف إلى المدينة بنمو تدريجي بطيء للعديد من المدن. أما القرى التي كانت دائما تزود الناس بأكثر ما تستطيع من طرق الزراعة التقليدية الثابتة. فإنها بقيت بالمجمل تحتفظ بعدد السكان ذاته. لكن خلال الأجيال الثلاثة أو الأربعة الماضية بالأخص. شهدت القرى ازديادا في عدد السكان بسبب استقرار بعض القبائل البدوية التي لم تستطع الاستمرار في ممارسة مهنتها التقليدية في رعي المواشي. فلم يدع الحال خيارا لهذه القبائل إلا بأن تعيش في المناطق الهامشية من الناحية الزراعية. ولهذا كانت محاصيل هذه القبائل من النوع الرديء. وهذا دفع بعض شباب القبائل إلى البحث عن عمل في المدن أيضا. وأحيانا كانت الهجرة تحصل خلال جيل واحد من البدء بالعيش في القرية. إن للهجرة من الريف إلى المدينة له دوافع عاطفية بالإضافة إلى أخرى اقتصادية. فمن خلال التوجه إلى المدينة. يشعر (الفلاح حديثا-البدوي سابقا) أن حياته قد تحسنت بقدر ما يراعى مقامه؛ فهو استطاع النجاة من أكثر أنواع العمل البدني إذلالا: «العبودية للأرض.»

إن الاحتقار الذي يشعر به سكان المدن تجاه الفلاحين ينبع من مصدرين أساسيين. أولهما: أثر الأخلاقيات البدوية الذي لا يزول سريعا. والآخر: الفجوة الثقافية التي تفصلهما. إذ يجد الحضري الفلاح شخصا جاهلا متخلفا بدائيا فظّا. وبما أن الفلاح الذي ينتقل إلى المدينة ينخرط بشكل طبيعي في أبسط أنواع العمل الذي لا يتطلب الخبرة. فإن العمل دون خبرة والعمل الزراعي يرسمان صورة لبدائية الفلاح في ذهن الحضري. وفي الدول العربية مرت فترة كان العمل اليدوي فيها يرتبط بتصنيف طبقي في أحد جوانبه: وذلك بأن يقتنع العامل بأنه ينتمي إلى طبقة أدنى مع الكثير مما يقتضيه ذلك من الأمور التي يعجز عن

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©
شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل السابع: الأخلاقيات البدوية والمجتمع العربي الحديث

أدائها. ومع ذلك لا يؤدي هذا الشعور إلى معالجة الوضع بتحسين وضع طبقته أو تجارته بشكل عام (كما حصل في الغرب) بل إنه يلجأ إلى الخروج بشكل فردي من طبقته إلى طبقة أعلى ليس فيها عمل يدوي. ولا حاجة للقول بأن القليل جدا هم من ينجحون في إنجاز ذلك.

إن هذه الخلفية تشرح سبب تفضيل أبناء المدن الشباب لعمل مكتبي قليل الأجر على أن يكونوا معاونين لمشرف بناء بأجر أكبر بكثير. وفي الحقيقة، ليس الخيار الأول مفضلا فحسب، بل إن الخيار الآخر مستحيل كليا نظرا للسيطرة الكبيرة التي تمارسها القيم التقليدية على العقل العربي. ويمكن للمرء أن يحدس بأن جهدا عظيما صبورا ينبغي أن يبذل قبل أن يصبح العقل العربي قادرا على قبول مفهوم كرامة العمل.

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

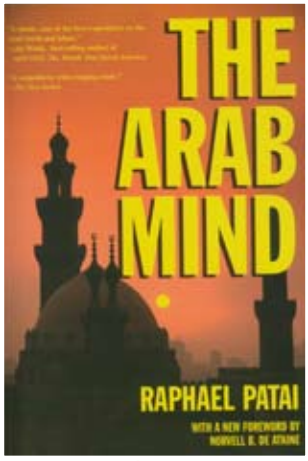

31 العقل العربي

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

الفصل الثامن
مملكة الجنس

تذكرني قضية الجنس في العالم العربي بقصة قديمة حول تلميذ الساحر والفيل الوردي. إذ يقال بأن أحد أساتذة الخيمياء (تحويل المواد إلى ذهب)، وبعد أن شرح لتلميذه الخطوات المعقدة لصناعة الذهب، قال له: «وأهم أمر في العملية كلها أنه يتوجب عليك أن لا تفكر بالفيل الوردي.» انذهل التلميذ لوقع هذا التحذير، وحاول دون جدوى أن يتقيد به، ولكنه كان -بالطبع- عاجزا عن أن يطرد الفيل الوردي من ذهنه. أخيرا استسلم التلميذ في محاولاته لصنع الذهب واقترب من أستاذه بحزن قائلا له: «لماذا يا سيدي؟ ما الذي دفعك إلى إخباري بأن لا أفكر بالفيل الوردي؟ فلو لم تفعل، لم أكن لأفكر فيه على الإطلاق.»

يرمز «الفيل الوردي» في خيمياء الحياة العربية إلى المحظورات الجنسية. فالوالدان وبقية أفراد العائلة يملؤون ذهن الطفل العربي بأن الجنس خطيئة، كما تقوم الثقافة ككل بإحاطة الفرد بجوّ يذكره دائما بهذا المفهوم. إن فصل الجنسين، وتحجيب المرأة حيثما يمارس، وكافة الأعراف الدقيقة التي تحكم وتقيد التواصل بين الرجل والمرأة، ذات تأثير يجعل الجنس أولوية تشغل عقل العالم العربي. فالمحظور الجنسي نفسه هو الذي يصنع نوعا من التمسك به.

1. الشرف الجنسي

لا يصعب على الغربي أن يدرك المفهوم العام للشرف عند العرب. فالشرف، مهما قيل عنه وحتى في أشد أشكاله صلابة كـ«الوجه،» هو أمر موجود في المجتمع الغربي أيضا. ولكن الغربي يصاب بالحيرة حقا عندما يحاول إدراك كنه المفهوم العربي الخاص عن شرف الرجل والذي يعتمد على الأداء الجنسي للمرأة التي ترتبط به. والغربي، كذلك، يعاني

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

الفصل الثامن: مملكة الجنس

فقدانا مهما في الوجه إذا قامت زوجته -أو ابنته على مدى أقل- بارتكاب الزنا وعلم الناس بذلك. ولكن الطلاق، باعتباره قانونا، كفيل باستعادة الرجل لوجهه ووضعه الطبيعي؛ وبما أن والد الزوجة له علاقة بهذا الشأن، فهو في معظم الأحيان يسعى إلى إبداء تعاطفه وتفهمه لما قامت به ابنته باعتبارها تمر بأزمة في حياتها. وفي وجهة النظر الغربية لا يمكن اعتبار الفرد مسؤولا قانونيا ولا أخلاقيا عن أفعال فرد آخر، وبالتالي فإن العمل الشائن وإن قام به شخص شديد القرابة لا يؤدي سوى إلى أثر ضئيل على القريب، هذا إن كان له أثر في الأصل.

أما في ثقافة القربى السائدة في العالم العربي، فإن الوضع مختلف جدا. حيث تتسم الروابط العائلية بالقوة إلى حد يجعل كل أفراد العائلة يعاني من «سواد الوجه» بعد العمل الشائن الذي قد يرتكبه أي منهم. ورغم ذلك، وفي هذا السياق العام، يميز العقل العربي بحدة ما بين العمل الشائن الذي تركبه المرأة وذات العمل إن ارتكبه الرجل. ويعد أسوأ الأعمال الشائنة في العالم العربي ما ينتج عن إساءة تصرف جنسي صادرة عن الابنة أو الأخت أو ابنة العم. وإذا ما زنت الزوجة، فإنها تسبب أذى عاطفيا لزوجها ولكنها لا تلحق به العار.

إن هذه النظرة الخاصة لشرف الرجل تغوص جذورها عميقا في بنية وآليات نظام القرابة عند العرب. إذ لا يمكن إيذاء أو إضعاف روابط الدم أو النسب. وهذا يعني أن المرأة وإن تزوجت رجلا من عائلة أخرى، فإنها لا تكف عن كونها عضوا في عائلتها الأصلية. ويبقى أقرباؤها في النسب مستمرين في مسؤوليتهم عنها. وهذا الأمر يعود بالفائدة على المرأة المتزوجة وخاصة في تلك الفترة الصعبة من حياتها التي تسبق بلوغ أبنائها ليكونوا هم من يدعمها ويحميها. فقبل ذلك الوقت، ليس للزوجة الشابة التي يُنظر إليها باعتبارها غريبة عن عائلة زوجها سوى أن تعوّل دائما على دعم وتعاطف أبيها وإخوتها. إن مجرد العلم بأن هؤلاء الرجال يقفون خلف هذه المرأة بقوة وأنهم مستعدون حتى للقتال من أجلها، يجعل عائلة الزوج تعيد حساباتها في معاملة زوجة قريبهم.

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل الثامن: مملكة الجنس

مهما تحصل عليه المرأة من مدح أو ذم ينعكس على عائلة أبيها. وتصبح هذه المسؤولية شديدة الفعالية عندما ترتكب خطيئة جنسية، أو إذا وصلت تصرفاتها إلى حد يجعلها محط الشبهات بأنها قد تستسلم لإغراء يدفعها لارتكاب عمل تحظره الأعراف. وأقوى الموانع التي وضعتها الثقافة العربية للحؤول دون ممارسة الجنس بطريقة غير شرعية (أي علاقة جنسية بين رجل وامرأة لا تربطهما علاقة زواج) هي المساواة بين شرف العائلة والسلوك الجنسي لبناتها، سواء أكنّ عازبات أم متزوجات. وإذا ما ثبت أن البنت مذنبة بأقل المخالفات الجنسية أهمية (وهذا يتحدد بشروط مختلفة باختلاف المكان) فإن أباها وإخوتها يفقدون شرفهم. ويمكن استعادة الشرف العائلي بطريقة واحدة فحسب وهي معاقبة المرأة المذنبة؛ وهذا يعني في الأوساط المحافظة: الحكم عليها بالقتل.

ويمكن ملاحظة ما ينعكس على اللغة من الوضع الخاص الذي يستأثر به السلوك الجنسي للمرأة على ظاهرة الشرف والعار. فكلمة «الشرف» تشير إلى مفهوم عام، أما إذا أردنا تخصيصها بالمرأة وسلوكها الملائم فالكلمة المستعملة هي «العرض.» وللشرف مفهوم مرن: فهو يعتمد على سلوك الرجل، وطريقته في الكلام والتصرف، وهذا الشرف -بالنسبة للرجل- قابل للاكتساب والتقوية والتقلص والضياع والاستعادة... الخ. وعلى العكس من ذلك، للعِرض مفهوم صارم: فلكل امرأة عرضها الخاص بها؛ وهي تولد وتنمو معه، ولكنها لا تتمكن من تعزيزه لأنه مفهوم مطلق، ورغم ذلك يتوجب عليها المحافظة عليه. وإذا تعرضت لإساءة جنسية، مهما كانت ضئيلة، فإنها تفقد عرضها، وإن ضاع العرض مرة، فلا سبيل لاسترجاعه مجددا. ويبدو الأمر وكأن المكانة الجسدية للعذرية تتوازى مع العرض على المستوى العاطفي-المفاهيمي. فكل من العذرية والعرض يكونان أجزاء مهمة من المرأة: إذ أن كليهما لا يمكن تعزيزه، وكلاهما لا يسترجع إن ضاع. وهما متشابهان في أكثر من جانب: فحتى إن تعرضت المرأة لهجوم واغتصاب، فإنها تفقد عرضها بفقدانها لعذريتها. وهما يختلفان، بالطبع، في أن فقدان العذرية بشكل مشروع ومقبول ومتوقع في ليلة الزفاف ليس له أثر مشابه على العرض: فعلى المرأة أن تحافظ على عرضها وتحميه

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

بحرص إلى يوم مماتها.

وثمة ظاهرة يمكن ملاحظتها بشكل أوضح: وهي أن شرف الرجل يتوقف بشكل كامل تقريبا على عرض النساء في عائلته. صحيح أن الرجل ربما يفقد شرفه كليا أو جزئيا إذا ظهر منه تقصير في موقف يقتضي الشجاعة أو الكرم. ورغم ذلك، فإن نسبة حدوث مثل هذه المواقف ضئيلة لأن الرجل يتعلم منذ بداية تربيته على أن يحافظ مهما كانت التكاليف على مظاهر الشجاعة والكرم. ومع هذا، إن من يخرق هذا القانون بصورة علنية يخسر شرفه، لكنه لن يتعرض لعقوبة جسدية تفرضها العادات والتقاليد. وقد يختلف العرب حول الجرائم التي تقع خارج نطاق الأعراف الأخلاقية، كالقتل والسرقة وخيانة العهد وأخذ الرشوة، وسوى ذلك من الأفعال الخاطئة؛ فمنهم من يرى أنها تؤثر على الشرف ومنهم من لا يرى ذلك، لكنهم يتفقون جميعا على أن انتهاك عرض المرأة يدمر شرف رجال عائلتها. وهذا دفع أحد دارسي الأخلاقيات العربية إلى استنتاج يرى بأن من الواضح أن المكون الأساسي لشرف الرجل هو حماية أعراض قريباته من النساء. ويمكن أن نضيف لهذا الاستنتاج أن هذا الموقف هو من صفات العالم العربي ككل، وأن انتهاك العرض، سواء أكانت المرأة هي من تسبب به أم عشيقها، هو الجريمة الوحيدة التي يعاقب عليها بالقتل في العرف الأخلاقي العربي. وبما أن المرأة إذا ارتكبت أمرا محظورا من الناحية الجنسية فإن ذلك يلحق العار بعائلة أبيها دون عائلة زوجها، فهذا يقتضي أن عقابها يقع على عاتق عائلة أبيها (كأبيها نفسه، أو إخوتها، أو أبناء عمومتها)، وهذا العقاب يتمثل في قتلها كسبيل وحيد لإصلاح الضرر الذي لحق بشرف العائلة.

وليس من الصعب ملاحظة أن العرف الذي يطالب عائلة الأب بمعاقبة المرأة الزانية دون عائلة زوجها، هو عرف يخدم المحافظة على تلاحم الجماعة. فهذا يقتضي المحافظة بحرص على سيطرة تمارسها العائلة الأبوية وتتحكم من خلالها بحياة أفراد الجماعة إلى حد يجعلها ترفض التخلي عن هذا الحق وإن كان ذلك يتعلق بابنتهم المتزوجة. فإذا ما قبلوا بأن ينفذ الحكم زوجها، وهو ليس من أفراد العائلة الأبوية للمرأة، فإن هذا يعطي

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل الثامن: مملكة الجنس

حق التحكم لشخص غريب. وهذا يضعف سيطرة العائلة على أفرادها. وبما أن العقوبة على هذه المرأة ملزمة، فإن عائلة أبيها تتقبل قتلها دون تردد في أداء هذه المهمة المريرة، وذلك تطبيقا للمبادئ التي تقتضي حماية شرف العائلة وإن كان ذلك على حساب حياة أحد أفرادها.

من الجهة الأخرى، يقع على عاتق الزوج بشكل رئيسي مهمة البحث عن الرجل الذي انتهك عرض زوجته والقيام بقتله. وفي العلاقة ما بين الزوج وهذا الرجل توجد منظومة أخرى من القيم التي ينبغي تطبيقها. فبما أن شرف الزوج لم يتعرض إلى أذى مادي نتيجة خطيئة زوجته (وفي هذا المجال تختلف الأعراف العربية بشكل مميز عن مثيلتها في جنوب إيطاليا حيث يدعى الزوج الذي خانته زوجته باسم «كرونتو Corunto» ويعاني فقدانا كبيرا في سمعته)، فهذا لا يمنع من تعرض حقوقه الحصرية بخدمات زوجته الجنسية إلى ضرر كبير لا يمكن إصلاحه مما يستدعي أخذ الثأر عن طريق القتل. ويميل القانون الفرنسي إلى جانب الزوج إن قبض على زوجته بالجرم المشهود وقتلها مع/دون عشيقها نتيجة ثورة غضب. أما العرف العربي فيذهب أبعد من ذلك: إذ يبرئ الزوج الذي يقتل عشيق زوجته ولو حصل القتل بعد سنين، ويتخطى ذلك إلى المطالبة بتنفيذ هذا القتل.

إن كل ذلك يشير إلى أن الرجل العربي الذي يدخل في علاقة خارج الزواج يواجه خطرا عظيما بحق، وهذا يكفي عادة ليحجم عن هذه العلاقة أي شخص يمكنه وزن الأمور منطقيا فيما يخص العواقب المحتملة لأفعاله. (وحتى إن استطاع أن يتدبر النجاة من غضب الزوج المغدور، فثمة خطر آخر يتهدده؛ ففي بعض الدول العربية المحافظة التي تعاقب اللص بقطع يده اليمنى، يعاقب على الخطيئة الجنسية بقطع العضو الذي قام بهذه الخطيئة). وهذا كله يعني أن العربي العادي لا يمكن له أن يدخل في علاقة جنسية مع النساء إلى أن يتزوج، وهذا ما لم يكن يعيش في مدينة كبيرة حيث تتوفر الدعارة، أو في مكان بدأت الأعراف الجنسية الغربية تخترقه، مثل مدينة بيروت. وإذا ما أضفنا إلى ذلك أن العربي العادي لا يتزوج إلا في منتصف أو أواخر عشريناته (مع الحاجة إلى دفع مهر الضروري

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

الفصل الثامن: مملكة الجنس

لوالد من اختارها)، نجد أن فترة عدة سنوات تفصل ما بين البلوغ الجنسي وبداية علاقة جنسية شرعية.

وتصل حساسية العرب تجاه العرض إلى حد يصنع طريقة كاملة للحياة استنادا على مفهومه، والهدف من ذلك الوقاية من وقوع ظرف قد يؤدي إلى أن تفقد المرأة عفتها الجنسية، أو يمكّن رجلا من ارتكاب هذا الفعل. وحتى قبل أن تصل المرأة إلى عمر البلوغ، وبدءا من هذه المرحلة وحتى نهاية حياتها، على المرأة أن تكون محمية بترتيبات اجتماعية يقررها الرجال. وهذه الترتيبات المصممة لحماية عفة المرأة، تأخذ أشكالا عدة: منها ما هو مجرد إعاقة لحريتها (كتحجيب المرأة وحجبها عن النساء الأخريات وعدم إرسال البنات إلى المدرسة)، ومنها ما يسبب ألما فظيعا وضررا صحيا (كختان الإناث). وأحيانا يصل الخوف من أن تفقد المرأة أو الابنة عرضها إلى حد يؤدي إلى قتلها، حيث يعتقد بتفضيل موتها على فقدان الشرف الذي يعنيه فقدان عرضها بالنسبة للرجال في عائلتها. ويروي فولانين (Fulanain) في كتابه (عرب الأهوار: حجّي ريكان) قصة شيخ في قبيلة نبيلة، لكنه كان دخيلا (لاجئا) عند عرب الأهوار في جنوب العراق، والذين كانوا يعتبرون غير نبلاء تبعا لهيكلية الهيمنة لأنهم مستقرون وليسوا بدوا من رعاة الجمال. وكان هدّام زعيما شابا من زعماء عرب الأهوار، وحدث أنه وقع في حب ابنة الشيخ السابق، لكن الشيخ أبى، بالطبع، أن يزوجه منها لأنه غير نبيل. لكن في أحد الأيام لاحظ الشيخ أن ابنته كانت ترمق الشاب بنظرة مهتمة عندما مر بهم من على مسافة وهو يجذف بقاربه المصنوع من القصب. فما كان من الشيخ إلا أن أخذ ابنته إلى مكان ناء وقتلها حفاظا على عرضها -وعلى شرفه بالنتيجة- من أن ينهار بسبب رغبتها في الزواج من ذلك الزعيم الشاب. ومن أقصى جنوب العالم العربي ذكر أحد التقارير مرة أنه أثناء ثورة المهدي في السودان، قام بعض العرب السودانيين بقتل زوجاتهم وبناتهم خوفا من أن يكنّ عرضة لهجوم جنود الحكومة الذين كانوا يعتبرون عبيدا. إن مثل هذه الأحداث المتطرفة أصبحت نادرة مع مرور الوقت، وفي هذه الأيام، وحتى عند عرب السودان، يمكن للفتاة التي يكتشف بأنها فقدت عذريتها قبل

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل الثامن: مملكة الجنس

الزواج أن لا تتعرض للقتل. أما المتزوجة التي ترتكب الزنى فإنها قد تُخضع إلى اختبار قاسٍ لمعرفة الحقيقة. وإذا لم تفلح في اجتياز هذا الاختبار فإنها تقتل. كما أن عشيقها سوف يقتل بحسب العرف بواسطة أقرباء المرأة.

عندما يطبق ختان الأنثى، يكون الداعي له إما منع الفتاة من طلب ممارسة الجنس قبل الزواج (حيث يقطع البظر)، أو منعها من ممارسة الجنس بشكل عام (فيغلق الفرج بشكل كامل إلى أن يفتح مرة أخرى). ويرجع هذا التقليد إلى عصر ما قبل الإسلام. وقد مورس في مصر إبان العصر الهيليني. أما في الجزيرة العربية إبان الجاهلية فكان يقوم بهذا العمل امرأة تدعى المبظّرة. وحتى أوائل العصور الإسلامية، كان ختان الأنثى يعتبر ضمن بعض القبائل العربية من الأمور التي لا غنى عنها في شروط الزواج. ولا يزال ختان الأنثى يمارس كتقليد (أو كان يمارس حتى وقت متأخر) في البقاع العربية التالية: بعض فئات الشعب الأردني (ضمن البدو والحضر)، مكة، جنوب شبه الجزيرة العربية (ظفار، عمان،...)، قبائل جنوب العراق، مدينة البصرة، مصر (ضن المسلمين والقبط)، السودان (حيث يمارس إغلاق الفرج رغم معارضة الفقهاء)، بعض أنحاء الصحراء العربية،... وهذه القائمة ليست شاملة حتما، والانتشار الواسع لممارسة هذا التقليد يجعله ممكن الحدوث في الدول التي لم تشملها القائمة.

وعلى الرغم من أن الكثير من المراقبين علقوا على وظيفة ختان الذكر باعتباره اختبارا للرجولة والشجاعة حيث يمتلئ الولد الذي يجتاز هذه التجربة بإحساس أهمية الذات وأنه أنجز شيئا ما، لكن القليل جدا منهم طرحوا أسئلة عن الأثر النفسي لختان الأنثى على الفتيات اللواتي يتعرضن له. ولا مجال للقول بأن ختان الأنثى اختبار لشجاعتها، لأن الشجاعة ليست من القيم التي تتحلى بها المرأة أو يُتوقع منها أن تبديها. وعلاوة على هذا، فإن ختان الأنثى يجري عادة في السر دون علم أحد، على العكس من الذكر. وهذا يعطي للعملية محصلة تتمثل في أن ينطبع ذهن الفتاة بأنها أحط درجة من الذكر. فبينما يخدم ختان الذكر الهدف المفترض المتمثل في تعزيز رجولته، فإن ختان الأنثى يمارس للحد

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©

الفصل الثامن: مملكة الجنس

من أنوثتها فيما يتعلق بالشهوة الجنسية، وتخويف الفتاة من الجانب الجنسي. ولاحظ أحد المراقبين أن ختان الأنثى، وبالأخص شكله المتوحش الذي يمارس في السودان، يسبب صدمة شديدة إلى حد يجعلها مسؤولة عما يلاحظه القائمون على تعليم الإناث في أن الفتيات عادة ما يكن ذوات مزاج خامل.

أما السؤال الأخير الذي تبقى حول مفهوم العرض فهو: ما هو تفسير هذه الحساسية الهائلة تجاه الشرف الجنسي للمرأة والتي يبديها المجتمع البدوي بشكل خاص، والمجتمع العربي التقليدي بشكل عام؟ لماذا تطالب العادات والتقاليد بإيقاع عقوبة الإعدام بحق المرأة التي ترتكب مخالفة جنسية؟ لا يمكن محاولة الإجابة على هذه الأسئلة إلا من خلال الإشارة إلى عوامل متعددة في الثقافة العربية التقليدية.

ترجع عقوبة القتل التي تطبق بالمرأة الزانية إلى عصر ما قبل الإسلام، وإلى العصور التوراتية بالتحديد، حيث تترافق هذه العقوبة مع التذكير بأن الزنا يسبب العقم، وأنه خطيئة كبرى إلى درجة تمكنها من أن تمسح من وجه الأرض كل الشعب أو الجماعة التي يرتكب أعضاؤها هذه الخطيئة. وبما أن المجتمع العربي ذو طابع أبوي ذكوري النسب متعدد الزوجات، مثله كمثل مجتمعات الشرق الأدنى القديمة التي انحدر منها، فإن الرجل يتمتع بحرية جنسية هائلة. ولا تضع حالته الزوجية حدا على الإطلاق لنشاطه الجنسي، ولا يزال هذا الأمر مستمرا. فحتى إن تزوج الرجل أربع نساء، يمكن له أن يقيم علاقات جنسية مع ملك اليمين، والمومسات، أو أية امرأة ليست على عهدة رجل آخر. وعندما يتزوج الرجل فلا يتوقع منه أن يمتنع عن ممارسة الجنس خارج العلاقة الزوجية. ولا يمسي الرجل مذنبا بإساءة جنسية إلا إذا ارتكبت المرأة التي يمارس الجنس معها عملا جنسيا شائنا.

أما بالنسبة للمرأة فالوضع مختلف جذريا. إذ يفترض أن لا يكون للمرأة علاقة جنسية إلا مع زوجها الذي ارتبطت به بشكل قانوني. وتعتبر حياتها الجنسية ملكا خاصا لزوجها ما دامت متزوجة به. علاوة على هذا، يجب على المرأة أن تحافظ على عذريتها دون مساس إلى

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

أن تحظى بزوجها الأول. ويؤكد هذه الحقيقة أن الحفاظ على عذرية المرأة يعتبر الواجب الأول على عاتق عائلة أبيها. وأكبر خطيئة يمكن لها أن ترتكبها هي أن تسمح لأي أحد بأن يستمتع بها جنسيا دون زوجها.

لا يمكن في المجتمع البدوي أن يمارس الفصل الصارم للجنسين بصورة فاعلة. فلا يمكن تطبيقه أثناء فترات التخييم أو التنقل. ويلتقي الرجال والنساء من العوائل المختلفة ويرون ويعرفون بعضهم بعضها. وبحسب العرف السائد، يتزوج الشباب من فتيات ينتمين إلى نفس القبيلة أو العشيرة أو العائلة. وفي مثل هذا الوضع، لا تشجع الأعراف الصارمة على أي نوع من التواصل غير الشرعي المغري.

ويجب أن نضيف لما سبق القلق الأقل نسبيا في حياة البدوي، والذي ينشأ كنتيجة على المستوى البعيد للتأكيد الشديد الذي تمارسه الأخلاقيات البدوية في سبيل تأمين تلاحم الجماعة. إذ يتم تقييم حياة أي فرد من أفراد الجماعة بشكل أساسي من خلال مساهمته في ثروة الجماعة. وهذا يعني أن الجماعة التي يقوم كبار السن باتخاذ قراراتها والتعبير عنها ستكون مستعدة دائما للتضحية بحياة أفرادها إن كان شرف الجماعة مهددا. وانطلاقا من أن المرأة تعتبر تابعا للرجل، وأن القيمة الأساسية للمرأة من منظور الجماعة إنما تكمن في مدى قدرتها على أن تكون أمّاً، حاليا أو مستقبليا، فإنها إن ارتكبت خطيئة تمنعها من أداء هذه المهمة الكبرى فعليها أن تواجه مصيرها الحتمي: الموت. لقد تمت إحاطة الخطيئة الجنسية بمجموعة كبيرة من أنماط السلوك المحرم التي تؤدي إليها، وتوسع مفهوم العرض ليشمل جميع ذلك، وأصبح انتهاك العرض أيضا من الأمور التي يعاقب عليها بالموت.

إن كافة هواجس العقل العربي حول الجنس تعبر عن نفسها بمظهرين واضحين ينتشران في كافة أرجاء العالم العربي (مع بعض الاستثناءات المحلية). والمظهر الأول أن الرجل والمرأة ينظران إلى بعضهما البعض باعتبارهما كيانات جنسية، وهما واثقان

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

من أنهما كذلك في عين الآخر. أما المظهر الثاني فهو أن كافة نشاطات المرأة تعتبر من وجهة نظر الرجل أفعال مخلوق ذي مرتبة أدنى منه، ويأتي بذلك بالأخص من منظور إمكانية تعارض هذه النشاطات مع الأعراف التقليدية المتعلقة بالتمييز الجنسي.

ومن الأمور التي تختص بها صرامة الإدانة التقليدية أنه حتى في أوساط العرب الذين يفضلون إجراء تحسينات خاصة على وضع المرأة يستمر الإيمان بأن الرجل والمرأة لا يتمكنان من الامتناع عن ممارسة الجنس إن تركا لوحدهما. ففي الجزائر، أجري استطلاع لرأي الرجال العرب في قرية من قرى الواحات البعيدة وفي المدينة القديمة من الجزائر العاصمة، وكان السؤال: «ماذا تفعل إن عدت إلى منزلك ووجدت رجلا غريبا فيه؟» وكانت الإجابة نمطية على الأعم؛ فكل رجل عربي يفسر وجود رجل غريب في بيته على أنه دليل على الزنا. وكانت الإجابات فورية في العادة، حادة وعاطفية: «سأقتله.» وكما قال أحد الطلبة الجزائريين العرب، فإن الشاب لا يرى المرأة، إن كان صادقا، إلا كغرض للمتعة؛ بينما يعبر الكاتب والقيادي الثوري الجزائري مولود فرعون عن ذلك بشكل فظ فيقول: «إلى يومنا هذا، لا تزال الحياة الاجتماعية والعادات والتقاليد ترى هدفا ضروريا لها في الحماية الصارمة للحياة الجنسية للمرأة. إن الرجال يعتبرون هذه المهمة لا مناص منها، وأن شرفهم مدفون في الفرج وكأنه كنز أثمن من الحياة...» وبالمقابل توجد صورة نمطية عن المرأة تصورها كنوع من المخلوقات التي لا يمكن الوثوق بها وأنها «كما الحيوانات، تواقة للجنس وتحاول ممارسة الجنس مع أي رجل.» أو كما يقول عرب السودان، «ما التقى رجل وامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما.»

ولا يمكن للمرأة أن تكون بعيدة عن تأثير هذه الآراء الذكورية، والتفاعل معها. فهي تلاحظ أن المرأة غرض شهواني يجب أن يلاحق، وما أن يدرك يتلقّ الإدانة. كما أن الرجل تلقى تربية تجعله محبا للتملك تجاه المرأة وأن يكون موقفه حيالها موقفا شهوانيا بحتا... وبسبب الموقف البدائي تجاه الحياة الجنسية الذي تربت عليه، تعتقد المرأة أن ثمة شيئا معيبا يتعلق بالجنس. وبنفس الوقت، تجدهن واثقات من أن الرجل «مهجوس بالجنس.»

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل الثامن: مملكة الجنس

إن هذه المؤشرات المعدودة، التي يمكن ضرب أمثلة مشابهة لها في العالم العربي وتكثرها عددا، يجب أن تكون كافية للدلالة على هواجس تأثيرات الجنس التي يحملها في ذهنه كل من الرجل والمرأة عن الجنس الآخر، وبالتالي لا مناص من أن يشعر بها تجاه جنسه هو. والخلاصة من هذا كله: لا يمكن للجنسين إلا أن ينجذبا لبعضهما البعض، ويريا الآخر باعتباره غرضا جنسيا في الأساس، وأنه يجب أن يطوق بقوانين شديدة «وأسوار» تمنعه من الدخول في متعة جنسية غير شرعية.

أما المظهر الثاني لهذا الهاجس فهو أنه ما من نشاط أنثوي يمكن أن يعرض دون الإشارة إلى الاعتبار الطاغي لتهميش الأنثى. ولهذا، مثلا، يعارض التقليديون دخول المرأة العربية إلى عالم الأعمال لا بسبب قدرتها أو عجزها، وإنما تأكيدا على أن المرأة لا تستطيع الحفاظ على عذريتها هناك. وهذه الاعتبارات نفسها تحفز التقليديين لمنع دخول المرأة إلى عالم السياسة. وفي عام 1952، رفض علماء الأزهر طلبا بالسماح للمرأة بالانتخاب والترشيح للبرلمان، واعتمدوا في رفضهم على وصية قرآنية: [وقرن في بيوتكن]، ومن هنا رأوا بأن «من واجب المرأة أن تفعل كل ما هو ممكن لحماية شرفها وسمعتها... وأنها يجب أن تحجب عن كل ما يغريها أو يجعلها سببا لإغراء الآخرين.» وعلى المرأة أن تستثنى من اللقاءات، وهو أمر واجب الحدوث في التصويت والانتخاب وجلسات البرلمان وما إلى ذلك، لأن مثل هذه المناسبات ستجمعها بالرجال مما يرفع احتمالية نشوء علاقة جنسية. وهذه الحجة تم إسنادها برأي يرى أن المرأة تتأثر عاطفيا بشكل خاص: «وفي الحقيقة، فإن المرأة، وبتأثير أنوثتها، تميل للخروج عن طريق العقل والصواب.»

وعلى الرغم من أن علماء الأزهر اضطروا لمجاراة تغيرات الزمن (حصلت المرأة على حقها في التصويت في مصر عام 1956، وفي سوريا عام 1949، وفي لبنان عام 1952، وفي العراق عام 1967)، فإن آراءهم التي عبروا عنها في فتواهم السابقة عن الاختلافات الفطرية ما بين عقل الرجل وعقل المرأة لا تزال تجد من يعتنقها في العالم العربي، رجالا ونساء، متعلمين وأميين. وحتى في أوساط النساء العربيات المنفتحات اللواتي يعملن في وظائف

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل الثامن: مملكة الجنس

خارج المنزل، يلاحظ المرء دائما نوعا خاصا من وعي الذات يعبرن عنه من خلال مقدار بقايا الخجل الذي يحسسن به بعد تركهن للحجاب أو اعتدالهن في معارضته. ويلاحظ في العالم العربي غياب التلقائية الطبيعية الذي يتعامل به الجنسان مع بعضهما في الغرب المتعلم، رجالا ونساء، شبابا وفتيات.

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

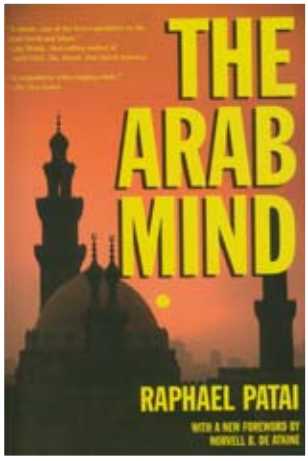

العقل العربي 32

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

الفصل الثامن
مملكة الجنس

2. الكبت الجنسي

هنالك مفهومان شائعان حول الحياة الجنسية للعرب يصادفهما المرء في الغرب. أحدهما يصور العربي على أنه ضحية القيود القاسية في المجال الجنسي، ويعيش في مجتمع تنفصل فيه النساء المحجبات عن الرجال. أما الثانية فتصوره على هيئة «كهل قذر» أمضى عمره يستمتع بالرقص الخليع للراقصات شبه العاريات في العلن. أما في حياته الشخصية فهو يمارس الجنس بإفراط مع «حريمه.» وكما هو حال المفاهيم الشائعة والصور النمطية، ليس لهاتين الصورتين سوى حظ ضئيل من الواقعية.

تحتوي الحياة الجنسية للعرب على العديد من النواحي المتعددة التي يشترك الغربيون معهم بها. لذلك، فإن من الخطير جدا أن نجازف بإطلاق أي تعميم حول الحياة الجنسية للعرب، إلا إذا أردنا أن نقول بأن الجانب الجنسي يشكل جانبا أكثر حساسية في حياة العربي مقارنة بالغربي. وبسبب هذا الموقف، فإن الدراسات المتعلقة بهذا المجال تصادفها عوائق أكبر مما تصادف الدراسات الأخرى. ولا يواجه الباحث المصاعب في القيام بعمله كأنثربولوجي أو عندما يقوم بالمقابلات الشخصية فحسب، وإنما يجد ذلك في استخلاص المعلومات من الكتب والدراسات، حيث لا توجد إلا القليل من البيانات أيضا.

وكما هو حال العديد من الجوانب الأخرى لحياة العربي، فإن الجانب الجنسي يمر بحالة من التغير حاليا. فتحت وطأة التغريب، بدأت الأعراف الجنسية بالتغير. وكلما زاد تقبل الأخلاقيات الغربية لدى العرب، زاد جفاف المنابع التي تستقي منها الأعراف الجنسية العربية المغرقة في القدم. ومع أن الغالبية العظمى من العرب لا يزالون متمسكين

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل الثامن: مملكة الجنس

بالتقاليد القديمة، فإن عدد هؤلاء الذين يتبعون التقاليد الغربية يتزايد يوميا.

وبملاحظة التقاليد العربية الجنسية المسموح بدراستها، دون أن ندلف إلى أسرار غرف النوم، يخرج الباحث بانطباع مفاده أن هذه التقاليد نتاج لكبت فظيع. إن ما يلاحظ من تجنب متبادل بين المرأة والرجل في الأماكن العامة، ووجود مجتمعين منفصلين لهما لكل تقاليده ولغته وواجباته الدينية، وغير ذلك العديد من العوامل تشير، حتى بالنسبة للباحث غير المتدرب على وسائل علم النفس، إلى أنماط سلوك تطورت استجابة لكبت مبكر.

ويتفق كل من مؤيدي النظرية الفرويدية وعلم النفس التجريبي على وجود صلة مؤكدة بين العنف والحياة الجنسية. فليس العنف واضحا أكثر عند الذكور فحسب، إنما تتزايد شدته بتزايد شدة الدافع الجنسي لديهم أيضا. ومع أن هذا الميل للعنف يتم كبته من الطفولة المبكرة وعلى امتداد حياة الفرد، فإنه يترك أثرا في اللاوعي. كما يظهر من الحقيقة القائلة بأن «إنتاج الرغبات الطفولية والتخيلات المتعلقة بالطبيعة الجنسية تستمر حتى عمر متأخر.» أما الأداة التي يفرض بها الكبت على الطفولة المبكرة فتتمثل في التأثير الأخلاقي للبيئة المحيطة: وفي مقدمتها الموقع المسيطر الذي تحتله الأم.

إن مطالبة الوالدين الدائمة بأن يحقق طفلهما آمانيهما تعد عاملا أساسيا في خلق شعور بالإحباط عند الطفل. ويجد الطفل أحيانا هذا الإحباط خارجا عن قدرة تحمله، ويرفضه أو يرفض هيمنة والديه، ويظهر هيجانا عاطفيا في مزاجه، وهذا ما هو إلا محاولة شديدة لتأكيد الذات. وبينما يجادل بعض الباحثين بأن «العنف في الأساس تعبير عن الحيوية.» يفترض معظم علماء النفس أن العنف مرادف للعدائية والتدميرية، وأنه يتصاعد دائما كاستجابة للإحباط. وبهذا الاعتبار الأخير سنستخدم مفهوم العنف في هذا الفصل في رحلتنا لفهم متلازمة (الكبت الجنسي-الإحباط-العنف) في الشخصية العربية.

وللبدء بذلك، علينا أن نحاول معرفة ماهية الموقف الذي يغرس في ذهن الطفل حول الجنس. توجد بعض الأدلة الموثقة على تأثير أساليب تنشئة الطفل لدى العرب في هذا

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

الفصل الثامن: مملكة الجنس

المجال، وبالأخص بعد السنة الثانية أو الثالثة من العمر حيث تكون هذه الأساليب شديدة العنف. ويلاحظ في الأسرة العربية التقليدية أن الممارسات الجنسية للأطفال تكون إما في نطاق التجاهل أو الإنكار. ويتصف الموقف العنيف للأمهات لمظاهر هذه السلوكيات لدى أطفالهن بأنه شديد إلى درجة جعلت 75% من الأمهات اللواتي سئلن عن ذلك يجبن بأن أطفالهن لم يمسوا أبدا أعضاءهم التناسلية. وفسر هذا الأمر من وجهة نظر الباحث الذي أجرى الاستجواب بأنه قد يعكس معارضة الأمهات الشديدة لمثل هذا السلوك أكثر من كونه حقيقة واقعة؛ فيرى أن الأمهات يعارضن مثل هذا السلوك بصرامة إلى حد يمنعهن من الاعتراف، حتى لأنفسهن، بأنه قد يقع. وأشد من ذلك أن 25% من الأمهات اللواتي اعترفن بأنهن صادفن أطفالهن وهم يلهون بأعضائهم التناسلية، فإن جميعهن (حوالي 90%) عبرن عن رفض كامل لذلك. ولم تكن الأمهات العربيات في موقفهن هذا أشد صرامة من الأمهات الأمريكيات في المسائل الجنسية، ولكنهن أقل سماحا بكثير في ما يتعلق بالعنف الموجه ضد الوالدين، وأكثر شدة في التدريب على قضاء الحاجة (التخلي) والعقاب البدني.

إن النتائج المترتبة على هذا النوع من أساليب تنشئة الطفل في سياق ثقافة موجهة دينيا، كالثقافة العربية، يراد منها أن تخلق ترابطا شديدا في عقل الطفل ما بين الجنس والخطيئة. وفي إحدى كتاباتي أشرت إلى أنه في المجتمعات اليهودية التي تعتمد التشريع التوراتي والتلمودي، يعتبر الزنا (وأعني به أي نشاط جنسي غير شرعي) «ينظر إليه باعتباره كبرى الخطايا، وأشد ما يكرهه الرب منها، والخطيئة التي لا يغفرها.» واستمر العرب على اتباع هذه الرؤية القديمة بالكامل إل يومنا هذا. وكما أورد ادوارد عطية في سيرته الذاتية، كانت هنالك العديد من الخطايا التي يحذره أبواه منها لكن:

> كانت هنالك الخطيئة التي غطت على الأخريات، الخطيئة الكبرى، خطيئة الخطايا: الجنس. وبالتدريج لُقِّنت الانتباه إلى أن الجنس بكافة وجوهه هو أمر يجب الشعور بالعار منه، وينبغي أن يبقى طي الخفاء. ولا يمكن أن يسمح به إلا ضمن رباط الزواج المقدس، ليكون نوعا من الإهانة المشروعة. أما خارج هذه

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

الفصل الثامن: مملكة الجنس

الحدود. فمجرد القبلة هي عمل داعر ما لم تكن في إطار زواج وشيك... وكانت النتيجة الصافية لكل هذه التأثيرات تطور في عقلي شعورا عاما وحادا من العار حول الجنس بكافة وجوهه وأنواعه، شرعيا أم غير شرعي. وبدا لي أنه حتى الزواج لا يمنح المرء القدرة على الاقتراب من الموضوع بشكل آمن ومؤدب. وفي أيامي الأولى في المدرسة كنت شديد الخجل حتى أنني كنت لا أجرؤ على أن أذكر الفتيات في حديثي.

إن الموقف الذي ذكره عطية حيال الجنس هو وصف دقيق لما يتوقعه المرء كنتيجة لكبت شديد يطالب به الوالدان العربيان. فعندما يبلغ الطفل السادسة أو الخامسة من العمر، يكون الكبت قد ترسخ فيه ليحدد موقفه فيما بعد من الجنس كبالغ، أو يؤثر به على الأقل. ويظهر تأثير الكبت والخجل في تأخر بداية النشاط الجنسي. فقد أجريت دراسة على شريحة صغيرة من طلاب الجامعات العرب من لبنان وسوريا والأردن والعراق (113 طالبا من الذكور، تتراوح أعمارهم من 17 إلى 28 عاما) على هيئة استطلاع رأي. وكانت الإجابات على الأسئلة تحمل بعض المعلومات في هذا الموضوع. حيث كانت الإجابات تقول بأنهم عاشوا حالات الاحتلام في نفس العمر الذي عايش فيه الطالب الأمريكي الحالة نفسها (وفق دراسات عالم الجنس الأمريكي الفريد كينزي Alfred Kinsey)، وهذا يشير إلى أن كليهما وصل إلى مرحلة البلوغ الجنسي في السن ذاتها. وهذا بحد ذاته اكتشاف مهم لأنه ينقض ما يلاحظه المرء من الفكرة السائدة حول العرب والتي ترى بأنهم يصلون مرحلة البلوغ الجنسي أبكر من نظرائهم في النصف الشمالي من الكرة الأرضية. وما دام كلامنا عن الرجال، فإن هذا الرأي لا يبدو منطبقا عليهم. ومع ذلك، قام الطلاب العرب بتجاربهم الجنسية الأولى (سواء أكانت استمناء أم مضاجعة: مثلية أو طبيعية) بعد حوالي سنة من العمر الذي يفترض بالطالب الأمريكي أن يختبر فيه تجربته الجنسية الأولى. وأعطى مؤلفو الدراسة تفسيرا لهذا الظاهرة فرأوا أن ذلك قد يكون نتيجة للكبت الجنسي في المنزل. وأشارت إحدى النتائج إلى الأثر المستديم للكبت الجنسي المبكر: إذ

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

الفصل الثامن: مملكة الجنس

قدّر الطلاب نسبة وجود أنواع مختلفة للنشاط الجنسي بين الذكور من أصدقائهم وباقي أعضاء المجتمع بقيمة أقل مما نتج عن البيانات المجموعة. كما قدّروا نسبة النساء اللواتي قمن بنشاط جنسي قبل الزواج بقيمة منخفضة جدا. ومع ذلك فإن 34% من هؤلاء الطلاب قام بممارسة الجنس مع نساء عاديات لا يعملن في الدعارة.

إن هذه الفجوة ما بين الاعتقاد والواقع يوازيها اختلاف مماثل ما بين السلوك العلني والسلوك الخاص. ويحمل التصرف العلني جنسيا على الاعتقاد بأن الكبت الجنسي المطبق في الطفولة يستمر في نتائجه إلى البلوغ. فكل تصرف جنسي علني يعتبر أمرا مشينا لدى العرب. والزي العربي -باستثناء بسيط- يخفي بفعالية الشكل العام للجسم البشري ويغطيه من الرقبة للقدم. وفي الطبقتين الوسطى والعليا من المجتمع. فرضت العادات والتقاليد على المرأة أن تلبس حجابا على وجهها؛ بينما يقوم الرجل والمرأة كلاهما بتغطية رأسيهما وشعرهما. لذا فإن أحد ردود الفعل للعربي على مظهر الغربي يتمثل في أن يعتبر تصرفه يكشف الكثير من الجسد ولذا فهو معيب. وكان هذا رأي العربي عندما رأى المرأة الأوربية وهي ترتدي التنورة القصيرة الضيقة والبلوزات المحكمة ذات الأكمام القصيرة أو من دون أكمام مع فتحة عند الصدر. بالإضافة إلى تسريحات منمقة لشعرهن المكشوف. ووجوههن المكشوفة المجملة بالماكياج؛ وذلك الحال نفسه بالنسبة للرجال الأوربيين ذوي البناطيل الضيقة التي تحدد ملامح الساقين والأرداف. والقمصان ذوات الأكمام القصيرة والصدور المفتوحة. وذقونهم الحليقة. وشعرهم الأنثوي الطويل المكشوف.

في المجتمع العربي التقليدي. لا يحلم الرجل وزوجته أبدا بأن يسيرا سوية في الشارع جنبا لجنب. دون الحديث عن السير ذراعا لذراع أو يدا بيد. فمثل هذا التصرف قد يعتبر تعبيرا مشينا عن الحميمية بعيدا عن مكانه الملائم في المنزل أو في الجو الخاص الذي توفره غرفة النوم. وحتى في المنزل يراعي التواصل ما بين الرجل وزوجته القيود نفسها في حضور الأطفال أو الأقرباء أو الوالدين. ويصل هذا الأمر إلى درجة شديدة تجعل من السيئ

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

الفصل الثامن: مملكة الجنس

أن يستفسر الرجل عن حال زوجة صديقه. وتتصف كلمة «زوجة» نفسها بأنها غير محببة في الاستعمال الشائع لأنها تحمل تأويلا جنسيا (لاشتقاقها من فعل التزويج). ويتم الاستعاضة عنها باستعارات غير مباشرة مثل «امرأتي» و«مدامتي» و«حرمي» و«أم حسن» و«بنت عمي» و«يختي» و«يا بنت الناس.» وتدعو الزوجة زوجها، بالمقابل: «يا سيدي» و«يا ابن عمي» و«يا أبو حسن.»

ويشاهد الموقف المقيد ذاته في سلوك الشباب قبل الزواج، وذلك على الأقل في المناطق التي تسيطر عليها العادات والتقاليد. فالفتيان يرغبون برؤية الفتيات ويفعلون أمورا متهورة للحصول على نظرة واحدة. لكن أخلاقيات القرية ترى أنه من غير المناسب حتى أن يتبادلوا النظرات في ساحة أو شارع. وعليه، يمكن للمرء أن يصادف المشهد التالي كل مساء في إحدى القرى اللبنانية المدروسة: يتسكع شباب القرية جيئة وذهابا عند بئر القرية في المساء قبل نصف ساعة من الوقت الذي يعلمون بأن الفتيات سيحضرن فيه لجلب الماء. والغرض من هذا الاستعراض، بالطبع، أن يحظوا بنظرة من فتاة. لكن ما أن تقترب الفتيات للسقاية يتوقف الشباب عن استعراضهم. فمشهد الفتيات نفسه، والذي أمضوا نصف ساعة في انتظاره، يقدح في داخلهم شرارة رد الفعل الداخلي على مشهد امرأة لا تمت لهم بصلة، فيبتعدون بشكل آلي، لأن من غير المناسب أن يبقوا هناك يحدقون بشهوة فيهن.

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

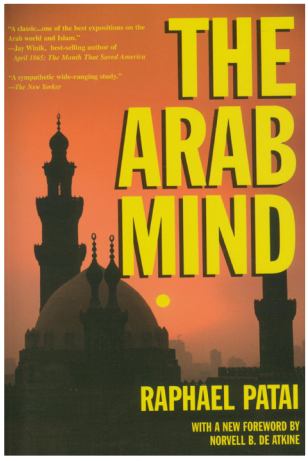

33 العقل العربي

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

الفصل الثامن
مملكة الجنس

3. الحرية الجنسية والضيافة الجنسية

بينما يلاحظ التقييد في العديد من أنحاء العالم العربي وقطاعات عديدة من المجتمع العربي، ثمة مدى كامل من التفاوت المحلي فيما يخص حدود السلوك الجنسي المشروع. ففي المجتمع البدوي والقروي، بالإضافة إلى الطبقات السفلى من سكان المدن، تتطلب حاجات الحياة اليومية من النساء أن ينخرطن في نشاطات معينة خارج المنزل. وفي أوساط البدو تقوم النساء بجمع الحطب والروث ورعاية الحيوانات وإحضار الماء وما إلى ذلك. أما عند القرويين فالنساء ينقلن الطعام إلى الرجال في الحقول ويساعدنهم في أعمال الزراعة وخاصة أيام الحصاد ويحضرن الماء ويأخذن المنتوجات الزراعية إلى السوق... إلخ. وفي المدن يذهبن إلى السوق لشراء الطعام ويعملن في منازل الأثرياء كخادمات . ومع تقدم موجة التغريب، أصبحن ينخرطن أكثر فأكثر في الوظائف التي تدرّ عليهن الدخل خارج المنزل. وفي هذه النشاطات جميعها يكون للفتاة غير المتزوجة فرصة لأن ترى الرجال ويروها، ويتلو ذلك لقاء فصداقة. وحتى قبل أن تبدأ نزعة التغريب، كان الفتيان والفتيات يتمتعون بالحرية في نطاق القرابة حتى في أنبل القبائل البدوية، مما ينتج عنه مغامرات عاطفية تنتهي بالحمل في كثير من الأحيان وهذا ما يؤدي إلى عواقب مأساوية في العادة.

جرت العادة في المجتمعات المستقرة على وجود مهرجانات دينية في المساجد تفرضها العادات والتقاليد ويشارك فيها الرجال والنساء حيث تسنح الفرصة للمغازلة، ويشعر الرجال بحرية في لمس النساء دون رادع. ويلاحظ بالأخص في أطراف العالم العربي، وفي المناطق البعيدة عن المدن الإسلامية، أن تقاليد ما قبل الإسلام لا تزال سائدة لتسمح بحرية أكبر بكثير فيما يخص العلاقة ما بين الجنسين، وتسمح بأخلاقيات جنسية تُشعر

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

الفصل الثامن: مملكة الجنس

المسلم العادي بالرعب والاشمئزاز. وثمة ذكر لتساهل جنسي كبير في منطقتين تقعان كلاهما على هامش الثقافة العربية الإسلامية: الطوارق في غرب وسط الصحراء العربية، وسكان الحافة الجنوبية لشبه الجزيرة العربية. وسوف نتناول كليهما بالبحث في هذا الفصل، ولكننا سنقصر ملاحظاتنا على المنطقة الثانية.

يقول الرحالة والجغرافي العربي ياقوت الحموي (1179-1129م) في معجمه الجغرافي الشامل، معجم البلدان، واصفا مدينة المرباط التي تقع على الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية:

> «فيهم قلة غيرة كأنهم اكتسبوها بالعادة؛ وذلك أنه في كل ليلة تخرج نساؤهم إلى ظاهر مدينتهم ويسامرن الرجال الذين لا حرمة بينهم وبلاعبنهم ويجالسنهم إلى أن يذهب أكثر الليل، فيجوز الرجل على زوجته وأخته وأمه وعمته وإذا هي تلاعب آخر وتحادثه، فيعرض عنها ويمضي إلى امرأة غيره فيجالسها كما فعل بزوجته.»

وبعد أكثر من قرن، ورد تقرير آخر عن أخلاقيات بلدة أخرى في جنوب شبه الجزيرة العربية. وقد وضع هذا التقرير ابن بطوطة، أحد أشهر الرحالة في زمانه، والذي زار معظم أنحاء العالم المعروف في القرن الرابع عشر. وذكر ابن بطوطة أن نساء نزوى، البلدة الرئيسية في عمان «ذوات أخلاق سيئة جدا» وأن أقرباءهن من الرجال لا يشعرون بالغيرة عليهن ولا يمانعون سلوكهن. والنساء يستسلمن للرذيلة بحماية من الأمير، ولا يستطيع حتى آباؤهن من أن يمنعوهن من ذلك.

إن اللامبالاة الجنسية، أو ما أشيع عنها، لا يزال موجودا طي الكتب. وأكثر شكل يلاحظ لهذه الظاهرة هو الضيافة الجنسية. فقد ذكر يوهان لودفيغ بيركهارت (Johann Ludwig Burckhardt)، وهو رحالة ومستعرب سويسري شهير، في بدايات القرن التاسع عشر أن إحدى القبائل في جنوب غرب شبه الجزيرة العربية كانت تمارس عرفا قديما يقضي بأن يبيت الضيف مع زوجة مضيفه. فإذا ما توافق الضيف مع زوجة المضيف، عومل باحترام

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

الفصل الثامن: مملكة الجنس

كبير في الصباح التالي. وإذا لم يحصل ذلك، تقوم الزوجة بشق أسفل عباءته إشارة للعار، فيتم طرده يجرجر أذيال الاحتقار من قبل النساء والأطفال في المخيم.

إن الضيافة الجنسية وغيرها من مظاهر اللامبالاة الجنسية ظهرت في تقارير في أواخر القرن التاسع عشر عن قبائل مختلفة في جنوب شبه الجزيرة العربية، حيث للفتاة الحرية في ممارسة الجنس مع الغرباء بدءا من عمر الخامسة عشرة وإلى أن تتزوج. وحتى بعد الزواج، لا تمتنع الزوجة عن ذلك إلا إن كان زوجها على مقربة أو كان من الصعب إبقاء الأمر طي الكتمان. ولهذا التقليد أشكال تختلف من مكان لآخر، لكن العامل المشترك بينها هو الهامش الكبير من الحرية الجنسية الذي يُمنح للمرأة، بما في ذلك قضاء ليلة مع شخص لا يمت لها بصلة قربى، سواء أكان من القبيلة أم غريبا عنها. ولا بد أن هذا العرف كان طقسا متبقيا من طقوس الخصب التي يراد منها ازدهار عدد أفراد القبيلة والمواشي والزرع. وبينما أشار عدد من الكتاب المعاصرين إلى استمرار الضيافة الجنسية عند قبائل عربية محددة، فإن كتابا آخرين ينكرون ذلك، على الأقل في تلك الأجزاء التي ألفوها من شبه الجزيرة العربية. على أن كل التقارير تتفق على أنه ضمن قبائل محددة في شبه الجزيرة العربية، كان الرجال يكتفون بلبس الوزرات ويتنقلون دون غطاء للرأس، أما النساء فلم يكن يلبسن أي شيء في ما يعلو الخصر، دون حجاب، ويلتقين بحرية وتلقائية مع الرجال، ويقمن بجزء من واجب خدمة الضيوف ويتحدثن معهن. وكان الزواج والطلاق يحدث بسهولة كبيرة.

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

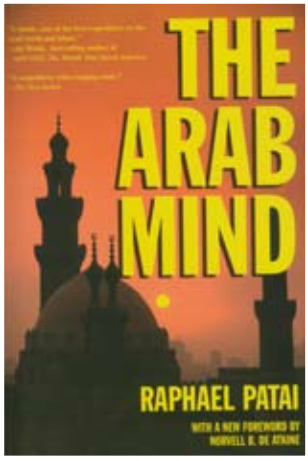

العقل العربي 34

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

الفصل الثامن
مملكة الجنس

4. الوسائل المختلفة للتنفيس الجنسي

إن التفاصيل المتعلقة بهذا الموضوع تلفت الانتباه لأنها في الأساس تشكل استثناءات للسلوك المؤدب الملتزم في العلن في كافة شؤون الخصائص الجنسية للعالم العربي بشكل عام. وعلى الرغم من ذلك، فإن السلوك العلني للعربي في وادٍ، وسلوكه في السر في وادٍ آخر. ففي السر، وُجد بأن النشاط الجنسي للطالب العربي أكثر كثافة مقارنة بالطالب الأمريكي. فما أن يتغلب الطالب العربي على العوائق التي كانت تكبحه في الطفولة، يقوم العديد من الطلاب العرب بعلاقات جنسية طبيعية وشاذة تفوق ما يقوم به الطلاب الأمريكيون المشار إليهم في المبحث السابق. أما عدد من يمارس الاستمناء فهو متماثل عند الطلاب العرب والأمريكيين، ولكن الطلاب الأمريكيين يمارسون الاستمناء بتواتر أكثر من أقرانهم العرب بمقدار الضعف تقريبا، وقد يفسر ذلك بأن الاستمناء مرفوض عند العرب أكثر مما هو حاله لدى الأمريكيين. على الجانب الآخر، تفوق العرب على الأمريكيين بمقدار يفوق الضعف (59%:28%) بما يخص عدد الطلاب الذين زاروا بيوت الدعارة قبل سنة من إجراء الاستبيان، وهذه الممارسة تعد التنفيس الأفضل «باعتبارها لا تحتوي إلى القليل من الرومانسية، ولا تقلص قدرة الشريك [الفتاة] على الزواج، ولا تلوث شرف العائلة، الخ.» وكل هذه الاعتبارات مألوفة لمن يلم بتاريخ أعراف بريطانيا في العصر الفيكتوري. ومن هنا لا يمكن اعتبار هذه النتائج تسليطا للضوء على العقل العربي بشكل خاص، إلا إذا اعتبرنا ذلك محاولة لإثبات موقف عام تم التغلب عليه منذ زمن طويل في الغرب.

على النقيض من ذلك، فإن الموقف من الشذوذ الجنسي عند العرب يعد أكثر تحررا إذا ما قيس بمثيله في الغرب قبل حركة «حرية الشاذين» قبل عدة سنوات مضت. فالمحظور

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل الثامن: مملكة الجنس

الاجتماعي الخاص بالشذوذ الجنسي ليس على ذلك القدر من القوة الذي شهدته أمريكا إبان الخمسينات حينما أجري الاستبيان، حيث رأى الطلاب أن النشاط الجنسي الشاذ بالخصوص متوافق مع الرجولة الحقيقية. وبهذا الاعتبار، يتفق الموقف العربي حيال هذا الأمر مع الموقف التركي، حيث يعتبر ممارسة الشذوذ الجنسي لدى الأتراك أمرا يؤكد على تفوق المرء من حيث رجولته الطاغية، بينما يعتبر تعرض المرء للشذوذ الجنسي أمرا شديد العار والإهانة لأنه يظهر الرجل أو الفتى بمظهر أنثوي تابع.

في معظم أنحاء العالم العربي، يعتبر الشذوذ الجنسي أو تحبيذه أمرا لا يخرج إلى العلن كما هو حال كافة مظاهر السلوك الجنسي. فهذه أمور خاصة تبقى طي الكتمان، ويعود ذلك بشكل خاص لورود نص في القرآن حول ذلك [قوم لوط]. ومع ذلك يبقى الرأي الشائع مخالفا لذلك رغم تحذير المدارس الفقهية، ويمارس الشذوذ الجنسي بشكل شائع إلى يومنا هذا. وفي المناطق النائية فحسب، مثل واحة سيوة التي تقع في الصحراء الغربية لمصر، يمارس الشذوذ الجنسي في العلن حيث يتبادل شيوخ القبائل والأغنياء أبناءهم في ما بينهم. ومن المثير أنه حتى في مكان مثل سيوة حيث يمارس الشذوذ الجنسي في العلن بشكل كامل، يحتقر الشريك المفعول به باعتباره امرأة. حيث يقول أحد من يعلم أخبارهم: «ليس هنالك رجل واحد في سيوة؛ فالجميع نساء.» ويشرح ذلك قائلا: «ألا ترى بأن الرجل إذا قام بهذا الفعل عندما كان صبيا، فإنه لعب دور امرأة؛ وعندما يقوم به وهو رجل، فإنه لا يزال يلعب دور امرأة.» أي أنه رغم ممارسة هذا الفعل ضمن العادات والتقاليد، فإنه من المهين للرجل أن يلعب دور المرأة.

ونفس التقييم للسلوك الجنسي باعتباره فرضا للسيطرة الذكورية العنيفة نستنتجه من النظرة العربية للاستمناء حيث تعتبره أكثر عارا من زيارة بيوت الدعارة. فالرجل يمارس مع العاهرات سلوكا ذكوريا. ومن يمارس الاستمناء يظهر عجزه عن ممارسة السلوك الجنسي الفاعل، فيعرض نفسه للعار.

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل الثامن: مملكة الجنس

ثمة موقف واحد يمكن فيه تجاوز محددات السلوك الجنسي في العلن. وذلك عندما يغضب الرجل أو المرأة فيسمح له بتوجيه هجوم لفظي من الشتائم الجنسية المسيئة. إن جاهزية العربي لينفجر فمه بمثل هذه الإساءة أمر لاحظه المستشرق البريطاني ادوارد ويليام لين (William Edward Lane) في القاهرة في أوائل القرن التاسع عشر ووصفه بشكل فريد قائلا: «بدءا من الأشخاص ذوي السوية العالية من الثقافة، تسمع دوما تعابير شديدة الإهانة بحيث لا تليق إلا بمستوى ماخور وضيع.» وحتى يومنا هذا، يمكن لأي شجار أو خلاف بسيط أن يدفع بسهولة إلى التلفظ الغاضب بألفاظ مثل «كس أمك» ويتبع ذلك تبادل لألفاظ أكثر صراحة مما يؤدي إلى ضرر أكبر وإهانات أكثر عصبية.

إن موقف العرب من الجنس يتصف بجانب إضافي يجب أن يعرض هنا أيضا، وهو العفوية المفرطة التي تعامل بها الرغبات والوظائف الجنسية عندما يشار إليها، أو حتى أنها تناقش بتفصيل كبير واستمتاع، وبخاصة عندما يكون مجلس الحديث مقتصرا على أحد الجنسين. وهذه الظاهرة يقف أمامها الباحث الغربي متحيرا، الذي لا يستطيع الجمع ما بينها وبين التأدب الكبير والخجل الذي يميز السلوك الجنسي العلني لدى العرب. فعلى السطح، يبدو أن ما يتعامل معه المراقب هو عبارة عن تمظهر صادم للتوجهات والاستقطابات والتناقضات المتعارضة والذي يبديه العقل العربي في الكثير من المناسبات. وقبل أن نحاول البحث عن تفسير لهذا التناقض، لنقم أولا بإلقاء نظرة أقرب على الطرق والسياقات التي تعبر من خلالها عن نفسها هذه الطريقة في تناول الموضوع الجنسي.

يمكن أن نجد أحد أسباب هذه الظاهرة في الأدب الشعبي الذي أمتع العرب، مثقفين وأميين، لعدة قرون (مثل كتاب ألف ليلة وليلة الشهير) إذ يحتوي هذا الأدب على وصف لحوادث كثيرة ارتكب فيها استغلال جنسي غير شرعي، وعرضت هذه الحوادث بشكل صريح لا يوجد ما يماثله في الأدب الجنسي الأوربي. وبينما يوجد قليل من الشك حول أن غرض الكاتب من ذلك كان إمتاع القارئ أو المستمع الذي كان بعيدا عن أن يعيش المغامرات المثيرة المذكورة، ففي نفس الوقت يلاحظ غياب كامل للتقييم الأخلاقي

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل الثامن: مملكة الجنس

للقصص. وليست المغامرات الجنسية التي يخوضها بطل القصة (مثل حكايات الأغنياء، وهي مكون قصصي آخر يحظى بالتفضيل في الأدب العربي) إلا نتيجة لحذره ودهائه، أو «ضربة حظ.» وثمة قاعدة لهذه القصص تقضي بأن لا يتعرض البطل لأية عقوبة أو انتقام، على الرغم من خرقه الواضح للأعراف الأخلاقية.

وتبدو اللامبالاة الأخلاقية السابقة واضحة في الحرية التي تتصف بها أحاديث الشؤون الجنسية، حتى مع وجود الأطفال. ومثل هذه الأحاديث حفظت في فترة الواقعة ما بين القرنين العاشر والثاني عشر من خلال تدوين قصص (ألف ليلة وليلة)، وأطال المستشرق لين الاستماع إليها وشعر أنه يجب أن يتكلم عن ذلك فقال: «تقوم النساء الشريفات بتسمية الأشياء بمسمياتها والتحدث عن الأمور الجنسية دون الالتفات إلى صلافة الحديث، وذلك على مسمع من الرجال، في حديث تكاد الكثير من عاهرات بلادنا يأنفن من الإشارة إليه.» وبعد مئة عام جاءت وينفريد بلاكمان (Winifred Blackman) لتلقي بالملاحظة نفسها واصفة النساء في إحدى قرى مصر العليا: «تشكل القضايا الجنسية الموضوع الأساسي في أحاديثهن.» وحتى في حضور الأطفال والبالغين «يقمن بمناقشة أشد الأمور خصوصية دون أي تحفظ يذكر.» وينتج عن ذلك أن الأطفال يألفون منذ نعومة أظفارهم سماع الأحاديث والنكات الجنسية. وينتج عن ذلك أن الأطفال يتلقون في وقت مبكر الموقف نفسه المسلّم به تجاه الجنس. وكما سجل أحد دارسي المجتمع العربي (الباحث المصري هنري عيروط): «حتى البنات اللواتي يلعبن بالدمى يقمن بتمثيل مشاهد جنسية شديدة الواقعية، ولكن هذا الهدوء الحيواني الصلف لا يدعو للذعر ولا علاقة له بخدش الحياء، ولا تتأثر به الأخلاق الأساسية.» وبالنتيجة، لا يجد الفلاحون تناقضا ما بين الكلام والسلوك غير المنضبط والقيود الجنسية الشديدة التي يقع الأولاد والبنات تحت طائلتها ما أن يصلوا سن البلوغ. ولا يحتاج الطفل العربي -إلا نادرا- إلى أن يتعلم «حقائق الحياة» من أب وأم خجولين: فقبل أن يبلغ بمدة طويلة، يكون الطفل قد تعلم كل كا يعرفه أبواه عن الجنس، بما في ذلك الجوانب المشروعة وغير المشروعة.

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

الفصل الثامن: مملكة الجنس

وفي محاولة فهم ما بمكن أن يصطلح عليه بـ(المفارقة الجنسية في الحياة العربية)، علينا أن ننتبه إلى أنه بقدر ما تصر العادات والتقاليد على عفاف المرأة والفصل الجنسي خارج عش الزوجية، تشجع هذه العادات والتقاليد نفسها على ممارسة الجنس داخل عش الزوجية. وتوجد أحاديث تنص على أن أفضل المسلمين هو من يتزوج أكثر، بينما تعد العزوبية أمرا ينافي التقاليد الدينية. وتبعا لهذا، يمكن للرجل أن يعبر عن رغباته أو نشاطاته الجنسية دون أن يشعر بالإحراج بنفس النمط الذي يعبر به عن جوعه أو استمتاعه بحمام ساخن. وتكثر الأمثلة على هذا السلوك في كل طبقات المجتمع العربي، من غني وفقير. ومما نقل عن الملك عبد العزيز آل سعود، أنه كان يمازح ضيوفه بعد الولائم، ولا يجد حرجا في أن يتكلم مع جليسه عما سيحصل للحرم بعد ذلك، ثم يعود بعد وهلة ليكمل حديثه دون أي إحراج.

وعندما يكون الأصدقاء متجمعين في حشد لا نساء فيه، يميل البعض إلى استعراض قواه الجنسية خالطا الحقيقة بالخيال. ويظهر نفس الموقف الصلف تجاه الجنس الزوجي في حادثة نقلها الباحث الأمريكي في شؤون الجزيرة العربية، ريتشارد سانجر (Richard H. Sanger). إذ يروي سانجر أنه في منزل أحد المسؤولين السعوديين المهمين، انضمت مجموعة من النساء لمشاهدة عرض خاص لفيلم سينمائي، وفي أثناء ذلك، رن جرس الهاتف الذي تم تركيبه مؤخرا في الساعة 11 ليلا، وكان المتصل زوج أربع نساء كن يشاهدن الفيلم، طالبا أن تأتي إحداهن إلى المنزل من أجله، وليس مهما أي واحدة. فنهضت النساء البدينات البطيئات الأربع فورا وغادرن راجيات مضيفتهن أن تسمح لهن بالمجيء في الليلة التالية لمشاهدة نهاية الفيلم.

مما سبق تتبين الحدود ما بين الجانب الخجول والجانب الصلف في السلوك الجنسي. وأول هذه الحدود: الحظر الشديد لأي اتصال مهما كان شكله في العلن ما بين الرجال والنساء، ولا يمكن خرق هذا الحظر إلا بما توفره الحشود من مجهولية الاسم. أما على المستوى الخصوصي، فكل شيء مباح وتسقط كل التحفظات. وعندما يعلم العربي أن

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©
شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل الثامن: مملكة الجنس

لا أحد يراقب ما يفعله، وأن بإمكانه نتيجة لذلك التصرف دون خشية العقاب، فإنه يخترق القيود والتحفظات.

أما بالنسبة للتمظهرات اللفظية، فالوضع مختلف. فعندما يجتمع الأصدقاء من جنس واحد، يمكنهم التعبير عن اهتماماتهم بالمسائل الجنسية بشكل صريح، وهذا يتوافق مع ميل العرب إلى التعبير اللفظي والإسهاب اللغوي، وعادة ما يكون للكلام عن الجنس متعة توازي متعة ممارسته. وثمة بعض الحدود في ذلك، إذ يجب الامتناع عن ذكر زوجة أو زوج أحد الجالسين أو الجالسات. وعندما يكون الكلام منصبا على الجنس، تعتبر الجلسة أحادية الجنس حلقة خاصة؛ فلا يصبح هذا الكلام محظورا إلا إن دخل شخص ما من الجنس الآخر إلى الجمع.

ومما عرضناه سابقا يتبين أنه لا توجد في الحقيقة ما يمكن تسميته بالمفارقة في السلوك الجنسي عند العرب، وإنما توجد استقطابات. فهناك استقطابا الشرعي وغير الشرعي: فيشجع الأول ويمنع الآخر. وهناك استقطابا العلني والخصوصي: ففي الآخر حرية استمتاع كاملة، وفي الأول منع من مجرد الإشارة غير المباشرة. وهناك استقطابا الفعل والقول: إذ يمكن الحديث في مجلس أحادي الجنس عن الجنس بقدر ما يشاء المرء، لكن ممارسته محاطة بقيود كثيرة. وفي نطاق الكلام، هناك استقطابا الانضباط والتسيب: في الأول لا ترى سوى التنميق والمحددات، وفي الآخر موجة قول فاحش تثيرها نوبة غضب.

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

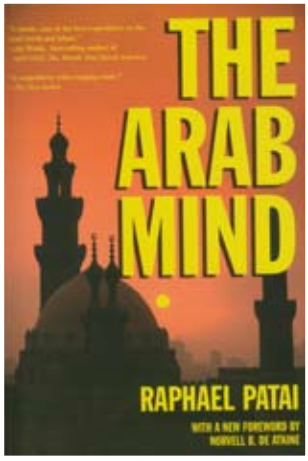

العقل العربي 35

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

الفصل الثامن
مملكة الجنس

5. الازدواجية والتغيير

قيل ما يكفي عن الأعراف الجنسية المتجذرة في أذهان العرب صغارا وكبارا، وعن المناخ الذي يحيط بمملكة الجنس، وذلك من أجل أن نشتبه بأن الموقف العربي التقليدي تجاه الجنس لا يد أن يكون مزدوجا. وهذا، في الواقع، يمثل حقيقة الأمر. إن التذكير المستمر بما في الجنس من خطيئة هو في الوقت ذاته تذكير بمرغوبيته. إن عملية تثقيف الأطفال، أبناء وبنات، تتضمن سلسلة مكررة من التحذيرات حيال الجنس، إلى أن يتجذر فيهم الوعي الذي يمنعهم من اقتراف أي تعدٍّ يلحق كارثة على هذا المستوى بالعائلة كلها كما هو حال الأخطاء الجنسية. ويدرك الأطفال أثناء نموهم أن كافة الترتيبات الاجتماعية تقريبا المختصة بتحديد حياة المجتمع تتمحور حول مسألة واحدة هي الحماية من احتمال حدوث تعدٍّ جنسي. ويؤدي ذلك إلى رسم صورة محددة في ذهن الفرد عن جنسه وعن الجنس الآخر. إن الشاب ينشأ وهو يدرك بأنه لولا الفصل بين الجنسين والموت الذي ينتظره إن هو ضبط متلبسا بإساءة جنسية، فما من محرمات يجبره تكرار ذكرها على الامتناع عن ممارسة الجنس في أول فرصة تسنح له. كما يصل إلى نتيجة مؤداها أن غريزته الجنسية شديدة القوة بحيث ليس هنالك إلا الموانع المحسوسة لتحول دون ممارسته الجنس مع امرأة من محيطه الاجتماعي، كأن يكون هذا المانع الفصل الجنسي أو الرقابة. وتتعزز هذه الصورة التي يحملها الشاب تجاه نفسه بما يحس به من انطباع تجاه الفتيات والنساء: فهو يرى أن رغبتهن الجنسية تساوي رغبته في الشدة، وما عليه إلا أن ينفرد بإحداهن، حيث ستقاوم بشدة أول الأمر، لكنها سرعان ما «تنكسر عينها» وتصبح طوع يديه إذا استمر بتقبيلها. في الواقع، وكما هو حال الرأي الشعبي، للنساء رغبة جنسية أشد من مثيلتها

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©

عند الرجال.

إن الصورة التي تحملها المرأة لنفسها لا تخرج في الواقع عما ذكرناه. إذ تنشأ المرأة على تصديق أنها لن تستطيع مقاومة الرجل وما يبدر عنه إن هي انفردت به. لذلك ينبغي عليها أن لا تسمح لنفسها بأن تكون في موقف كهذا. كما تعلمت منذ الصغر أن مجرد رؤية الرجل للمرأة يمكنها أن تثير غريزته. وعندها لا يمكن إلا لمؤثر خارجي أن يمنعه من تنفيذ رغبته. إن هذه الانطباعات والتوقعات هي، بالطبع، تقع بسبب افتراض أنها تقع. وفي مجتمع يعتقد فيه الجميع أنه في غياب مانع خارجي لا يمكن للرجل والمرأة أن يحولا ممارستهما للجنس، سيتصرف الرجل والمرأة كذلك تبعا لهذا الافتراض.

من هنا فإن الجنس ممنوع، ولذلك فهو مرهوب، ومرغوب، ومن هنا فإنه مطلوب. والمنع والرغبة كلاهما يختبرهما المرء على قدرٍ ما من الشدة، بحيث يمكن يشير هذا القدر إلى شدة كبت الاهتمام الجنسي في مرحلة الطفولة. وبعد البلوغ يخلق هذا الكبت إحساسا شديدا بالإحباط. أما إذا تعطلت آليات التحكم الاجتماعي أو استثنيت، فإن العدائية المكبوتة تنطلق بفعل الغريزة الجنسية المكبوتة وتظهر في العلن لتعبر عن نفسها بشكل جنسي كما هو حال أي تعبير عدواني آخر. وفي مثل هذا الوضع، يقوم الغضب بإطلاق إساءات لفظية جنسية عدوانية شديدة. وثمة وضع آخر يحدث عندما ينقل الفرد إلى وسط اجتماعي جديد (مدينة جديدة مثلا). ففي بيئة يعتبر فيها مجهولا، يحس الفرد أن المحظورات القديمة، بما تتضمنه من تهديد بالعقوبة، يمكن أن تنتهك بأمان. وثمة وضع ثالث يعجز فيه المنع عن أداء عمله ويحدث عندما تشاء الصدف أن يتواجه رجل (أو مجموعة من الرجال) مع امرأة في مكان لا شهود فيه. ففي هذا الوضع، وخاصة إن كانت المرأة لا تنتمي إلى جماعة الرجل أو تنتمي إلى عشيرة معادية، فإن المحتمل جدا أن تتعرض هذه المرأة لإساءة جنسية. وإذا كان ممكنا لها أن تتعرف على من هاجمها، فربما تتعرض للقتل من أجل حماية مهاجميها.

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©
شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

الفصل الثامن: مملكة الجنس

قبل أن نصل إلى استنتاج ما أوردناه في هذا الفصل، دعونا نقترب، ولو بشكل مختصر، من التساؤل حول إمكانية وجود أية حقيقة في النظرة إلى العرب باعتبارهم مدمنين للجنس إلى مدى يفوق نظيره عند جيرانهم الشماليين. فهل هم أكثر قابلية للإغراء، وأكثر ميلا لإشباع أنفسهم بممارسة الجنس طلبا للمتعة الناتجة عن ذلك؟ هل يلعب الجنس دورا أهم في العقل العربي مقارنة بالانكليز والألمان مثلا؟ ونعثر على إجابة لهذه الأسئلة عند المستشرق البريطاني ادوارد ويليام لين (William Edward Lane) في أوائل القرن التاسع عشر والذي كان مراقبا ماهرا وكتب تقارير دقيقة، حيث أجاب بنعم. يقول لين: «كلما كان الإغراء متعلقا أكثر بإشباع الرغبات الشهوانية، كان المصريون، ومعهم سكان كافة المناطق الحارة، يتفوقون في ذلك حتما على الكثير من الشعوب الشمالية.» ويسجل لين أن المصريات بالأخص «لديهن صفة المشاعر الأكثر شهوانية» ويضيف بأن الأشد إثارة من ذلك هو أن «هذه الصفة يفتخر بها لهن رجالهن، حتى في أحاديثهم مع الأجانب.» ونحن من جانبنا نتردد في إعطاء مثل هذا الجواب الملتبس. ففي أشد الأعراف الجنسية تشددا والتي تشكل جزءا من الثقافة التقليدية عند العرب، يمكن للمرء أن يستنتج أن كافة المحظورات التي يتضمنها ما هي إلا ضرورات لما في الجنس من فتنة تؤثر فيهم بشكل أقوى مقارنة بالشعوب الأخرى التي أشرنا إليها. ولكننا إن افترضنا ذلك، يمكن لرأي آخر أن يبرز مفترضا أن الهاجس الجنسي الأعظم الواضح والمميز للعرب هو نتيجة لهذه الأعراف نفسها التي تحدد وتمنع نشاطهم الجنسي.

ومهما كانت الحال، يمكن الاستنتاج بأنه عند مقارنة العالم العربي بالغرب، يشكل المجال الجنسي مشكلة أكبر للعرب وبالتالي يتطلب اهتماما وقلقا أكبر. وأصبح التضاد ما بين العالمين ملحوظا بشكل خاص منذ ظهور ما أطلق عليه الثورة الجنسية في ستينات القرن العشرين في الغرب، والتي تسببت في زوال العديد من المحظورات الجنسية التي فرضتها العادات الاجتماعية والثقافية. وأدت الأعراف الجديدة المنتشرة في المراكز الحضرية الكبرى في الغرب بما فيها من تحرر إلى تضاؤل الجانب الإشكالي في الجنس

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©

الفصل الثامن: مملكة الجنس

وحولت النشاط الجنسي إلى شيء شبيه بالرياضة يشارك فيه اليافعون جميعا كنشاط طبيعي. وبينما كان اليافعون في الماضي يطلب منهم تسخير كافة طاقاتهم للدراسة والرياضة، أصبح من المقبول في أيامنا هذه وجود ثلاثة مجالات يجب على الشاب أن يثبت كفاءته فيها قبل أن يكون مهيئا تماما لأخذ موقعه في المجتمع، وهذه المجالات هي: الجنس والرياضة والدراسة، ولا يوجد أي من هذه المجالات الثلاثة في العالم العربي. ومع أن الدراسة تحصل يوما بعد يوم على مكانة عالية، وأن الرياضة تزدهر عندهم باستمرار (وكلاهما يستمد طاقة محفزة كبيرة من الشعور القومي)، فإن الجنس لا يزال مختبئا في ظلام المحظورات القديمة.

على الأقل يمكن الإشارة إلى مفكر عربي حديث ذي أفكار مؤثرة، وهو علي الوردي، والذي استطاع أن يصل إلى إدانة الأعراف الجنسية العربية التقليدية. بل إنه عزا أسباب دمار المجتمع المسلم وضعف حيوية الجيل الشباب إلى المحظورات الجنسية المعقدة (التي شاعت في فترة ما قبل ستينات القرن العشرين) في المجتمع العربي، ودعا إلى خلع الحجاب، والاختلاط، والاشتراك في الرقصات الاجتماعية، وحتى المغازلة. ولا داعي للقول هنا بأن دعوة الوردي للتحرر الجنسي قد أثارت إدانة قوية من عدة فئات اجتماعية وتلقت مطالبه الرفض، وترافق ذلك دائما مع نزعة واسعة معارضة للتغريب بشكل عام.

إن صدور الدعوات بشكل فردي في الجانبين يذكر بالنمط الذي ميز النقاش حول تحرير المرأة جنسيا والذي سبق الثورة الجنسية في الغرب خلال ستينات القرن العشرين. إن القضية في تحليلها النهائي تتعلق أساسا بالسؤال التالي: هل ينبغي للمرأة أن تتمتع بالحرية الجنسية نفسها التي يتمتع بها الرجل، أم لا؟ أو بصياغة أخرى: هل ينبغي الإبقاء على المعيار المزدوج في الأعراف الجنسية، أم لا؟ وبما أن العادات والتقاليد المتعلقة بالجنس تحتل موقعا صميميا في الثقافة العربية، فهذا يفسح المجال للتوقع بنشوب صراعات طويلة الأمد حول هذه القضية. إن الرواد في هذا المجال سيتعرضون للاتهام، كما حصل مع علي الوردي، بأنهم يحاولون تعريف العالم العربي بأفكار خاطئة ورذائل من «بلاد

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل ©

الفصل الثامن: مملكة الجنس

الغرب المظلم أخلاقيا.» وقد تصل الأمور إلى حد اتهام الغرب بممارسة نوع جديد كليا من «الامبريالية الجنسية» وربما يعتبر هذا النوع الأكثر وحشية برأي مناهضي تلك الدعوات باعتباره المحاولة الأكثر خبثا من الغرب لفرض ذاته على المشرق العربي. ومع ذلك، وبما أن كافة الأصوات التي عارضت الامبريالية الثقافية الغربية لم تكن ذات جدوى كما ظهر لاحقا، يمكن التوقع بأن العقل العربي لن يكون له في النهاية خيار سوى قبول الأعراف الجنسية الغربية؛ وأن حكمته الفطرية ستجد سبيلا إلى تعديلها وقولبتها إلى أن يصل -بعد ما شهدناه في تجربة «الاشتراكية العربية»- إلى مشتق متنوع عربي خاص فيما يخص السلوكيات الجنسية الجديدة.

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©